



ياسوناري كواباتا

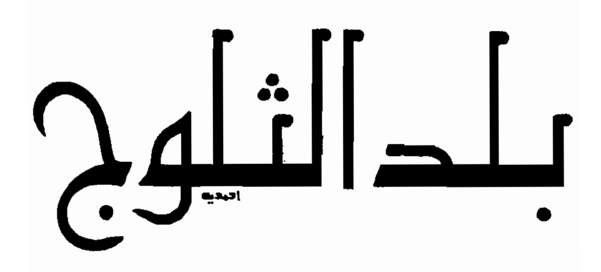
ترجمة

بسّام حجّار

بلد الثلوج



ياسوناري كواباتا



ترجمة

بسّام حجّار



١٩٩٣

سلسلة روايات من العالم/٨

الرواية بلد الثلوج

المؤلف ياسوناري كواباتا

الترجمة بسام حجار

الناشر دار الفارابي - بيروت - لبنان
ص.ب. ١١/٣١٨١ - ت:٠١/٣٠٥٥٢٠

التنضيد شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل.

الطبعة العربية **الأولى ١٩٩٣**

- ١ -

نفقٌ طويل بين المنطقتين وها قـد حَلَلْنا في بلدِ الثلوج. كـان الأُفقُ قد ابيضّ تحت عتمةِ الليل. أبطأ القطار من سرعته وتوقف عند مركز التوجيه.

نهضت الصبيّـة التي كـانت تجلس في الجهـة المقـابلة من الممشى وجاءت تفتح النافذة أمام شيامـورا فدلف صقيـع الثلج إلى العربـة. مالت الفتاة بجسمها إلى الخارج بقدر ما استطاعت ونادت على ناظـر المحطّة بملء صوتها.

كان الرجل يقترب مُتمهّلاً يُعيقه الثلج الكثيف، وفي يده مصباح. كانت لفّاعته تغطي وجهه حتّى أسفل العينين وطيّة قبعة الفرو تغـطي أذنيه.

«أيُعقـل مثل هـذا البرد منـذ اليوم؟» قـال شيامـورا في سرّه وراح يُمعن النظر في الخارج فلا يرى سوى بضعة أكواخ عند سفحِ الجبلِ، هنـاك حيث تبدّد بيـاضُ الثلجِ في كنفِ الليـل. لا بـدّ أنّها مسـاكن مستخدمي السكّة الحديد. «هذه أنا، أيّها الناظر. كيف حالك.

ـ آه! هذه أنت يا يوكو... ها قد عدتِ إذن؟... لقد حلّ البردُ مجدّداً.

ـ لقد بلغني أنّ شقيقي قد تدبّر لـه عملاً هنـا، وكنتُ أودّ أن أعبّر لك عن امتناني لاهتمامك بالأمر.

ـ لكنّك تعلمين جيّداً أنّه، في ناحية نائية مثـل هذه، لن يلبث أن يشعر بوطأة الوحدة.

ـ بأية حال لا يسعني أن أقول سوى أنه مجرّد صبيّ كبير. فهـل لي أن أتّكل عليك في تلقينه ما يلزم؟

ـ أوه! صـدّقيني، إنّه يتـدبر أمـره جيّداً. ثمّ لـدينـا الكثـير لنفعله بسبب غزارة الثلوج وغيرها. لقد تساقط الثلج في العام الماضي بغزارة لم نشهـدها من قبـل، حتّى إنّ القطارات كـانت غالبـاً مـا تحتجـزهـا الأجرفُ الثلجية. وكان سكّان المنطقة في حركة لا تهدأ لتهيئة الـطعام للمسافرين المحتجزين.

ـ يبـدو لي أنّك تتقي الـبرد جيداً. لقـد أخبرني شقيقي في رسـالته الأخيرة أنه لم يرتدِ صدرة الصوف بعد.

ـ أنا أحتاج لأربع منها، أرتـديها واحـدة فوق الأخـرى لكي أشعر بالدفء. أمّا أولئك الفتيـان فهم يقاومـون البرد بـالكحول. . . هـذا كلّ ما يحتاجونه لحين عودتهم إلى هناك! قال الناظر وأشار بحـركة من ذراعه التي تحمل المصباح إلى أكواخ الخشب. . وفي السرير مع قليـلٍ من «الروم» الجيّد! إنّها الوسيلة الأنجع.

ـ وشقيقي هـل يشرب هو الآخـر؟ قالت يـوكو الشـابّـة بشيءٍ من القلق.

ـ لا، ليس في حدود علمي.

ـ هل تغادر في مثل هذه الساعة؟ سألت بدهشة.

ـ أجـل، عـليّ أن أذهب لاستشـارة طبيب. . . أوه! الأمـر لا يستحقّ: مجرّد خدش بسيط.

ـ آه! عليك أن تعتني بنفسك إذاً!»

كان الرجل الغارق حتّى أذنيه في معطفه الفضفاض الـذي يرتـديه فوق الكيمونو يبتعد وقد تجمّدت أوصاله فيغادر بخطىً سريعة.

«وأنتِ أيضاً، اعتني بصحتك جيّداً!» قال مُتابعاً سيره.

واصلت يوكو كـلامها مُجيلةً أنـظارها عـلى طولِ الـرصيف المغطّى بـالثلوج. «أيّها النـاظر! ألا يُصـادف أن يكون شقيقي في الخـدمة في مثل هذا الوقت؟ راقبه جيّداً، أرجوك!»

كـان مُفعماً بجمـال ذلك الصـوت الذي لا مثيـل له والـذي كان يبتعـدُ قويّـاً ورجراجـاً، فيتدحـرج كـالصـدى عـلى الثلج وفي أنحـاء الليل. صوتٌ له سحر الكآبةِ المقلقِ فيخترق القلوب. كانت الصبيّـة لا تزال منحنية إلى الخارج عبر النافذة عندما عاود القطار سيره.

«ليأتِ إلى المنزل في الإجازة! قُل له أن يفعل! صدح صوتُها الرائع لحظة مرور القطار بقرب الرجل الذي كان يتـابع سـيره بمحاذاة الخط الحديدي.

ـ حسناً» قال ناظر المحطة.

رفعت المسافرة الشـابّة زجـاج النافـذة وقبل أن تعـود إلى مقعدهـا مَسَحت براحتيها خدّيها المتوردين من البرد.

من تلك النـاحية من السفـح، وفي ذلك المـوقع بـالذات، كـانت تقف كـاسحات الثلج الثـلاث التي استـدعيت تحسُّبـاً لمـا قـد يسبّبـه

تساقط الثلج الغزير في الأيام المقبلة. كما جُهِّزت المنطقة بنظام إنذار كهربائي ثُبِّتَ عند مدخلي النفق للكشفِ عن أي جرف ثلجي محتمل قد يؤدّي إلى طمر الخط الحديدي. وتمّ إعداد الأيدي العاملة التي تكفي لخمسة آلاف يومِ عمل ووضعت في حالة تأهّب دائم: عمّال مياومون ينتظرون إشارة التدخّل لفتح الخط الحديدي، إضافةً إلى الألفي يوم عمل التي يؤمّنها المتطوعون من الفتيان في صفوف رجال الإطفاء.

«... ليست سوى محطّة صغيرة لن يلبث أن يبتلعها الثلج... هنا سيعمل إذاً شقيق الفتاة الشابة التي تُدعى يوكو». هذا ما راود شيمامورا وقد استغرقه انشغالُه المتزايد بالفتاة. وإذا كانت أفكاره تقول له، دون أن يقصد، إنّها فتاة عازبة فلأنّه، ببساطة، كان يرى فيها شيئاً يدفعه للإعتقاد بأنّها غير متزوجة. والحقيقة أن الفتاة كانت في صُحبة رجلٍ آخر، ولم يكن في وسع شيمامورا بالطبع أن يعرف بالضبط من عساه يكون. بدا من تصرّفاته، للوهلةِ الأولى، أنّه زوجها. غير أنّ الرجل كان يبدو وكأنّه مصاب بمرض عضال وشأن المرض دائماً أن يوقف الصلة بين رجلٍ وامرأة. فأي امرأة شابة تحيط رجلاً يكبرها سناً بعناية أمّ ولا تترك انطباعاً لدى من يراها من بُعد بأنّها زوجته؟ بلى، ومهما كانت الظروف. وكلّما ازدادت العناية التي يتطلبها المريض ازداد اليقين بكونهما زوجاً وزوجة...

وانطلاقاً من هذا الشعور العام الذي أثارته المظاهر الخارجية في روعه، رأى شيمامورا أنّه من الأفضل إذاً أن يفكّر في الفتاة بمعزلٍ عن وجود الرجل. وكان هذا الشعور، لفرط ما طال به التأمّل، قد

اغتنى بـانطبـاعات شخصيّـة وبردود فعـل ذاتية شـديـدة ولا تخلو من غرابة.

لقد حدث هذا قبل ثـلاث ساعـات، بينما كـان شيهامـورا، دفعـاً للضجر الذي يعانيه، يتأمّل بشرود راحة يده اليسرى، ويحرّك أصابعه محدّثاً نفسـه بأنّ لا شيء سـوى هذه اليـد، ولمسة أصـابع هـذه اليد، يحفظ التذكار الحسيّ المتوقّد، والذكرى الدافئة الشهوية للمرأة التي كان في طريقه لملاقاتها. ذلك أنّها كانت تفلت من ذاكرته وتتبدّد كلّما حاول أن يتذكرها ولا تترك لها أثراً يتشبث به أو شيئاً يقـدر أن يحفظ ذكراه. وفي الغشـاوة التي اكتنفت كيانـه لم يكن سوى هـذه اليد اليسرى التي تحفظ التـذكار الجـليّ، كما لـو أنّه مـاثلٌ الآن، لملمسهـا الذي أفسـح لشيهامورا أن يستعيد الماضي. وأحسّ شيهامورا بغتةً بالحـرارة المتوقّـدة تحت ملمس يده، وكاد أن يقلقـه واقع هـذا الحضور الغـريب أو ربّما استهواه قليلاً فأدنى يده من وجهـه، وبإصبـع ممدودة راح يـرسم خطّاً على الزجاج المغبش بحركات خاطفة وفي سرّه كان طيف عـين أنثويـة يتراءى له، فيكاد أن يصرخ لهول المفـاجئة. غـير أنّها لم تكن أكثر من حلم داخل حلمه، وأدرك المسـافر بعـد أن تمالـك نفسه أنّهـا لم تكن سوى صورة الفتاة الشابة قُبالته، وقد انعكست عـلى زجاج النـافذة. كـان الظلامُ قـد حلّ في الخـارج، وأضيئت الأنـوار داخـل عـربـات القطار، فأصبح زجاج النوافذ أشبه بالمـرايا؛ فقـد حال الغبش الـذي كان يُغطيها قبل ذلك دون استمتاعه بالرؤيا التي تراءت له عـبر الخطّ الذي رسمه بإصبعه.

كانت العينُ التي رآهـا شيهامـورا على قـدرٍ غير عـاديّ من الجمال،

لكنه تظاهر بسقام السفر مُتضجّراً، وأدنى وجهه من النافذة كأنّه يريد أن يتأمّل منظر المساء، ومَسَح الغبش عن زجاج النافذة.

كانت الفتاة جالسةً وقد حَنتْ جذعها قليلاً إلى الأمام لكي يتسنّى لها أن تراقب بانتباه حالة الرجل المتهالك على المقعد المواجه. وعندما لاحظ شيمامورا هذا القدر من الانقباض في انعكاس وجهها على الزجاج، أدرك أنّ تيقّظها الشديد هو الذي يُبقي عينها ثابتة ويُضفي على نظرتها ذلك البريق المفعم بالقسوة المنفّرة خَلَل جفنين ثابتين. كان الرجلُ ممدّداً وقد اتكأ رأسه إلى حافة النافذة ومدّ ساقيه ليُسند قدميه إلى المقعدِ حيث تجلس الفتاة. كانت العربة لمسافري الدرجة الثالثة، ولم يكن الزوجان يحتلّان في الجهة الثانية من الممشى، مقعدين موازيين لمقعد شيمامورا: فقد كان يجلس في الصفّ التالي أمامهما لذلك لم يكن في استطاعته أن يرى، في انعكاس النافذة ـ المرآة، سوى الملمح الجانبي من وجه الرجل حتّى أسفل الأُذُن.

أمّا المرأة الشابة التي كانت تجلسُ قُبالَته على زاويةِ انحراف، فقد كانت في حقلِ نظره مباشرةً. ولكن حين صعد هذان المسافران الجديدان إلى العربة لم يستطع إلاّ أن يُغضي طَرْفَه وكأنَّ إحساساً بالخفر قد انتابه فجأة لجمالِ المرأة الشابة ومسحة البرد المُتحفّظ التي كانت ترتسم على وجهها، ولم يقدر أن يرى حينذاك إلاّ أصابع المريض المعروقة الشاحبة مُمسكة بذراع رفيقته. كان شيمامورا قد أشاح ببصره عنها ودون أن يعي سبباً لما يفعله، لم يجرؤ بعد ذلك على النظر ناحيتها.

ما أصبح يراه من وجه الرجل في المرآة التي جعلها من زجاج

النافذة، سمةَ الاسترخاء ليس أكثر، والملامح التي تنعم باستسلام هادىء لدعةِ الطمأنينة، فيُخيّل إليه أن علّة ما يراه هي نظرات الرجل المُثبتة على نحر المرأة والساهمة فيه. كان شيماورا يرى في صورة الزوجين شيئاً من الانسجام المستمدّ ممّا في ظلّيهما الرهيفين من رقّة واتزان. كان الرجل مُستلقياً باسترخاء متوسّداً طرف لفّاعته فيما كان الطرف الآخر منها مُسدلاً على خدّه وفمه كقناع. وكان طرف القماش ينزلق أحياناً فيغطي أنفه أو ينحسر فيتكشف عن وجهه، وعندئذٍ تسارع المرأة الشابة، الساهرة المتيقظة، حتّى قبل أن يحرّك ساكناً، فتدنو منه وتعيد كلّ شيء إلى حاله السابقة. ولفرط ما تكرّر هذا الأمر متبوعاً بالحركة الآلية ذاتها أمام ناظري شيماورا لم يتمالك هذا الأخير ما استيقظ في روعه من شعورٍ بالضيق. وكانت المرأة ما أن تنتهي من أمر الوشاح حتّى تنهمك بذيل المعطف الذي يُغطي قدمي المريض، فينحسر ويتدلّى طرفه فلا تلبث المرأة أن تعيده إلى مكانه بحركة خاطفة شبه آلية. وكلّ ذلك كان يبدو تلقائياً، وهذان الشخصان يبدوان بمنأى عن أي إحساس بالزمان أو بالمكان، وكأنهما أعدّا العُدّة لمواصلة رحلتهما إلى الأبد والتوغل في بُعدِ المسافةِ إلى ما لانهاية. ولهذا السبب ربّما لم يُبد شيماورا، من جهته، أي إحساسٍ بالتعاطف أو الإشفاق أو الحزن التي قد يستثيرها مثل هذا المشهد المؤثر: كان يرى كلّ هذا دون انفعال وكأنّ الأمر لا يعدو كونه لعبة صغيرة داخل حلمٍ لن يلبث أن يتلاشى - وكان ذلك بالتأكيد تحت وطأة ما خلّفته فيه مرآته من أثرٍ غريب.

في الخلفيّة البعيدة جدّاً كان منظر المساء يرتسمُ متوالياً كأنّه أصبح، على نحو ما، طبقة قصدير متماوجة لهذه المرآة. وكانت

الوجوه البشريّة التي تعكسها أكثر وضوحاً إذ تتداخل كصور مُضاعفة في شريط. لم يكن هناك بالتأكيد أي رابط بين الصور المتوالية في الخلفية المعتمة وتلك، الأكثر وضوحاً، للشخصين الجالسين. ومع ذلك كان الكلُّ مُتناغماً في وحدةٍ رائعة، فكم كانت الشفافية الأثيريّة للوجوه تبدو مُلائمةً ومُمتزجةً بالتشوّش المُعتم للمنظر الذي يكتنفه الليل، ليشكّلا معاً كوناً واحداً وحيداً، ضرْباً من العوالم التي تفوق الطبيعة، العوالم الرمزيّة التي لا تنتمي إلى هذه الأرض. عالم الجمال الذي لا يطولُ إليه وصفٌ والذي كان يعصف بكيان شيمامورا ويخترقه حتّى القلب. شيمامورا الذي أحسّ بالاضطراب كلّما لاح ضوء في البعيد، هناك في الجبل، والتمع بغتةً على وجه المرأة الشابة فيُصبح آيةً لا توصف لجمالٍ لا يوصف.

في السماء المعتمة، فوق الجبل، كان الغسقُ قد خلّف بعضاً من مَسَحاته القرمزية ولا يزال في وسع الناظر أن يرى، في البعيد البعيد، ظلال القمم المستوحدة عند الأفق.

أمّا هنا، أقرب منها، فقد كان المنظر الجبلي نفسه يتوالى وقد أصبح مُطفأً فاقداً كلَّ لون. ليس فيه ما يغوي العين. يتوالى كسيل من الرتابة ويزدادُ حياداً وامّحاءً ووَهناً ما توالى عبورُه على مقربةٍ من ملامح المرأة الشابة وخلف هذا الوجه المثير الذي بدا أنّه يبثّه في الأرجاء المكفهّرةِ مثله. صحيح أن صورة هذا الوجه نفسها كانت تبدو أقلّ حِسيّة مما ينبغي فالأحرى أن تكون شفافة هي أيضاً. وفي سعيه لأن يتبيّنَ إذا كانت كذلك فعلاً حَسِب شيمامورا لبُرهةٍ أنّه يرى المنظر مقلوباً غير أن الصور كانت تتوالى بسرعة خاطفة فاستحال عليه

أن يتهالك هذا الانطباع.

كانت الإضاءة ضعيفة داخل العربة وما كان يراه شيامورا مجرّد انعكاس لم يكن بوضوح ونقاء الصورة في مرآة حقيقية. وهكذا استطاع دون كبير عناء أن ينسى حقيقة أنّه يتأمّل انعكاس صورة على زجاج النافذة، وسرعان ما تنامى في داخله الشعور بأنّه يرى هذا الوجه الأنثوي في الخارج عائماً يُودي به السيلُ المتدفق للمنظر الوحشيّ المدلهمّ.

في تلك اللحظة بالذات التمع ضوءٌ بعيد وتألّق على الوجه. لم تكن الصورة، في لعبة الانعكاسات على المرآة، ترتسم بالثباتِ الكافي لكسفِ التماعة الضوء، ولكنها أيضاً لم تكن خاطفة إلى حدّ التلاشي خلفها. وتتبّع شيامورا مواضع تنقّل الضوء البطيء على الوجه دون أن يثير فيه اضطراباً. التماعُ بارد مبدّد في المسافة. وعندما اتّقد لمعانه الخافت في حدقة المرأة الشابة، وعندما تقاطع بريق النظرة والتماع الضوء المنبعث من البعيد وامتزجا، كان ذلك أشبه بمعجزة جمالٍ يُشرقُ في كنف الغرابةِ، وتلك العين المُشرقة التي بدت وكأنّها تبحر في أوقيانوس الجبال وموجها المتسارع.

كيف فطنت يوكو إلى حقيقة أن هناك من ينظر إليها؟ كانت لا تسهو لحظة واحدة عن رفيقها المتوعّك. وحتّى لو أنّها رفعت عينيها ونظرت إلى شيامورا لما كان يسعها، على الأرجح، أن ترى انعكاس صورتها على الزجاج، لذلك لم يخطر لها أن تلتفت إلى ذاك المسافر الذي يمكث هناك، ببساطة، ويُطيل النظر من النافذة.

أما شيامورا فلم يخطر له، من جهته، أنّه قد يكون من غير

اللائق أو حتّى من الوقاحة أن يرمق بمثل هـذه النظرات المـرأة الشابـة التي يحرص أن لا يدعها تغيب عن ناظريه، لشدّة ما أسرته تلك الفتنة الخرافية والخارقة للوحة الماثلة أمـام عينيه، مسحـوراً بالبهـاء الغريب لذلك الوجه العابر في المنظر الليلي. لقد سها عن نفسه إذ تملكته فتنـة تلك اللعبة حائراً فيما إذا كان يحلم أم لا.

عاوده إحساسه هذا عندما رآها تنهض، عند توقف القطار، وتدنو منـه لتنادي نـاظر المحـطّة، دون أن تفارقها علائم الـرصانـة والنُبل، فدفعته أولى مشاعره نحوها لا أن يراها هي بـل أن يرى فيهـا إحدى بطلات العصور السحيقة أو إحدى شخصيّات عالم الأساطير.

كان الليلُ ومنظرُ الليل كلّه قد احتلاّ النافذة التي فقـدت سحرهـا كمـرآة عند توقّف القطار. وكـانت مسحة الـبرود في ملامـح يـوكـو، وبرغم العناية الدافئـة التي أحاطت بهـا رفيقها المـريض قد تسرّبت، منذ بعض الوقت، إلى كيان شيمـاورا وجعلته يحسّ بـالخيبة. وحـين عـاود القطار سـيره لم يكلّف نفسـه عنـاء مَسح الغبش عن الـزجـاج مجدّداً.

وكم كـانت دهشته عـظيمة حـين لاحظ، بعد نصف سـاعـة، أنّ المرأة الشابة ورفيقها سينزلان في المحطّة نفسها! ولم يستطع أن يتـمالك نفسـه من الالتفات إليهـما كأنّـه يرغب في التـأكّـد أنّـه لا عـلاقـة لـه شخصياً بهذه المصادفة الغريبة. غـير أنه مـا إن وطيء رصيف المحطّة حتى أحسّ بقرصة برد مباغتة أيقظته وأحسّ بالخجل من سلوكه الفظّ في القـطار. ودون أن يلتفت إلى الـوراء عـبر الخطّ الحـديـدي أمـام الحافلة.

حاول الرجل المريض وقد تشبّث بكتف المرأة النزول من الجهة الأخرى حين رفع أحد العاملين ذراعه محذّراً.

وفي اللحظة نفسها انبثق قطار البضائع الطويل من العتمة فجأةً وعبر أمامهما ببطء فحجبهما عن الرؤية.

كان حمّال اليادويا(*) حيثُ سيُقيم، يُشبه واحداً من رجال الإطفاء بالزيّ الذي يرتديه من واقي الأذنين وجزمة الكاوتشوك. وبدت في ردهة الانتظار امرأة ترتدي عباءة زرقاء ومُعتمرة تراقب ناحية الخطوط.

هل كان البردُ قارساً حقاً؟ لم يكن في استطاعة شيمامورا الذي غادر لتوّه القطار المجهّز بتدفئة جيدة أن يعلم. وكان ينظر بإعجاب إلى الأزياء الغريبة التي ارتداها سكان المنطقة كأنّها المرّة الأولى التي يأتي فيها لقضاء فصل الشتاء في بلد الثلوج.

«أهو موسم الصقيع قد حلّ؟» سأل شيمامورا الرجل.

ـ ذلك أننا على أبواب الشتاء تقريباً. وعندما تنجلي السماء بعد تساقط الثلج لا بدّ أن يكون الليل بارداً جداً. وكن واثقاً أننا الليلة سنشهد موجة صقيع.

ـ تقول: صقيع؟

ولاحظ شيمامورا وهو يستقلّ عربة الأجرة إلى جانبه أنّ خطوطاً من الجليد توشّي أطراف الشرفات. وكانت مداخل البيوت المنكفئة تبدو

(*) نزل على الطريقة اليابانية، يختلف عن الفنادق المعروفة في العالم.

في بياض الثلجِ غارقةً في صمتٍ أعمق. وبدا أنّ كلّ شيء يكتسي بصمت الأرض.

«لا يصعب علينا أن نتبيّن، على الفور، أن البرد هنا يختلف عمّا هو عليه في مناطق أخرى. ونستطيع أن نحسّ بالفارق حتّى عن طريق اللمس.

ـ أكثر من عشرين درجة تحت الصفر في العام الماضي.

ـ وهل تساقط ثلجٌ غزير؟

ـ متران أو ثلاثة بالمعدّل، وكان يحدث أن يصل ارتفاعه إلى أربعة أمتار أحياناً، هذا ما أستطيع قوله لك!

ـ هل هذا يعني أن موسم الثلوج قد بدأ الآن؟

ـ إنها البداية، أجل. لقد بلغت كثافة الثلج حتى الآن ثلاثين سنتمتراً وقد ذاب قسم منه.

ـ ذاب؟ أيُعقل هذا؟ أيحدث أن يذوب الثلج أحياناً؟

ـ ولكن كما ترى يحدث بين الليلة وضحاها أن يتراكم مثل هذا القدر من الثلوج، وصدّقني حين أقول ذلك!».

كان شهر كانون الأوّل لا يزال في أيّامه الأولى.

كان شيمامورا يُعاني انسداد منخريه لإصابته بزكامٍ شديد، إلاّ أنّ البرد اجتاح جيوبه الأنفيّة ونصف دماغه دفعةً واحدةً وكان عليه أن يتمخّط لينعتق توّاً كأنّه غُسِل من كلِّ ما كان يُعيقه حتّى اللحظة.

سأل البوّاب: «أما زالت المرأة الشابة التي كانت تقيم لدى استاذة الموسيقى في هذه البلاد؟

ـ طبعاً. إنّها هي التي كانت تنتظر في المحطة. ألم ترها إذاً؟ كانت ترتدي عباءة زرقاء...

ـ آه! هي إذاً؟ لم أنتبه. ولكن في إمكاني ربّما أن أطلب منها الحضور، أليس كذلك؟

ـ لهذه الليلة بالذات؟

ـ أجل، هذه الليلة.

ـ ذلك أنّه بلغني أن ابن مدرّسة الموسيقى وصل في القطار الذي كنتَ فيه. وأنّها كانت هناك لاستقباله».

ابن أستاذة الموسيقى! الرجل المريض الذي كان يراه في مرآة الليل، رفيق رحلة يوكو: إنّه ابن صاحبة البيت حيث تقيم المرأة التي جاء من أجلها! صُعِقَ شيمامورا وشعر بأنّ ردّ فعله الفاتر حيال هذه المفاجأة الغريبة هو الذي يجعله أقلّ اكتراثاً ممّا ينبغي.

كان يراوده سؤال يقرأه بوضوح كمن يقرأ كلاماً مدوّناً في رأسه: ما الذي جرى أو سيجري بين المرأة التي ما زالت راحة يده تحفظ ذكراها الدافئة وتلك التي رأى في عينيها التماع البريق الجبلي البعيد؟ أو ربّما أيضاً لا يزال هو نفسه أسير تلك الخيالات السحريّة لمرآة الليل وفتنة المنظر الذي تراءى من خلالها... إلاّ إذا كان كلّ ذلك لا يعدو كونه الرمز الحيّ لانقضاء الزمن.

كان عدد النزلاء في نزل الينبوع الحار أقلّ مما هي العادة خلال الأسابيع القليلة التي تسبق موسم التزلّج. وبعد أن استحم ألفى شيمامورا نفسه في دارة أطبق عليها النوم. كان يسير في الرواق الطويل موقظاً في كلّ خطوة صدىً بعيداً ترتجّ له مربّعات الأبواب

الزجاجية لبعض الوقت. ليس أكثر. غير أنّه حين استدار عند الزاوية لمح خيال المرأة النحيل واقفاً أمام مكتب الاستقبال وقد ارتدت الكيمونو الطويل الذي بدا له برّاقاً وقاتماً بثنياته الكابية التي تسحب على الأرضيّة المشمّعة.

لم يتمالك شيمامورا رجفةً انتابته حين رآها مرتدية الكيمونو الطويل. هل أصبحت أخيراً فتاة غيشا؟ لم تتقدّم المرأة الشابة نحوه ولم يبدر منها ما يشيرُ إلى أنّها عرفته. وهكذا رأى شيمامورا في وقفتها الثابتة الصامتة نوعاً من الوقار الخالص. فدنا منها بسرعة دون أن ينبس. بادرت إلى الابتسام وقد طالعته بوجهها الذي تغطيه طبقات كثيفة من المساحيق على طريقة فتيات الغيشا، ثمّ انهمرت دموعها فبلّلته. ودون أن يتبادلا كلمة واحدة اتجها نحو غرفته.

برغم كلّ ما جرى بينهما لم يكتب لها ولم يأت لرؤيتها كما أنه لم يرسل إليها الكتب التي تعلم أساليب العزف كما وعدها. كانت لديها كافة الأسباب التي تجعلها تظن أنّه أمضى وقتاً ممتعاً معها قبل أن ينساها. ولذلك كان على شيمامورا أن يبادر إلى الاعتذار وعليه إذاً أن يبدأ هو بالكلام. إلاّ أنهما في سيرهما معاً دون أن يتبادلا كلمة أو حتى نظرة واحدة، أدرك شيمامورا أنّها ليست حاقدة عليه، لا بل إن الغبطة تفعم قلبها وتغمرها السعادة لرؤيته من جديد. فما فائدة الكلام إلاّ تأجيج ما كمن في ذات نفسه من اشتياق، وكان شيمامورا في استسلامه لسحر اللحظة، يتوغل قُدُماً في عالمٍ من الرّقة والهناء. وعندما أصبحا في محاذاة الدَرَج مدّ ذراعه نحوها وبسط كفّه اليسرى أمام عينيها.

ـ إنّها هي التي حفظت منك أجمل ذكرى.
ـ حقاً؟ قالت وشدّت بيدها على كفّه كأنها تريد استدراج شيهامورا إلى الطابق العلوي.

ظلّت اليد الأنثوية تشدّ على أصابع الرجل ولم تفلتها حتّى أصبحا أمام «الكوتاتسو»(*) في وسط الغرفة. وفجأة توردت وجنتا المرأة الشابة برغم المساحيق، وفي سعيها لإخفاء ارتباكها قالت وهي تشير إلى يد شيهامورا:

ـ أهي التي تذكّرتني؟
ـ ليست اليد اليمنى، لا: بل هذه! قال موضحاً وقد مدّ يده اليسرى باسطاً كفّها بينما اندسّت يده اليمنى تحت غطاء الكوتاتسو ليدفئها.

ـ أجل، أعلم، قالت بابتسامة خفرة وأمسكت يد شيهامورا بحنان بين يديها الاثنتين ووضعتها على خدّها برفق.

ـ «لقد تذكرتني؟ همست ساهيةً وكأنها تخاطب يده.
ـ آه كم هو بارد! قال شيهامورا مبدياً دهشته حين لمست أصابعه تسريحة شعرها العالية. لم ألمس في حياتي تسريحةً بمثل هذه البرودة.
ـ أما من ثلوج في طوكيو بعد؟ سألته.
ـ أوتدرين، قال شيهامورا، ما كنت تقولينه في المرّة السابقة لم يكن

(*) وسيلة تدفئة دارجة الاستعمال في اليابان. عبارة عن إطار مغطّى بوسادة سميكة. إنها مدفأة كبيرة، نوع من المقعد حيث يستطيع الجالس أن يعرّض قدميه ويديه، تحت الغطاء، لحرارة جمر مشتعل.

صحيحاً بالفعل. وإلاّ كيف يخطر لمن هو مثلي أن يأتي، في نهاية السنة، مُعرضاً نفسه لأن تتجمّد أوصاله من البرد في بقعةٍ نائية مثل هذه؟».

- ٢ -

. . . في المرّة السابقة. كان ذلك يوم افتتاح موسم التسلق، حين تكون أخطار الإنهيارات الثلجية قد زالت، وحين تُصبح النزهة ممتعةً عند أعلى الجبل الذي استعاد خضرته الوافدة وعطور ربيعه الزكيّة، وحين لا تعود نُبوت الأكبي الطرية توضع على الموائد لتزيّن وجبات الطعام.

كان شيمامورا الحائر في عيشه المتبطّل كثير الأهواء، يحاول أحياناً أن يهتدي إلى ذاته. وعندها كان يرغب في السفر وحيداً إلى الجبل بمفرده. وهكذا قادته أسفاره ذات مساء إلى منتجع الينابيع الحارّة في ختام جولةٍ استغرقت أسبوعاً كاملاً في سلسلة «الأرياف الثلاثة» الجبلية. وطلب عندها أن يأتوا إليه بإحدى فتيات الغيشا. ولكن لسوء الحظ، على ما أخبرته الخادمة، يُصادف اليوم قيام احتفال حاشد لمناسبة افتتاح الطريق الجديدة، واضطروا إلى فتح العنبر الذي يُستخدم أحياناً كقاعة مسرح. وهذا يعني، إذا فهم جيّداً، أنّ الاثنتين أو الثلاث عشرة غيشا اللواتي يعملن في المنطقة لسن متفرّغات في الوقت الحاضر. ولكن ربّما كانت الآنسة التي تقيم في دارة استاذة الموسيقى قادرة على المجيء، قالت الخادمة. إذ يحدث أن

تشارك أحياناً في الاحتفالات، إلاّ أنها لا تمكث أبداً حتّى النهاية، فلا تلبث أن تعود إلى دارها بعد رقصتين أو ثلاث.

ولمّا كان شيهامورا قد أكثر من الأسئلة حول الفتاة، لم يكن في وسع الخادمة إلاّ أن تخبره المزيد عنها. فهي ليست فتاة غيشا حقيقية، لا. إنها آنسة تقيم في دارة أستاذة الموسيقى، وهي بدورها أستاذة رقص وعزفٍ على آلة الساميسن(*)، ويتمّ استدعاؤها أحياناً فلا تبخل بالعون. ذلك أن فتيات الغيشا المحترفات في المقاطعة لم يدرّبن مبتدئةً واحدة، ويفضّلن، جميعهن تقريباً، الاّ يُرغمن على أداء رقصة ما خشية الاّ تسمح لهنّ أعمارهن بذلك... ولذلك كانت مشاركة أستاذة الرقص تلقى ترحيباً واستحساناً. إلاّ أنها، برغم ذلك، ما كانت لتقبل على الإطلاق أن تأتي بمفردها للترفيه عن أحد نزلاء الفندق. ولكن برغمِ كونها فتاة غيشا غير محترفة فلا يمكن القول، مع ذلك، إنها تعمل كهاوية ولا أن يُنظر إليها على أنّها كذلك.

يا لها من حكاية غريبة! ردّد شيهامورا في سرّه قبل أن تراوده أية خاطرة أخرى. وفي غضون ساعة تقريباً عادت الخادمة وفي رفقتها «الآنسة التي تقيم في دارة أستاذة الموسيقى». ولم يتمالك شيهامورا حركةً منه تنمّ عن إحساسه بالمفاجأة.

كانت الخادمة تهمّ بالإنصراف حين نادتها المرأة الشابة تسألها البقاء معها.

وكم كان مُذهلاً ذلك الانطباع الذي أشاعته من حولها لفرط ما

(*) آلة موسيقية ذات ثلاثة أوتار، تعزف عليها عادةً فتيات الغيشا حسب التقاليد اليابانية.

أوحت طلعتها بالنظافة والطراوة! وفكّر شيماموراً لبُرهةٍ أن جسدها كلّه يرفل بنقاءٍ لا يشوبه دنس حتّى أدقّ تفاصيله وأكثرها صميمية، وبلغت به أفكاره إلى حدّ التساؤل عمّا إذا كان هذا القدر من النقاء ليس أكثر من سرابٍ تختلقه أنظاره المفتونة ما تزال بتلك الروعة الصافية الشفيفة لصيفٍ وليدٍ على الجبل.

لم تكن مُرتديةً الكيمونو ذا الرَفْل إلا أنّ شيئاً ما في هندامها يجعلها تبدو كفتاة غيشا. كانت ترتدي كيمونو صيفياً أنيقاً بلا بطانة. إلّا أنّ الأوبي(*) فوقه بدا باذخاً لا يتلاءم والكيمونو، بل يكاد يضفي عليه مَسْحةً من الكآبة.

ما أن لاحظت الخادمة أنّهما شرعا بالحديث عن الجبال، حتّى انتهزت انشغالهما عنها لتنصرف. وهكذا أصبحا منفردين وبما أنّها لم تكن واثقة من أسماء القمم التي تمكن مشاهدتها من خلال النافذة، كان لا بدّ لمحادثتهما أن تتوقف. لم يكن لدى شيماموراً أي رغبة في الشراب. وفي آخر الأمر ارتأت المرأة الشابة أن تحدّثه عن ماضيها وهذا ما فعلته بالفعل وكان حديثها آسراً بطلاقته وحياد نبرته.

هي من مواليد بلد الثلوج هذا؛ وفي طوكيو وقّعت عقداً يُلزمها بأن تصبح فتاة غيشا وسرعان ما وجدت من يرعاها ويُعيلها فحررها من العقد وراح يُعدّ العدّة لأن يجعل منها أستاذة رقص، عندما، واحسرتاه، عاجله الموت ولم يمض على لقائهما أكثر من ثمانية عشر شهراً. ولكنّها ما أن وصلت في حديثها إلى هذا الحدّ وأصبحت الحكاية أقرب إلى ما تحياه في الوقت الحاضر بدت أكثر فأكثر تكتّماً.

(*) زنّار عريض يُشدّ فوق الزي الياباني التقليدي.

وبدا بوضوح أنّها لا ترغب في مكاشفته بهذا الجانب من حياتها ولعلّه الجانب الأشد اضطراباً. وباحت لشيهامورا أن عمرها تسعة عشر عاماً فيما كان يميل للإعتقاد بأنها في الحادية أو الثانية والعشرين.

لم يكن لدى شيهامورا ما يدفعه للإرتياب بصحّة ما تقول، وعندما باحت له بعمرها ولاحظ أنها تبدو أكبر سنّاً، أحسّ بشيءٍ من الإرتياح واستعاد ذلك الرَغَد الذي كان يُمنّي به نفسه من رفقة فتاة غيشا حقيقية. عندما انتقل بهما الحديث إلى الكلام على مسرح الكابوكي تبيّن له أنّها تعرف الكثير عن الممثلين والأساليب المتنوعة، الأمر الذي أذهله. والحقيقة أنّها كانت تبدي قدراً من الطلاقة في حديثها المتدافع المحموم كأنّها مكثت زمناً طويلاً في انتظار المُستمِع المُرتقب. ثمّ سرعان ما تخلّت عن تحفّظها مُبديةً بعض ما في دخيلتها من ثقةٍ ويُسر في السلوك يُتيحان، بلا ريب، أن تظهر فيها شخصية المرأة التي اكتسبت دُربةً ومراناً وأصبحت، في الأغلب، على قدر من الدراية المعنوية بأمور الرجال. غير أنّ هذا كلّه لم يحُل دون إحساس شيهامورا بأنّه عاجز عن النظر إليها كمحترفة. أصبح لا يرى فيها صورة المرأة التي جعلته عزلة الأيام السبعة في أعالي الجبل تائقاً لرفقتها. فالمرأة الشابة التي تقف أمامه لا توقظ في أعماقه إلاّ مشاعر الصداقة الناصعة، وأحسّ بالغبطةِ إذ وجَدَ أنها، على العكس من ذلك، خليقة بأن تقاسمه النشوة السخيّة وبعضَ صفاء السريرة اللذين اكتسبهما جرّاء إقامته في الأعالي.

بعد ظهر اليوم التالي جاءت المرأة الشابة للاستحمام في أحواض المياه الحارّة التابعة للنزل فوضعت حاجيّاتها في الرواق ودخلت بقصد التحدّث إلى شيهامورا.

وما كادت تجلس حتّى طلب منها أن تستدعي فتاة غيشا.

«غيشا، لله أنت. . . ؟

ـ بالطبع. . أنت تدركين جيّداً ما عنيتُ بقولي!

ـ لم آت إليك لأسمع منك هذا الطلب!» أجابت بنبرةِ استهجان وتورّد وجهها حياءً. ثمّ نهضت لا تتمالك انفعالها وسارت نحو النافذة حيث مكثت طويلاً محدّقة في الجبال. ودون أن تلتفت نحوه أردفت قائلة:

ـ «ليس لدينا هنا هذا النوع من النساء.

ـ كُفّي عن التفوّه بحماقات.

ـ ولكنّ ما أقوله صحيح!»

كانت قد استدارت نحوه هذه المرّة ومكثت قبالته متكئة في نصفِ جلسة على حافة النافذة.

«في بلدنا هذا تتمتع فتيات الغيشا بحريتهنّ كاملةً وليس في وسع أحد أن يُرغمهن على الإتيان بما لا يرغبن فيه. وكُن على ثقة من أنّ النزل لن يتكفّل بذلك. إلاّ أنّ هذا لا يَحُول دون استدعائك فتاة غيشا، إذا كنت مصراً على طلبك، على أن تتولّى الاتفاق معها بنفسك.

ـ لا، لا. بل أنت ستفعلين ذلك لأجلي.

ـ ولكن عفوك، وما الذي يدفعك للإعتقاد بأنني سأقبل بذلك؟

ـ ذلك أنني أنظر إليك كصديقة، وأحرص على أن تبقى علاقتنا على ما هي عليه، وإلاّ لما كان هذا سلوكي حيالك.

ـ وهل تجد أنّ علاقة الصداقة تدفعك للسلوكِ على هذا النحو؟»

أجابته بتهوّر الطفولة وسحرها التلقائي.

ولم تمض هنيهات قصيرة حتّى عاودت تهجّمها عليه وقالت مغيظة حانقة:

- لم أكن أحسب أنّك قد تجرؤ على مثل هذا الطلب! أوه! إنّه أمرٌ رائع! رائع حقاً!
- ليس في هذا الأمر ما يستدعي كلّ هذا الغضب. قال شيامورا جازماً. فقد عدتُ للتوّ بعد إقامتي أسبوعاً كاملاً في أعالي الجبل، وربّما هذا ما جعلني أشعر بحيوية مفرطة. ولشدّة ما تتجاذبني تلك الخواطر التي تدور في رأسي الحارّ لا أقوى على التحدّث إليك بهدوء، منفردين في هذه الغرفة كما قد يحلو لي».

لزمت المرأة الشابة صمتها المطبق ومكثت مُطرِقةً. وكان شيامورا يعلمُ جيّداً، وقد قيل ما قيل، أنّه بدا وقحاً ومُتهكماً إذ باح لها، ببساطة ودون أدنى حرج، بمتطلبات جسمه كرجل، غير أنّه يحسبُ من جهة أخرى، أن للمرأة الشابة ما يكفي من الدراية بمثل هذه الأمور فلا تستهجن إعترافه. تأمّل وجهها فرأى فيه دفئاً شهوياً قد يكونُ نابعاً من طول أهدابها الاثيثة الرائعة التي يُبرزُ الاغضاءُ فتنتها ويزيد.

نَحَتْ برأسها قليلاً وقالت وقد ازداد وجهها احمراراً:

«استدع من تشاء من فتيات الغيشا.
- أليس هذا بالضبط ما أردتكِ أن تفعليه؟ أنا لم أكن في ناحيتكم من قبل فكيف لي أن أعرف أيّهنّ أمتع رفقةً؟

ـ الأمتع رفقةً؟ ماذا تقصد بقولك هذا؟

ـ أقصد، أن تكون صغيرة السنّ مثلاً. فالصبا لا يدع مجالاً للاغترار بالمظاهر. وأن لا تكون ثرثارة، بل نظيفة وغير مُفرطة الذكاء. فإن رغبتُ في المحادثة ناديتُ عليك، أنتِ.

ـ لن أستجيب لندائك.

ـ هيّا، لا تكوني حمقاء!

ـ أقول لك إنّك لن تراني بعد الآن. فلأي سبب أعود؟

ـ ببساطة، لأنني أحرص على أن نكون صديقين. وشرحتُ لك منذ قليل أنّ هذا هو سبب سلوكي.

ـ أوه! كفى!

ـ لنَفْرض أنّني جاريتكِ في مُبتغاك، فما الذي يحدث؟ الأرجح أنني في صبيحة اليوم التالي، سأفقد أي رغبة في التحدّث إليك. وستصبح رؤيتك، مجرّد رؤيتك، مصدر ألم ومشقّة. لقد كان عليّ أن آتي وأقيم في الجبال كيما أستعيد حاجتي لمحادثة الآخرين، أوتدركين ماذا أقصد؟ ولكي يسعني أن أتبادل الحديث معك، ولكي يسعنا أن نتحادث معاً امتنعتُ حتّى عن لمسك. ثمّ ألا ينبغي أن تكوني أنت أيضاً في الحسبان؟ يبدو لي أنّك لست مُرغمةً على مثل هذا الحذر وهذا التحفظ في صلتك بالسيّاح... فهم ليسوا أكثر من عابري سبيل.

ـ بلى، هذا صحيح.

ـ بالطبع. إذاً ضعي ما أنت عليه في الحسبان. فما الذي قد ترينه في رجلٍ على غرار أولئك: أنتِ بالذات مَنْ سيرفض رؤيتي فيما

بعد. لا، لا، من الأفضل بالتأكيد أن تقومي أنت باختيار الفتاة.

ـ كفى! لم أعد أصغي إليك» قالت وقد أشاحت بوجهها حانقةً. إلاّ أنها تابعت كلامها بعد هنيهة من التفكير:

ـ ربّما كنتَ محقّاً بعض الشيء في ما تقول.

ـ إنها مسألة لا تستغرق أكثر من لحظة عابرة، أوتدركين قصدي. ليس فيها ما يدعو إلى العجب... بلا أهمية، وليدة اللحظة وتزول معها.

ـ بلى، على الأرجح. هذا ما يراه الجميع، أقصد أولئك الذين يأتون لزيارة هذه المنطقة. تماماً كما تجري الأمور في ميناء، حيث ولدت. وبأية حال ليس هذا سوى منتجع للينابيع الحارة: يقضي فيه الزائرون يوماً أو يومين ثمّ يرحلون».

بدا عليها الاسترخاء التامّ هكذا بغتةً وبلا مقدّمات، كأنها استعادت تلك العفوية في نبرتها وسلوكها.

ـ «النزلاء هنا هم في معظمهم من السيّاح. لست سوى صبيّة صغيرة، بالتأكيد، إلاّ أنني أعرف الحكاية لفرط ما ترددت على مسامعي. إنّه الزبون الذي لا يقول لك شيئاً، والذي يبدو محبّباً بلا سبب واضح، الرجل الذي لا يبثك حنانه ومع ذلك لا تملكُ إلاّ أن تنعم بالإحساس به، بلى، ذلك هو بالضبط من تُحفظ له أجمل ذكرى. فبعد أن يغادر، ولوقتٍ طويل، تحفظ من حضوره متعةً ما تدومُ، أو هكذا تبدو لك الأمور. وإذا كتب لك أحدٌ ما، فلن يكون سواه».

وبقفزة رشيقة غادرت حافة النافذة وجاءت تقتعد الحصير عند

قدميه. بدت الفتاة مُستغرقةً في ماضيها، ومع ذلك أحسّ شيماورا بأنّها أقرب إليه من أي وقتٍ مضى. لقد تناهت إليه براءةٌ مؤثرة في صوتها. نبرةٌ من العفوية أربكته لشدّة ما بدت مُباشرة: كان يشعرُ بأنّه مذنب قليلاً ولا يفارقه الإحساس بأنّه حظي بها بأسهلِ ما يكون، وعلى رغمهِ تقريباً.

إلّا أنّه لم يكذب عليها. فقد كان عاجزاً بالفعل عن النظر إليها على أنّها فتاة غيشا محترفة، ومهما بلغت شهوته لامرأة ما فهي لا تحيد عن كونها شهوةً تصبو لأن تُشبع، لا غيرَ ولا أكثر. ولم يكن في مراده أن يستغلّها لمثل هذا الغرض. صفوة ما أراده هو أن يكون الأمرُ عابراً ولا قيمة له فلا يرتّب عليه أي التزام لاحق. وكانت المرأة الشابة تبدو في عينيه صورة للنقاء الأنصع. وما أن لمحها للمرّة الأولى، شعر بأنّه عاجزٌ عنْ النظر إليها كفتاة بين أخريات.

ثمّ أنّ شيماورا الحائر في مشكلة حلول العطلة بحثاً عن المكان الملائم الذي قد يلوذ به وعائلته من قيظ الصيف، كان قد اعتزم العودة إلى هذه المنطقة الجبليّة. ويمنّي النفس بأن تصبح المرأة الشابة التي تبيّن، لحسن الحظ، أنها غير محترفة، الرفيقة الملائمة لزوجته. ولماذا لا يطلب منها أن تلقّنها دروساً في الرقص للتسرية عنها؟ كان يفكّر جدّياً في الأمر. وإذا كان يزعم أنّه لا يطمع بغير علاقة صداقة معها فلأنّ لديه جملةً من الأسباب التي تجعله يؤثر الوقوف على الضفّة لا أن يخوض في الغمار.

ولكن خلفَ كلّ هذا كانت فتنة ما تُلقي ظلالها وتسودُ كسحرٍ لا يُضاهى أشبه بذلك السحر الذي أغواه في القطار قبالة المرآة التي

اتخذت من الليلِ قعراً. وبالطبع كان شيمامورا شديد التوجّس من حجم التعقيدات التي قد تثيرها علاقته بامرأة شابة يكتنفُ الغموضُ ظروف حياتها. بيد أنّ ما كان يستسلم له هو نوعٌ من الوهم، مُنقاداً إلى ذلك الإحساس العجيب بالشفافيّة الرقيقة الذي أثارته فيه والأقرب إلى شاعرية الإنعكاس الغريب الذي لاحَ له في المرآة: ذلك الوجه المفعم بإثارة الأنوثة والشباب عندما رآه عائماً على المنظر المنسرب للغسق العابر والليل.

والحقيقة أن استسلامه لمثل هذا الإحساس بالوهم هو الذي كان يغذي شغف شيمامورا بالرقص الإيقاعي الغربي. فقد ولد وترعرع في أحد أحياء الوسط التجاري في طوكيو حيث اكتسب، ومنذ الطفولة، معرفة وثيقة بمسرح الكابوكي. وفي مرحلة الدراسة الجامعية كان مولعاً بعروض الرقص أو الدراما الإيمائية. ولشدّة ما ألحّ عليه إحساسه بأنّ شغفه لن يهدأ قبل استنفاد موضوعه على أكمل وجه، دفعته أبحاثه العلميّة إلى مطالعة الوثائق القديمة وإلى إقامة علاقات صداقة مع أساتذة المدارس التقليدية الأوسع شهرةً ومع الفنانين الذين يمثلون الإتجاهات الحديثة. كان يؤلّف الأبحاث ويدبّج المقالات النقدية. ولكنّه، في ما توصّل إليه من علمٍ ودراية بهذا الشأن، لم يلبث - وأسبابه واضحة - أن استشفّ، وبكثير من المرارة، انحطاط تقليد جعلته السنون الطويلة مستنفداً، ولم يستطع في إدراكه هذا أن يلتفت إلى محاولات مجدّدين ادعياء لم تكن في الحقيقة أكثر من رغبة في المحاباة. وعندئذ وجد أنّه أصبح مرغماً على الدخول في هذا المعترك بصفة مباشرة وهذا ما دعته إليه وبإلحاح كلّ

الأسماء المرموقة والشابة في عالم الرقص. وفجأة أحسّ بتبدّل عميق في اهتماماته وأصبح مولعاً بالباليه الغربي وأقلع نهائياً عن مشاهدة الرقص الياباني. لا بل راح يبحث وينقّب عن الأبحاث والوثائق، الصور والمقالات وكلّ ما استطاع العثور عليه من معلومات حول فن الرقص في الغرب ومختلف تظاهرات وعروض الرقص الإيقاعي التي جمع ملصقاتها وبياناتها وبرامجها بعناية حتّى لو اضطر إلى طلب بعضها من الخارج، ولم يتمّ له ذلك بالطبع إلاّ بعد تجاوز ما لا يُحصى من الصعوبات التي يمكن تخيلها بسهولة. والحقيقة أنّ الأمر كان يتعدّى مجرّد الفضول لشغفه بهذا النوع المجهول من الرقص والوافد من بلاد بعيدة: فقد كان شيمامورا يتلذّذ بالمتعة الأصفى ويبلغ ذروة اللّذات لعجزه عن مشاهدة هذه العروض شخصياً، ولاستحالة أن يرى بأمّ عينيه الراقصين الغربيين يؤدّون رقصة الباليه الغريبة. ذلك أنّه رفض دوماً أن يشاهد ما يبتكره اليابانيون في هذا المجال. ولم يكن ثمّ ما يُغبطه أكثر من تدبيج مقالة حول الباليه أو الكتابة حول فن الرقص التوقيعي، انطلاقاً من معرفته الكتبيّة البحتة. وأصبح الباليه الذي لم يره في حياته كأنّه الفن المثالي في عينيه، كأنّه الحُلم الوافد من عالم آخر، فردوس التناغم وذروات الكمال، وانتصار الجمالية البحتة. ومهما حاول أن يخفي شغفه هذا بلبوس الدراسة والأبحاث العلميّة، فإنّ مراد شيمامورا إنّما كان السعي وراء حلمه بعيداً عن الصور والكتب الغربيّة. فما الفائدة من أن يدع نفسه عرضةً للخيبة حيال عروضٍ قد تكون مُحبطة إذا ما شاهد رقصة الباليه مُجسّدةً في مشهد، بينما في وسع مخيّلته أن تصوّر له الرقصة المشتهاة في مشهدٍ فريد لا ينتهي؟ كانت مُتعته مورداً لا ينضب من الملذّات القصوى على غرار

العاشق المثالي، العاشق الأفلاطوني المتسامي الذي لم يلتق يوماً بموضوع غرامه. غير أنّ هذا كلّه لا يستنفد مقادير الغبطة التي كان يحظى بها شيامورا من تلك الحالة الخاصة، ذلك أنّ مُتبطّلاً مثله، إذا توخينا الصدق، ما كان ليتربّع في عالم الأدب دون كراهةٍ وهو الذي لم يحمل لا أعماله المنشورة بين الحين والآخر ولا كاتبها على محمل الجدّ.

على الرغم من ذلك فقد كانت تلك بلا ريب المرّة الأولى منذ زمن بعيد جداً التي تعينه فيها مؤهّلاته على انجاز أمر ما، بما أنّها أتاحت له، خلال المحادثة، أن يُقيمَ صلة حميمة بالمرأة الشابة التي تعرّف إليها منذ قليل. ولكن أيضاً قد يكون شيامورا وجد نفسه مدفوعاً من غير قصد لأن يرى إليها كما اعتاد أن يرى إلى الرقص.

ما أن أدرك شيامورا حقيقة ما أبدته من الانفعال لدى سماعها الكلام الذي أطلقه جزافاً على السائح الذي لا يأتي إلاّ ليغادر في اليوم التالي، حتّى أحسّ بالخجل كأنّه أفرط في استغلال براءتها أو عبث بمشاعر قلبٍ كتومٍ وصادق. لكنّه لم يبدِ شيئاً ممّا تراءى له وأردف قائلاً:

ـ قد أعودُ إلى هذا المكان في رفقةِ العائلة، وقد نصبح، جميعنا، أصدقاء.

ـ أجل، أجل، لقد فهمت جيّداً، قالت بنبرةٍ أرادتها أقلّ جفاءً وارتسمت على شفتيها ابتسامة فيها الكثير من بشاشة فتيات الغيشا. في آخر الأمر، أجد أنّ هذا أفضل من أشياء كثيرة أخرى، فعندما نلتزم حدود الصداقة نرى أن الأمور تدوم.

ـ إذاً، أتأتيني بفتاة ما؟
ـ في مثل هذا الوقت؟
ـ في مثل هذا الوقت.
ـ وما الذي ستقوله لامرأة في وضح النهار؟
ـ إن انتظاري حتّى المساء يعني أن أقع على فتاة لم يرغب بها أحد.
ـ أنت تحسب إذاً أن منتجعنا هذا لا يعدو كونه أحد الأماكن العادية! وكنتُ أحسب أن نظرة واحدة على أنحاء البلدة لا بدّ أن تكون كافية لإبراز الفرق» قالت بشيءٍ من الحسرة وبنبرة جافة تُظهر مقدار شعورها بالإساءة.

وحيال الشكوك التي أبداها شيمامورا بشأن إصرارها للمرّة الثانية، وبنبرة جازمة كما في المرّة الأولى، على أنّ فتيات الغيشا في تلك الناحية لسنَ من النوعِ الذي يتخيّله، بدرت منها إيماءة غضبٍ لم تلبث أن تمالكتها. بأيّة حال، قالت، ليس على الفتاة إلاّ أن تقرِّر بنفسها إذا كانت ترغب أو لا ترغب في المكوث خلال الليل. فإذا فعلت من تلقائها عليها أن تتحمّل كامل التبعات. أمّا إذا مكثت بعد استئذان الدارة التي تنتمي إليها، فيكون على الدارة عندئذ أن تتحمّل كافة التبعات. ذاك هو الفرق.

ـ التبعات؟ سأل شيمامور.
ـ أجل، كلّ ما قد يطرأ من تبعات... حَمْل أو طارىء صحي».

لم يستطع شيمامورا بعد أن أدرك حماقة سؤاله إلاّ أن يتكلّف ابتسامة مصطنعة. فباعتبار كلّ شيء يبدو أن الأصول المرعية هنا، في هذه الناحية من الجبل، بين الغيشا وسيّدها تجعل علاقتهما مريحة

وخالية من التعقيد. . .

ربّما كان شيمامورا بحساسيّة المتبطّل الأقرب إلى الأنانية يتمتع بنوعٍ من الحدس يؤهّله، من دون سواه، لاكتشاف أعمق ما في طبيعة الأمكنة التي يحلّ فيها. ودون أن تغترّه مظاهرها السطحية كان يهتدي إلى طابعها الحميم والحقيقي الذي لا يعكسه المظهر الخارجي دائماً. وكان أوّل انطباع لديه بعد أن غادر جباله قاصداً تلك البلدة أنّها لا بدّ أن تكون مليئة بالمباهج وأسباب الراحة التي يُخفيها طابعها الريفي البسيط، ولم يكن مخطئاً في ذلك بالفعل، إذ لم يلبث أن أدرك في النزل فور وصوله إليه أنّها إحدى أكثر البلدات ازدهاراً في كافة الأنحاء المجدبة لبلد الثلوج. فحتّى تاريخ افتتاح خط السكّة الحديد مؤخّراً كانت منطقة الينابيع الحارة لا تستقبل، ولأسباب طبيّة، سوى أناس من سكّان الجوار. لذلك فإنّ كلّ دارة تستخدم فتاة غيشا تحوّلت خلف يافطتها الحائلة إلى صالة شاي أو إلى مطعم لا يرتاده الناس إلّا فيما ندر. وما يؤكد هذا الانطباع كثرة الأبواب الجرّارة القديمة الطراز وصفاقة ورقها المُزيّن والمسوّد لفرط قدمه. أمّا دكاكين السمانة والبزارة وبائع الكعك فربما كان لمالكيها فتيات غيشا يتولّين أعمالهم إلّا أن لكلٍّ واحد منهم مزرعته الصغيرة في الجوار بالإضافة إلى الدكّان وفتاة الغيشا. فلا يحق لأي غيشا إذاً أن تشعر بالاستياء إذا صادفت، من وقت لآخر، فتاةً ما ليست فتاة غيشا محترفة تشارك بدورها في أمسية ترفيه. فكيف إذا كانت الفتاة المعنية هي الفتاة التي تقيم لدى أستاذة الموسيقى.

ـ كم يبلغ عددهن بالإجمال؟ سألها.

ـ الغيشا؟ أوه! اثنتا عشرة أو ثلاث عشرة فتاة.

ـ ومن منهنّ أختار برأيكْ؟ ألحّ شيماموراً وقد نهض لينادي على الخادمة.

ـ أرجو المعذرة، قالت. ولكن إذا سمحت، ينبغي أن أغادرك.

ـ لا، لن أسمح بهذا، قال شيماموراً معترضاً.

ـ ولكن لا ينبغي أن أمكث هنا، قالت بشيء من الحسرة لأنها تبذل ما بوسعها لكي لا تشعر بالمهانة. سأغادر. ولا تقلق، لستُ غاضبة وسأعود في وقت لاحق».

وعلى الرغم ممّا قالته، ما أن وصلت الخادمة حتّى عادت إلى مكانها على الحصير وكأنّ شيئاً لم يكن. وحاولت الخادمة مراراً أن تسأل عن اسم الفتاة التي ينبغي أن تستدعيها ولكنّ المرأة الشابة رفضت رفضاً قاطعاً أن تسمّي إحداهنّ.

كانت الغيشا التي وصلت بعد ذلك بقليل في السابعة أو الثامنة عشرة من عمرها. وما أن رمقها بنظرة واحدة حتّى أدرك شيماموراً أن رغباته قد تبدّدت بغتةً. كانت ذراعاها بنحولِ ذراعي فتاة مُراهقة، ويُضاعف من رقّتها بروز التجويف المعتم للإبطين، وبدا من مظهرها أنها ليست سوى فتاة صغيرة لم تبلغ بعد. حاول شيماموراً ما في وسعه كيما يخفي خيبة أمله، وكان لائقاً في سلوكه معها برغم استغراقه في تأمّل منظر الإيراق المنعش على السفحِ، خلفها، من خلال النافذة. هل يتبادل أطراف الحديث مع تلك الفتاة؟ هل يتحدث إلى ذلك النموذج المثالي لفتاة الغيشا في الريف؟ لا، مثل هذا الأمر ليس في طاقته واحتماله!... لذلك كان الصمت الذي ساد لقاءهما كئيباً

وصفيقاً ومُربكاً. وعندما غادرت الأخرى، رفيقته الأولى، ظنّاً منها بلا ريب أنّها ينبغي أن تفعل بدافع الحصافة واللباقة، أصبح تبادل الأحاديث بينهما أكثر صعوبة ومشقّة.

مع ذلك أفلح شيمامورا في أن يمكث نحو ساعة في رفقة الغيشا. وفي غمرة انشغاله بالبحث عن ذريعة للتخلّص منها يتذكّر فجأة أن مبلغاً من المال سيصله بواسطة التحويل البرقي من طوكيو.

«يجب أن أذهب إلى مكتب البريد قبل موعد الإقفال»، قال لها، وعلى الأثر لم يكن عليهما، واحدهما كما الآخر، إلا أن يغادرا الغرفة.

ما أن تخطى شيمامورا عتبة باب النزل حتّى أفعمته الجبال ونسيمها المعطّر بروائح النباتات المورقة بسحرها الآسر. وراح يتسلّق السفح ضاحكاً مثل معتوه راكضاً مثل مخبول ولا يعرف سبباً لذلك.

ثمّ أدركه التعب اللذيذ سارياً في أطرافه، ومتمالكاً لهاثه توقّف بغتةً واستدار ثمّ دسّ أطراف الكيمونو تحت زناره وهبط عائداً أدراجه يسابق الريح. كانت عيناه شاخصتين تتابعان الرفرفة المحمومة لفراشتين صفراوين ذَهَباً انبثقتا فجأةً أمامه، ثمّ أصبحتا بيضاوين حين ابتعدتا في عمق السماء محوّمتين عالياً فوق سمت القمم.

«ماذا دهاكَ؟ لا بدّ أن تكون سعيداً كيما تضحك هكذا من الأعماق!».

كان ذلك صوت المرأة الشابة الواقفة في ظلّ أشجار الأرز العملاقة.

«لقد خلّفت كلّ شيء ورائي هناك! قال شيمامورا وقد عاودته نوبة

الضحك؛ لقد خلفت كلّ شيء ورائي هناك!
ـ أوه!...»

استدارت المرأة وتوغّلت على مهل بين الأشجار. وتبعها شيهامورا دون أن ينبس. لقد كانت غيضة الأرز تلك مُلحقةً بأحد المعابد، فجلست المرأة على حجر أملس تحت الأشداق المُطحلبة لتماثيل الخفراء ـ الحيوانات المصطفة عند مدخل الحرم.

«هنا الطقس منعش دائماً. حتّى في عزّ الصيف تهبّ النسائم الملطفة.

ـ أجميع فتيات الغيشا يُشبهنها؟

ـ أجل، يشبهنها بعض الشيء، على ما أعتقد. ومن بين أكبرهنّ سنّاً هناك اثنتان أو ربّما ثلاث على قدرٍ من الفتنة والجمال. لكنّهن لا يناسبن ما كنت تبحث عنه...»

كان كلامها خالياً من أي ودّ، وكانت مُطرقةً تحدّقُ في الأرض. وبدا الأخضر الظليل لشجيرات الأرز كأنّه ينسكبُ على مؤخر عنقها.

وأسرّ إليها شيهامورا مُسرّحاً أنظاره بين الأغصان الشاهقة:

«إنه أمر مستغربٌ، لكنّه حقيقي، فأنا بالفعل فقدت كلّ رغبة في ذلك. كأنني فقدتُ كل حُمّيا.

كان جذع شجرة الأرز خلف الصخرة حيثُ جلست، ينبثقُ مثل سَكْبٍ لا شوب فيه ويبسق عالياً جدّاً حتّى إنّه كان مُرغماً على إمالة جذعه إلى الوراء مُستنداً إلى الصخرة كيما يُتاح له أن يتتبع ارتفاعه بعينيه حتّى ذراه. وكانت السماء غير مرئية على الدوام يحجبها الستار

المظلم تقريباً لأشجار الأرز المصطفة المتلاصقة شابكةً أغصانها فاردة مسلّاتها الخضراء الكثيفة. كان الصمت والدَعة يتصاعدان مثل إنشاد. وإذا انتابه إحساس غريب لاحظ شيمامورا أنّه أسند ظهره إلى جذع إحدى أكثر الشجرات قدماً. جذع لم يبق عليه سوى أغصان يابسة ومقصوفة إلى جهة الشمال دون أن يعرف لماذا، كأنّها فروة مقشعرّة على مدى ارتفاعها بصفٍّ من الجدعات العدوانية والحراب المسنّنة جُعلَتْ هكذا لتكون سلاحاً ضارياً في يد إله ما.

«كانت غلطة اقترفتها، أسرّ إليها بابتسامة. لقد رأيتك، أنت، وكنتُ عائداً لتوّي من أيام العزلة التي قضيتها في أعالي الجبل، وظننتُ أنّ كلّ فتيات الغيشا في هذه الناحية يشبهنك!»

لا بل ربّما كان الانطباع المذهل بالطراوة والنقاء الخالص الذي أوحت به إليه، فكّر شيمامورا مُتابعاً كلامه، هو الذي أثار فيه تلك الرغبة التي تملكته بغتةً في استعجال تحرّره من فائض الطاقة التي اكتنزت في جسده خلال رحلته المنفردة في أعالي الجبل؟

كانت المرأة تتأمّل تدفق مياه الشلّال. هناك، تحت أشعّة الشمس التي مالت للمغيب. أمّا شيمامورا فقد كانت لديه الأسباب الكافية لكي لا يكون فخوراً بما فعل.

«أوه! كدتُ أنسى، قالت بخفّة مُصطنعة، لقد حملت معي سهواً علبة تبغك. وعندما أردت أن أعود إلى غرفتك قبل قليل لم أجدك هناك وحرتُ في أمري أين عساك تكون، وفي تلك اللحظة رأيتك، من النافذة، تتسلّق الجبل بطريقة جنونية! آه! كم بإمكانك أن تكون مضحكاً حقاً!... وعلبة التبغ، لقد نسيتها هناك. فأحضرتها لك».

تناولت التبغ من ثنية كُمّ الكيمونو وأشعلت له عود ثقاب.

«لم أكن لطيفاً جداً في رفقتي لتلك الفتاة المسكينة.

ـ إنّ الزَبون هو الذي يقرّر في آخر الأمر ما إذا كان على الغيشا أن تغادر أم لا».

كان خرير المياه المتساقط هناك في المجرى المُغطّى يترامى إلى مسامعهما في دَعةِ ذلك الصمت كأنّه نَغَمٌ متواصل وخافت. وهناك في البعيد عند السفح المجدب للجبل الذي يوغل في ارتفاعه بين الأخيلة الأنيقة لأغصان الأرز، كانت الظلال تُعتمُ شيئاً فشيئاً في التجاويف وتبتعد.

«كلّ ما صنعته، إلاّ إذا كانت تُضاهيكِ في كلّ شيء، هو أنني كنتُ أعرّض نفسي للندمِ بعد فوات الأوان ما أن أعود إلى رفقتكِ مجدّداً.

ـ دعْكَ من هذا أرجوك، قالت بنبرةٍ حازمة. كلُّ ما في الأمر هو أنّك لا تريد الإقرار بغلطك».

كانت نبرةُ ازدراء تخالط صوتها إلاّ أنّ هذا لم يحل دون قيام صلةٍ جديدة بينهما. نوعٌ من المودّة الأكثر رقّةً كانت تكتنف حضورهما معاً.

وأدرك شيماورا بما لا يرقى إليه الشك أنّه لم يشته في الحقيقة سواها، هي وحدها ومنذ البداية، ولكنّه سعى، على جاري عادته، لافتعال ألف تعقيد وتعقيد، عِوض أن يقرّ لنفسه بذلك وببساطة دون اللجوء إلى الذرائع الواهية. ولذلك كان كلّما ازداد امتعاضاً من نفسه بدت له المرأة الشابة، في المقابل، أكثر جمالاً. فقد أحسّ منذ أن

خاطبته وهي تقف في ظلّ أشجار الأرز، بأن حضورها أشبه بنسمة منعشة تغلغلت في كيانه.

كانت تبدو مثيرة بأنفها الأقنى الدقيق، بسيماء اليتيم على وجهها ومسحة كآبة لا تلبث أن تمحوها زهرةُ شفتيها ببرعم الفم المزموم حيناً والمتفتح أحياناً بإيماءة دافئة تختزن نُعمى الحياة الشهوانية النهمة. حتّى عندما تلزم الصمت ولا تقول شيئاً تظلّ شفتاها زاخرتين بالحياة والحركة وكأنّ الحياة والحركة من طبعهما. وسواء كانتا جافتين أو مُتشققتين أو نال منهما خبوٌّ في حمرتهما، فإنّ لهاتين الشفتين ما يذكّر بالاعتلال، إلّا أنّ لونهما يكتنز من ملمس النعومة منتهاه وبريقَ العافية الحقّة. صفّ أهدابها غير المقوّس أو المرفوع، يقطع الجفنين على سوية خط مستقيم حتّى ليبدو غريباً، لا بل مُضحكاً، لو لم يكن، كما كان بالفعل، محوّطاً، لا بل مُكتنزاً بحرير حاجبيها المنمنمين الأثيثين. لم يكن في وجهها المدوّر جدّاً وذي الأنف الأقنى ما يُلفت في حدّ ذاته. إلّا أنّ لون بشرتها الخزفي الموشح بالوردي الرهيف وعنقها البتولي وكتفيها الصبوّيتين اللتين تميلان إلى امتلاءٍ وشيك، تجعل من طلعتها منبعاً للنضارة الأشفّ فلا تعوزها مَسْحةٌ من فتنة الجمال وإنْ كان يصعب القولُ إنها آية في الجمال. فهي كامرأة تشدّ خصرها بالأوبي العريض الذي ترتديه فتيات الغيشا تبدو لحيمة الصدر مكتنزة الثديين.

«ها إنّ البعوض يجتاحنا»، قالت وهي تنفض بكفّها طرف الكيمونو لتذبّه عنها.

كانا هائمين في الدَعةِ الغامرة لذاك المكان، ولا يهتديان إلى ما يقولانه إلّا القليل.

نحو الساعة العاشرة تقريباً من ذلك المساء نادت المرأة الشابة على شيامورا مردّدةً اسمه بأعلى صوتها في الرواق. وما هي إلاّ هنيهات حتى دخلت عليه في غرفته وتهالكت أمام الطاولة مُترنّحةً كأنّها دُفعت عنوةً. وبحركةٍ غير مقصودة من ذراعها أوقعت كلّ ما صادف وجوده أمامها. ثمّ سكبت لنفسها كوب ماء وشربته بجرعاتٍ كبيرة.

كان عليها أن تخرج، قالت، لمجالسة بعض السيّاح العائدين لتوّهم من الجبل: ومنهم من التقتهم في شتاء العام الماضي خلال موسم التزلّج. وطلب منها هؤلاء أن ترافقهم إلى النزل حيث راحوا يلهون، بمساعدة فتيات الغيشا اللواتي شاركن في أمسيتهم الصاخبة، بدفعها إلى الشراب بقصدِ إسكارها.

كان رأسها ثقيلاً ومُترجّحاً وحين شرعت بالكلام بدا أنّها لن تتوقّف أبداً. ثمّ استعادت وعيها فجأةً وتمالكت نفسها:

«سأعود، قالت. ليس من اللائق أن أكون هنا الآن. سيبحثون عنّي. سأعود فيما بعد».

وسرعان ما غادرت الغرفة مُترنّحةً.

بعد ذلك بساعةٍ واحدة تقريباً سمع شيامورا وقع خطوات مُتعثّرة تتقدّم بحذر في الرواق الطويل: مشية مترنّحة تترجّح من جدارٍ إلى آخر، فتعثرُ ثمّ تواصل تقدّمها.

«شيامورا! شيامورا! أكاد لا أرى بوضوح، صرخت تناديه. شيامورا!»

كان نداؤها خالياً من أي مكر. نداءٌ حقيقي نابعٌ من القلب،

نداء مجرّد وواضح هو نداء امرأة تلوذُ بـرَجُلها بعيداً عن أي اعتبار آخر، وكان وقعه شديد الأثر في روع شيمامورا فنهض مُسرعاً، إذ لا بدّ أن تكون أصداء ذلك الصوت الحاد تتردّد في أرجاء الفندق كلّها.

اخترقت أصابعها مأطورة الورق فيما كانت تسعى للتشبُّث بدعامة الباب قبل أن تتهالك عليه.

آه! ها قد جئتَ أخيراً. . .»

كانت لا تقوى على الوقوف فتتشبّث به وتضمه إليها دون أن تتوقّف عن الكلام:

«لست ثملة. لا، لست ثملة، صدّقني. ولكني أشعر بطرقٍ في رأسي، آه! طرق، طرق! فقط لو أن ذلك لا يؤلم. . . أنا أعرف تماماً ماذا أفعل. أعطني كوب ماء. ماء، هذا ما أحتاجه الآن. مزج الكحول، هذا ما يسبب الألم. كان عليّ أن لا أمزج الشراب، فهذا ما يضرب رأسك ويسبب الألم. آه! يا رأسي!. . . كان في حوزتهم زجاجة من الويسكي الرديء. فكيف لي أن أعرف أنه ويسكي رخيص؟. . .».

كانت تضغط على جبينها بجماع قبضتيها.

وفجأة ازداد وقع انهمار المطر في الخارج.

كان على شيمامورا في سعيه لمساعدتها على الوقوف أن يضمّها بشدة بين ذراعيه فقُصعت تسريحتها العالية تحت خدّه. فما أن يُرخي ذراعيه قليلاً حتّى يشعر بأنّها ستقع متهالكة على الأرض. وبينما كان يحاول جاهداً أن يحكم شَبْك ذراعيه من حولها دسَّ يده برفق تحت ياقة الكيمونو.

لم تستجب لتحرّشاته، لا بل شبكت ذراعيها فوق صدرها وصدّت يد شيامورا عن الاقتراب من نهديها. وإذ انتابتها بغتةً نوبة غضب لعجز ذراعيها هي عن الاستجابة لما تريد، راحت تشتمها وتعضّها بضراوة:

«ماذا دهاكِ؟ ستنالين منّي ما تستحقين! أيتها الخاملة! عديمة النفع! الويل لك!»

ابتعد شيامورا عنها وقد تملّكه الذهول. ورأى على ساعد المرأة الأثر العميق الذي خلّفته أسنانها. إلاّ أنها كفّت في الوقت نفسه عن مقاومته وراحت ترسم علامات بطرف أصبعها: وأكدّت له أنها ستخبره من هم الأشخاص الذين تحبّهم. وسمّت نحو عشرين أو ثلاثين ممثلاً، ثمّ شيامورا وشيامورا أيضاً، وتردّد اسم شيامورا إلى ما لا نهاية.

تكوّر دَفءٌ لذيذٌ تحت راحةِ شيامورا. وكان يُردّد بصوتٍ مهدهد ورقيق:

«حسناً! حسناً! لقد انتهى الأمر. انتهى الآن...» وفي غمرة تأثره كان يجدُ لديها شيئاً من مظاهر الأمومة.

لكنّ الألم لم يمهل الرأس الصغير فعاودها شديداً موجعاً. راحت تتلوى من وطأته وهرعت إلى طرف الغرفة الآخر حيث تهالكت مجدّداً لا تكفّ عن الأنين:

«لم ينته الأمر بعد... لم ينته. أوه! أشعر أنني في حالة سيئة... أريد أن أعود. أن أعود إلى بيتي...

ـ ليس في وسعك أن تقطعي كلّ هذه المسافة! ثمّ اسمعي: المطر ينهمر بغزارة!

ـ حافية القدمين، زاحفةً، مهما يكن من أمري سأعود إلى البيت. يجب أن أعود.

ـ ألا ترين معي أنّ في الأمر بعض المخاطرة؟ سأصحبك في طريق العودة إذا كنت تصرّين على الذهاب.

كانت الطريق التي تفضي من النزل إلى البلدة تحاذي الإنحدار الشديد لسفح الجبل.

«ماذا لو تحاولين أن تُرخي زنّارك قليلاً وتأخذي قسطاً من الراحة؟ فأنا واثقٌ من أنّك ستشعرين بتحسّن بعد قليل ويُصبح بإمكانك العودة إلى دارك.

ـ لا، لا. أعرف جيّداً ماذا ينبغي أن أفعل. أعرف جيّداً كلّ هذا».

وفي الأثناء حاولت أن تنهض في شبه وقفة، وأبقت جذعها مُستقيماً كيما تستنشق الهواء ملء رئتيها ولم تفلح في ذلك إلاّ بعد عناء كبير إذ بدا واضحاً أنّها تتألم كثيراً. كانت تعاني من غثيان خفيف، كما لن تلبث أن تسرّ إلى شيمامورا، قبل أن تفتح النافذة من ورائها وتنحني على حافتها نحو الخارج تحاول أن تتقيّأ، ولكنْ عبثاً. كانت تسعى جاهدةً لكي لا تقع متهالكةً على الأرض. لكي لا يُغمى عليها تماماً. وكلّما استطاعت أن تتمالك نفسها قليلاً كانت تواصل تردادها للعبارة نفسها: «أريد أن أعود إلى بيتي! ينبغي أن أعود إلى بيتي!» ـ ومكثت على هذه الحال حتّى الثانية فجراً.

«اذهب ونم! هيا اذهب إلى فراشك ما دمت أطلب منك أن تفعل! قالت بمزيدٍ من الإلحاح.

ـ وأنت، ماذا ستفعلين؟ سأل شيهامورا بشيء من القلق.

ـ سأمكث كما أنا. وما أن أشعر بتحسّن أعودُ إلى البيت. سأغادر هذا المكان قبل بزوغ الضوء».

دنت منه متثاقلةً على يديها وقدميها وجذبته إليها.

«قلت لك هيّا عُد إلى النوم! لا تبالِ بي. ونم نوماً هنيئاً».

عاد شيهامورا إلى فراشه. وفي تلك الأثناء أفلحت بعد جهد في الانحناء فوق الطاولة وابتلعت كوباً آخر من الماء.

«انهض! قالت بلهجةٍ آمرة قبالة السرير. انهض حين يُطلب منك أن تنهض!»

سألها شيهامورا ماذا تريده أن يفعل بالضبط.

ـ ماذا قُلت؟ ليس عليك سوى أن تنام.

ـ أوتدرين، لا يبدو أنّك تدركين جيّداً ما تقولين»، قال شيهامورا وجذبها نحوه.

حين استلقت إلى جانبه حرصت في البداية على أن تُشيح بوجهها عنه. ولم تنقض هنيهات قليلة حتّى استدارت نحوه باندفاعةٍ وأسلمت شفتيها.

ثمّ كم ردّدت بعد ذلك، كأنها استغرقت في هذيان أرادت أن يُعبّر عمّا كابدته من شقاء، الكلام نفسه مراراً وتكراراً:

«لا، أوه لا!... ألم تقل إنّه ينبغي أن نظلّ صديقين؟»

لم يدر شيامورا بماذا يجيب. إلّا أن ما تراءى إليه من رصانةٍ ووقار جارح في صوتها نالَ من جذوة اشتهائه، حتّى إنّه فكّر لحظة أن يفي بوعده إذ تراءت له ملامحها المشدودة وجبينها المتغضّن لفرط ما كانت تجهد في استعادة هدوئها وتمالك نفسها من جديد.

«من جهتي أنا، قالت له همساً، لن أندم على شيء. ولن أشعر بالندم على الإطلاق. ومع ذلك لستُ من ذلك الطراز من النساء... مغامرة عابرة... لا يُكتب لها أن تدوم... أنت قلت لي ذلك بنفسك، أليس كذلك؟

كان لا يزال نصفُها يعوم فوق أبخرة الشراب.

«ليس ذَنْبي أنا بل ذَنْبك أنت. أنتَ من لعب وخسر... أنت الضعيف. ليس أنا».

وانتابتها في الأثناء رعدة انتشاء فراحت تعضّ كمّها بعنف كأنّها تستميت في صدّ السعادة عنها، وفي تبديد الغبطة التي تراءت لها.

مكثت وقتاً طويلاً دون أن تقول شيئاً، مُسترخية وهادئة، وكأنّها أُفرغت من الأحاسيس كافة. ثمّ قالت وكأنّها بوغتت بخاطرة انبثقت فجأة من قعرِ ذاكرتها:

«أنت تلهو، أليس كذلك؟ أنت تلهو بي!
ـ لا، أبداً.
ـ في أعماقك، في أعماق قلبك، أنت تلهو بي. حتّى لو أن ذلك غير صحيح في هذه اللحظة، ولكن فيما بعد.. إنها الحقيقة».

كانت الدموع تملأ عينيها وأشاحت بوجهها لتخفيه بالـوسادة. ثمّ تمـالكت نحيبها، وفي حنـانٍ مُسارّةٍ بـدا من خلالهـا أنها ترغب في أن تكون أكثر صدقاً معه، لا تخفي عنه شيئاً، راحت تروي له كلَّ شيء عنها. وبدا أنها نسيت أوجاع رأسها. ولم تقل كلمة واحدة عمّا جـرى في تلك الأمسية.

«أه! كم انقضى من وقت! أحكي، وأحكي دون أن أنتبه لانقضاء الوقت، قالت بابتسامة اعتذار خجولة. لم ينقضِ الليـل بعدُ، ولكنْ عليّ أن أغادر قبل الفجر. فالناس هنا ينهضون في ساعات مبكرة».

نهضت مراراً لتلقي نظرةً عبر النافذة.

«لـدي متسع من الـوقت. العتمة لا تـزال حالكـة فـلا أخشى أن يـراني أحـد. ثمّ إنّها تمـطر: فلن يـذهب أحـدٌ هـذا الصبـاح إلى الحقول».

كانت لا تريد أن تغادر. وعندما انبلج الفجـر وارتسمت معه قمم الجبـال التي محتهـا الأمـطار، ثمّ انقشعت زوايـا السـطوح بـين صفوف الأشجار، كانت لا تزال حائرةً في أمـرها. وفي النهـايـة حـان الوقت الذي تدبّ فيه الحياة في أرجاء النزل عندما تستيقظ الخادمـات ويباشرن أعمالهن. على عجل سوّت تسريحتها قليلاً وتسلّلت بغتةً، لا بـل طـارت، ولكنْ بعـد أن صـدّت بعنـاد شيـمامـورا الـذي أراد أن يرافقها إلى الباب.

ينبغي ألاّ يراهما أحدٌ سوياً.

وفي اليوم نفسه، غادر شيمامورا عائداً إلى طوكيو.

ـ ٣ ـ

« . . . .

ـ أوَتدرين ما كنت تقولينـه في المرّة السـابقة لم يكن صحيحـاً وإلاّ كيف يخـطر لمن هو مثـلي أن يأتي في نهايـة السنة، مُعـرّضاً نفسـه لأن تتجمد أوصاله من البرد في بقعةٍ نائيـة مثل هـذه؟ لا، لم يكن غرضي أن ألهو بك».

تـرفع المـرأة رأسها. تبـدو وجنتها متـورّدةً قليلاً تحت العـين حيث شـدّت براحـة شيـامـورا عليهـا؛ متـوردة بـرغم مسحـوق التجميـل الأبيض الذي يُغطي وجهها. ويفكّر شيامورا في بلد الثلوج، بـبرودة جوّه. إلاّ أنه يجد فيه أيضـاً شيئاً من الـدفء لا بدّ أن يكـون مصدره أسودُ شعرها الحالك.

افترّ ثغرها عن ابتسامة رقيقة كأنها تسطع تحت نور باهر. والمؤكد أنّها تستعيد في الأثناء ذكرى «المرة السابقة» لأنـه يراهـا تزداد احمـراراً كأنّ جسدها كله يلتهبُ رويداً بحرارة الكلمات التي يقـولها لهـا. ذلك أنّها انحنت إلى الأمام مُطرقةً بشيء من التصلب واستطاع أن يرى ظهرهـا الذي اصطبـغ بالحمـرة أيضاً تحت الكيمـونو الحـاسر قليلاً. وكـذلك

العنق وكـلّ ما تـراه عينه من هـذه البَشَرة المثيرة والتي يجعلهـا الشعـر الأسود أكثر فتنةً إذ يبرز محـاسن الضدّين. وإذ تنتـابه رعشـة الحواس الدافئة يُخيّل إليه أنها عـارية أمـامه. شعـرها؟ لا، في الحقيقـة ليست الكثافة المفرطة في شعرها هي التي تجعله كثّاً: بل حيويّته وتلك المتانة التي تكـاد تكون رجـولية واللتان تجعـلان من تلك التسريحـة العـاليـة والمصفّفة حسب الطراز القـديم والخاليـة من أي عيب مَلساء كـاللكّ والمرفوعةِ بوقار كأنها تعتمر قبّعةً من حجر أسود منحوت.

يتأمّل شيمامورا شعرها ذاهلاً. ويسأل نفسه الآن عمّا إذا كـان البرد الـذي فاجـأه كثيـراً للوهلة الأولى ليس أحـد مـظاهـر الشتـاء في بلد الثلوج هذا بل مزية من مـزايا شعـرها. راحت المـرأة في تلك الأثناء تعدّ شيئاً ما على أصابعها وطال بها الأمر.

«ما الذي تَعُدينه؟» سألها

ولكنها لم تتوقّف عن العَدّ.

«كان ذلك في الثالث والعشرين من شهر أيار، قالت أخيراً.

ـ كلّ هذا الانشغال في حساب الأيام؟ قال شيمامورا مداعباً ليقينـه أنّـه أصـاب التخمـين. لا تنسي أن تموز وآب شهـران متتـاليـان من واحد وثلاثين يوماً!

ـ هذا يعني أنّ اليوم يصادف اليوم التاسع والتسعين بعد المئة. مئة وتسعة وتسعون بالضبط.

ـ هل أنت واثقة من التاريخ؟ وكيف تـذكرين أنـه كان في الثـالث والعشرين من أيار؟

ـ يكفي أن ألقي نـظرة على مـا دوّنته في دفـتر يوميـاتي. كـلّ شيء مدوّن هناك.

ـ أتكتبين يوميّاتك؟

ـ من الممتع دائماً أن يقرأ المرء يـوميات قـديمة. ولكن المشكلة أنني لا أحذف شيئاً ويحدث لي أحياناً أن أخجل من نفسي.

ـ متى بدأتِ به؟

ـ مبـاشرة قبل سفـري إلى طـوكيـو لتعلُّم أصـول المهنـة. كنت لا أملك مـالاً وابتعتُ مفكرة رخيصـة سـوّدتهـا من الصفحـة الأولى إلى الصفحـة الأخيرة بخطّ دقيق وسـطور متراصـة. وكنت أحـرص عـلى الكتـابة بقلم مبـريّ جيداً لأنّ هـذه السطور(*) مقسّمـة وفق خـطوط عمودية رفيعة ومُسطّرة. فيـما بعد وعنـدما أصبح بإمكـاني أن أشتري دفتراً يليق بكتابة اليوميّات تبدّلت الأمور كثيراً. إذ أصبحت لا أجيـد سـوى تسويـد الصفحات وهـدرها، كـما تراخت عنـايتي بـالخطّ. في البـداية كنتُ أستعمـل ورق الصحف الأصفـر أمـا الآن فـأنـا أكتب مباشرة على ورق لفافات من النوع الجيّد وبسهولة فائقة.

ـ وهل انكببت على تدوين هذه اليوميّات بلا انقطاع؟

ـ أجـل. كانت سنَتيَ السـادسة عشرة وهـذه السنة أفضلهـا. وفي العادة أنصرف إلى تدوينهـا قبل النـوم، حين أعـود إلى الدار وأحيـاناً كثيرة يباغتني النعاس أثناء الكتابة: كم أتعـرّف الأمكنة حـين أستعيد ما كتبت عنها، إذ يسهل التعرّف إليها دون عناء... ولكنْ هناك أيام تمضي دون أن أكتب شيئـاً، فيوميـاتي غير منتـظمة. لأنّ مـا نفعله كل

(*) كتابة السطر الياباني عمودية وليست أفقية.

يـوم هنا في الجبـل يكاد يتشـابه كـلّ يوم. وفي مثـل هذه الحـال مـاذا أكتب؟ غير أني استطعت هذا العام أن أتدبّر مفكرّة فيها صفحـة لكلّ يوم، ولكن يبدو أنني أخطأت في اختياري. إذ يكفي أن أبدأ بالكتابة حتّى أسترسل كأنني عاجزة عن التوقف».

إذا كـان شيمامـورا قد فـوجيء لسماعـه خبر إصرارهـا على تـدوين يومياتها، فإنّ دهشته الأعظم كانت حين علم أنها تذكر فيهـا بانتـظام قراءاتها منـذ أن كانت في الخـامسة أو السـادسة عشرة وأن مجمـوع ما سوّدته بلغ عشرة دفاتر كاملة.

«وهل تدونين أيضاً انتقاداتك حولها؟ قال.

ـ أوه! هذا ما أعجز عنه تماماً، قالت معترضة. أكتفي بذكـر اسم المؤلف والشخصيّات الرئيسية والعلاقات التي تجمع بينها. لا أكثر.

ـ ولكن لمَ تتجشمين مثل هذا العناء؟ ما فائدتكِ منه؟

ـ لا شيء، لا شيء على الإطلاق.

ـ وكلّ هذا الجهد للاشيء، جهد ضائع؟

ـ بلى، بالضبط، إنه جهد ضـائع حتـماً!» قالت بنـوعٍ من الإقرار الـذي يخلو من أي شكوى. ومـع ذلك فقـد راحت ترمقُ شيـمامـورا بنظراتِ أسى.

كل هذا الجهد الباطل! كان في مثل هذا الأمر ما يحث شيـمامورا، من غير قصدٍ منه، على التوقف عنده قليـلاً. ولكنْ ما أن مـال عليها منحنيـاً حتّى سرت في كيانـه مشاعـر دَعةٍ واطمئنـان، ومشاعـر راحـةٍ عميقـة كـأنّـه استسلم لإلحـاح الصـوت الخـافت المنبعثِ من تسـاقط الثلج. ومع ذلك لم يكن الأمر لها مجرّد عناء بـلا مقابـلٍ تمامـاً ولا بدّ

أن يكـون شيامـورا قد أدرك ذلـك، إلاّ أنّ شيئاً مـا في مثابـرتها بـدا أقرب إلى مزايا النقاء، وفجأةً بدت له كلّ تفاصيل حياة المرأة، لا بل وجودها، وقد سُلِّط عليهما ضوء جديد.

وبرغم ما تردّد في حديثها عن الروايات إلاّ أن ما جـاء فيه لا يمتّ بصلةٍ إلى مـا يُسمّى عـادةً «بـالأدب». إذ تقتصر صلتهـا عـلى هـذا الصعيد بسكان المنطقة على تبادل الكراسات وبعض المجلاّت النسائية الأخرى. وفيما عدا ذلك، كان عليها أن تنمّي بمفردها نهمهـا للقراءة كيفـما اتّفق ودون أي اختيـار أو تمييـز، ودون أي هـاجس أدبي مُسبق وذلك عن طريق الاحتفاظ بالكتب والمجلاّت التي يتركهـا روّاد النزل في غرفهم بعد مغادرتهم. كان شيـامورا يجهـل عدداً كبيـراً من أسماء المؤلفين الذين ذكرتهم في حديثها، فكان يُصغي إليها كأنّها تتحدّث عن أدبٍ غريبٍ بعيدِ المصادر. كانت تتحدّث باندفاع كبير بالطبع، ولكنَّ هذا لم يُخْفِ إحساسها بالهوّة السحيقة التي تنأى بالسامع عنها، فينتابهـا الكدر جرّاء عزلتها القسريّة: فمثلها مثلُ شحّاذ لا يُجبه إلاّ باللامبالاة التامة. كائن تذوي في أعـماقه كـلُّ رغبة. وراح شيـامورا يفكّـر، في غمـرة إصغائـه، أنّ أحلامـه الخاصّـة حول رقص البـاليـه الغـربي لا تختلف عنها في بعض جوانبها. فهو أيضاً كان يقرأ كلّ ما يصادفه من المؤلّفات المتخصصة، فيجمع إلى الكلمات الغريبة والصـور البعيـدة، مئات الصور الغامضة والتـأملات المجـرّدة التي تهدهـدُ أيّامـه. ـ ألا تحدّثه الآن، وبالطريقة نفسها، بكل الحماسـة والاندفـاع عن أفلام أو مسرحيات لم تشاهدها على الإطلاق؟

مما لا شك فيه أنّ شيامورا لم يبدِ طـوال الصيف مثيل الليـاقة التي

كانت تحثه على الإصغاء إليها. ولكنْ أتراها نسيت أنّ حديثاً مماثلاً قد أثار فيها، قبل مئة وتسعة وتسعين يوماً بالضبط، ذلك الميل الغريب نحو شيامورا؟ ذلك أنّها لا تني تستسلم مجدّداً إلى ثرثرتها فيما جسدها كلّه يلتهبُ احمراراً جرّاء ذلك الدفء.

فالحقيقة أنّ مرارات الإحساس بالمنفى ما عادت تخالط حسرتها على تركها المدينة. إذ ما عادت هذه سوى حلم كبير وبعيد لا يستدعي اليأس أو نفاد صبر: حلم يقظة رقيق يرضخ طائعاً لواقع الأمر. حتّى أنها لا تبدي حياله ما يدعو إلى الأسى أو الاكتئاب. وربّما كان ذلك بالذات ما يثير أعمق المشاعر لدى شيامورا الذي بدا، في انفعاله، عرضةً للتأثر الشديد بإحساس الجهد المجّاني، والعناء الذي يُبذلُ عبثاً، حتى كادت أن تتبدّى له حياته على صورة ذلك العقم العبثي. ولكنْ لحسن الحظ، كان يرى حياله وجه المرأة الشابة المعبّر والزاخر بالحياة، وفي سيمائه ملامح العافية تلك ونضارة اللون التي اكتسبها من مناخ الأماكن المرتفعة.

على أية حال كانت نظرته إليها قد تبدّلت كلياً. وأدرك بشيء من الدهشة أن تصرّفه حيالها لم يتبدّل بعد أن أصبحت فتاة غيشا فلا يسلك معها بحريةٍ أو تلقائية أكبر. . .

كانت ثملةً لا تلوي على شيء، في أمسيتها الأولى، عندما غرزت أسنانها بضراوة في ذراعها شبه المشلولة لأنّها أبطأت في الامتثال لما تريد. «ستنالين مني ما تستحقين! أيتها الخاملة! عديمة النفع! الويل لك!»

وفيما بعد إذ نال منها القنوطُ في صراعها ضدّ نفسها وضدّ السُكْر،

قالت في عبارات موصولة: «لن أندم على شيء. . . ومع ذلك لستُ امرأةً من ذلك الطراز من النساء! لست امرأة من ذلك الطراز!». . .

«إنه قطار منتصف الليل ينطلق في اتجاه طوكيو»، قالت.

كأنها أدركت حيرته ولم تبادر إلى الكلام إلّا لكي تبدّدها. وما أن انطلقت صفّارة القطار حتّى رآها تنهض مسرعةً من مكانها وتتجه نحو الدرف الجرّارة المطبقة أمام النافذة فتبعدها وتفتحها وتنحني منها إلى الخارج وقد أسندت ثقل جسمها كلّه إلى عارضة الحافة. كان القطار يتوغّل بعيداً ويحدثُ في سيره جلبةً تتراءى كأنّها عويل رياح ليلية. ودلفَ الصقيعُ إلى الغرفة.

«هذا جنون!» صرخ شيمامورا ودنا بدوره من النافذة.

كان الليلُ ساكناً، راكداً لا تلوحُ فيه نسيمة، فيما المنظرُ الخارجي يُقيم على ضحالة قسوته. ويسود انطباعٌ بأنّ هديراً ما في الجوفِ يتردّدُ صدىً لصريف الصقيع الذي يرصّ الثلج في الأرجاء وعلى مدى البصر. كانت السماء بلا قمر. أمّا النجوم فكانت في المقابل كثيرة لا تُحصى حتّى يُخيّل أنّها غير حقيقية، برّاقة وقريبة كأنّ الناظر إليها يشهد سقوطها متهاويةً في الفراغ. كانت السماء تبدو خلفها بعيدة، موغلة في تقعّرها وبعدها، هناك، نحو ينابيع الليل المعتمة. أما ذُرى السلسلة الجبلية الشاهقة التي بدت كأنها خطٌ قمم وحيد، فقد اعترضت السماء المرصّعة بكتلتها الهائلة، راسمةً فيها أفقاً حائراً، هائل الاتساع وأسود. غير أن المنظر كلّه كان غارقاً في مناخ من التناغم بين الصفاء الخالص والسكون العظيم.

ما أن شعرت بدنو شيمامورا منها حتّى أرخت المرأة الشابة جسمها ودلّته أكثر فأكثر مسندة صدرها إلى العارضة. لم تدع جسمها في حالة استسلام تام، لا بل على العكس: فقد اتخذت حيال الليل المظهر الأكثر صلابة وتصميماً. «دائماً تلك الدِرْع التي ينبغي أن تُخترق»، قال شيمامورا في سرّه.

كانت الجبالُ، مهما بلغت الدكنة التي لفّتها، تتألّق بوهج الثلوج. لا بل أحسّ شيمامورا آنذاك أنها اكتست فجأةً مسحةً من الشفافية، ومن الوحشة التي تعصى على التسمية: فقد اختلّ تناغم التوازن بين السماء وخط الذُرى المعتم.

«ستصابين بالبرد! لقد تجمّدت أوصالك»، قال شيمامورا واضعاً يده على عنق المرأة الشابة محاولاً اجتذابها إلى الخلف. إلّا أنّها تشبّثت بعارضة الحافة.

«سأعود إلى بيتي، قالت بإصرار برغم تهدّج نبرتها.

ـ حسناً جداً. إذاً، عودي.

ـ بعد قليل. أريد أن أمكث هكذا لبعض الوقت..

ـ أما أنا سأذهب للاستحمام، قال شيمامورا.

ـ لا، لا، لا تتركني...

ـ إذا أقفلتِ هذه النافذة!

ـ لحظة واحدة... أود أن أمكث على هذه الحال هنيهة أخرى!»

كانت روضة أشجار المعبد تحجب نصف البلدة. وأنوار المحطّة (التي لا يستغرق الوصول إليها أكثر من عشر دقائق في سيّارة أجرة) تلمع في البعيد كأن الصقيع فرْقعها.

شعر المرأة الشابة، النافذة، أكمام الكيمونو: كان كلّ ما تمسه يد شيمامورا مجمّداً، ولكنّه الجمد الذي ينضح برده: بردٌ لم يعرف له مثيلاً من قبل. حتّى الحصيرة، تحت قدميه كانت كأنها تسطع بالبرودة.

لم يلبث شيمامورا أن تهيّأ لمغادرة الغرفة يريد الاستحمام.

«انتظرني! سأرافقك»، قالت. وتبعته وقد ارتسمت على وجهها ملامح الخضوع.

وما أن وصلا إلى الطبقة السفلى حتى راحت توضّب ملابس شيمامورا بعد أن ينزعها عنه ويدعها مهملةً على الأرض، أمام الباب. ثمّ دخل عليهما شخصٌ ما. أحد نزلاء الفندق. رجل. وما أن رأته حتى انحنت طويلاً أمام شيمامورا وحجبت وجهها.

«أوه! أرجو المعذرة! قال الوافد الجديد وقد همّ بالمغادرة.
ـ ولكن لا، تفضّل، أرجوك، قال شيمامورا على الفور. سننتقل إلى الحوض المجاور».

حمل ملابسه وتقدّم نحو الحوض المجاور، المخصّص للنساء، فلحقت به كأنهما زوج وزوجة. غطس شيمامورا في المياه الحارّة دون أن يلتفت. فقد كان يُغالب نوبة ضحك هستيري انتابته لمجرّد التفكير بأنها هنا معه. ثمّ سارع إلى وضع رأسه تحت مياه اليوغوشي(*) وراح يغسل فمه فتصدر عنه غرغرة مسموعة.

(*) هو المنهل الذي منه تصبّ مياه الينبوع الحار لتملأ، بعد ذلك، الحوض الكبير.

ثمّ عادا إلى الغرفة. كانت ممدّة إلى جانبه، ثمّ رفعت رأسها قليلاً عن الوسادة وبحركة خفيفة من إصبعها نقرت أذنها فانزلقت خصلة من شعرها المصفّف وغطّت جبينها.

«أشعر بحزن عميق» قالت. ولم تقل شيئاً آخر. ظنّ شيمامورا لبعض الوقت أنّ عينيها مُغمضتان نصف إغماضة ثم أيقن، أن خط أهدابها الأثيث هو الذي أوهمه بذلك.

كانت عصبيّة المزاج، مشدودة الأعصاب فلم تنم لحظة واحدة طوال الليل.

لا بدّ أن ضجة خفيفة انتشلته من سباته العميق فاستيقظ شيمامورا ورأى أنها تعقد الأوبي فوق الكيمونو.

«أرجو المعذرة. لم أشأ أن أوقظك، قالت. لم تنقشع العتمة بعد. انظر: أبإمكانك أن تراني؟»

وأدارت مفتاح الضوء.

«أنت لا تراني، أليس كذلك؟ ليس بإمكانك أن تراني؟
- لا زال الليل في أشدّه.
- لا، أبداً على الإطلاق. حاول قليلاً. ها هنا! هل تراني؟ والآن؟ قالت وقد فتحت النافذة على مصراعيها. لا طبعاً! لا تستطيع. سأغادر».

رفع شيمامورا جذعه قليلاً وأسند ظهره إلى الوسادة. كان البردُ قارساً وكأنّ شدّته قد فاجأته مجدّداً. وكانت السماءُ لا تزال حالكةً بلون الليل ولكنْ هناك، فوق الجبال، كان الصباحُ في أوّل انبلاجه.

«ستكـون الأمور عـلى خير مـا يرام. إذ ليس لـدى المـزارعـين مـا يفعلونـه في هذا المـوسم. ولن أصادف أحـداً في الخارج في مثـل هذه الساعـة المبكـرة، إلاّ إذا صـادفني أحــد المبكّـرين من هــواة تسلّق الجبال... ما رأيك أنت؟»

كانت تتكلم دون أن تنتظر جواباً، تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً وتجرجـر خلفها طرف الأوبي الذي لم يُعقد كما ينبغي.

«لم يأتِ إلى الفندق وافـدون جدُد في قـطار الخامسـة. ولن ينهض أحدٌ من النزلاء القُدامى قبل بعض الوقت».

كانت قد أفلحت أخيراً في عقد الأوبي وشـدّه حول خصرهـا، إلاّ أنها لم تكفّ عن حركتها المتـواصلة في الغرفـة، إذ تنهضُ ثمّ لا تلبث أن تجثو على ركبتيها، ثمّ تعود وتنهض ولا تنسى في غمـرة هذا كلّه أن تلقي نظراتٍ متواليـة في اتجاه النـافذة. كـانت تبدو في ذروة تشنّجهـا العصبي، قلقةً ومُستثارة في وقتٍ معـاً كمثل حيـوان ليلي يخشى حلول الصباح. مَنْ يراها يخال أنها ممسوسة تستثيرها غريزة برّية غامضة، أو كأنّ رقية ساحر استحوذت كيانها.

كان الضوءُ قد أصبح كافياً في الغُرفة فـاستطاع شيـاموراً أن يـرى وهج خدّيها المصطبغين بلون قرمزي فاتحٍ برّاق، ومكث مفتوناً بهما.

«خدّاكِ يلتهبان حمرةً. خير دليل على شدّة هذا البرد!
ـ ليس البرد هو السبب: كلُّ ما في الأمـر أنني أزلتُ المساحيق عن وجهي. ولم يبق إلاّ أن انـدسَّ في فراشي لأنعم بـالدفء عـلى الفور. الدفء في كل أنحاء جسمي حتّى أصابع قدميّ».

إذ مكثت جاثيةً قُبالة المرآة، عند طرف السرير، أدركت أنّ اليوم أصبح في ضحاه وأن ساعة الرحيل قد حانت.

التفت شيمامورا نحوها ورمقها بنظرةٍ، لكنّه عاد وألقى برأسه على المخدّة بحركةٍ مباغتة: ذاك الأبيض الذي يُقيم في أعماق المرآة، هو الثلج وفي موضع القلب منه يتألق القرمزي اللامع في خدي المرأة الشابة. كان حسنُ ذلك التضاد من النقاءِ حتّى يمتنع على الوصف، ومن القوّة حتّى يفوق الاحتمال لشدّة ما كان مُرهفاً وحيّاً.

تساءل شيمامورا إذا كانت الشمس قد أشرقت لأنه رأى الثلج يزداد تألقاً في المرآة: كأنّه حريقٌ جليدي. حتّى الأسود في شعر المرأة الشابة بدا في الضوء المعاكس أقلّ عمقاً، إذ تناوبت عليه خفيةً لعبةُ الظلال بمسحاتها الأرجوانية.

- ٤ -

تحسُّباً لأي احتقانٍ قد يسبّبه تساقط الثلوج كان جريان المياه وتدفّقها في أحواض الحمّامات(*) يتمّ عبر قنوات محفورة في جدران الفندق. لذلك كان الماء يتجمّع أمام المدخل في نقع كبير كأنّه مُستنقع. وعلى درج السلّم تريّث كلبٌ أسودُ جسيم يشربُ منه. صفٌ من الزلّاجات أخرجت على الأرجح من مخزن ما لتعريضها للهواء في انتظار زبائن محتملين، وتفوح منها رائحة عفن خفيفة يُلطّف من حدّتها، لا بل يُحلّي ضوعها البخار المتصاعد من المياه الحارّة. أمّا ندف الثلج المتساقطة من أغصان شجرات الأرز على سطح الحمّامات فتُغطيه ببُقع غائمة الأشكال، لا بل تكاد تكون متماوجة وفاترة.

لن يلبث مُخطط الطريق أن يختفي تماماً تحت الثلج، قبل نهاية السنة، وقد ابتلعه ركام الثلج. وعندئذٍ ستكون مرغمةً في ارتيادها أمسيات السمر على انتعال جزمة الكاوتشوك العالية وارتداء «البنطال الجبلي» المُنفّر فوق الكيمونو، وفوقه العباءة الثقيلة بالأضافة إلى غلالة

(*) الحمّامات العمومية التي تتزوّد بمياه الينابيع الحارّة إيّاها والتي شيّدت الفنادق على مقربةٍ منها.

الوجه للوقاية. وإذ ذاك سيبلغ ارتفاع الثلج عشر أقدام ولن ينقص قدماً واحدة طوال أيام الشتاء. كانت أخبرته بذلك من قبل، وكان شيمامورا يُعيد التفكير في ما قالته، إذ يهبط نحو البلد سائراً على الطريق التي تفحّصتها بأنظارها، صباح ذلك اليوم بالذات، عند بزوغ الفجر من نافذة غرفته في النزل.

كان عدد من الفُوَط نُشر على حبلٍ عالٍ ممدودٍ بجانب الطريق. ومن خلالها كان المنظرُ الرحبُ للجبالِ يترامى أمام عينيه، وفي البعيد تتوهج الذرى المكسوّة بالثلوج بنور الشمس. أما سويقات الكرّاثِ الخضراء النابتة في الحدائق، فكانت لا تزال باسقة لم تطمرها الثلوجُ بعد.

وكان صِبيةٌ من أبناء البلدة يتزلجون على ثلج الحقول.

ما أن أفضت به الطريق ناحيةَ البيوت حتّى أحسّ شيمامورا برذاذ مَطَر خفيف، ورأى قطع الجليد الصغيرة اللامعة تزيّن السقائف الأماميّة للسطوح: توشية رقيقة وسائلة.

«ما دمتَ بدأت، قال صوتٌ من ورائه، فلماذا لا تزيل الثلوج عن سطحنا أيضاً؟»

كان صوت امرأة خرجت لتوّها من الحمّام وقد عصبت شعرها بفوطة ورفعت عيناً مبهورةً بأشعة الشمس لتخاطب الرجل الذي يزيل الثلج المتراكم فوق أحد السطوح. قد تكون نادلة ما، قال شيمامورا في سرّه، جاءت إلى البلدة قبل موسم التزلّج بقليل. كان

المدخل التالي يُفضي إلى مقهى(*): وهو عبارة عن مبنى قديم بسقفه المتداعي ونافذته التي تقشّر طلاؤها لفرط ما تعرّضت لتقلّبات الجوّ.

كانت سطوح المنازل المبنية في معظمها من قِدَد القرميد تتماثل في موازاتها الشارع بصفوفٍ متناسقة من الحجارة: حجارة ضخمة مدوّرة وملساء، يُغطيها بياض الثلج ناحية الظلّ فيما تلمع من الجهة الثانية إذ ينعكس عليها نور الشمس. حجارة تشبه في سوادها أسودَ الحبر الذي يُشيعُ بريقاً ليس بريق الرطوبة المتقطّرة منه بل ذاك الذي ينبعث من الذرور المعدني إذ تصقله الرياح والصقيع والمطر.

كانت السقائف الأمامية للمداخل المنحنية حتّى تكاد تلامس الأرض تعبّر، في ذاتها، وربّما أفضل ممّا تعبّر عنه حجارة السطوح، عن روح المناطق الشمالية بالذات.

صبيةٌ كانوا يلعبون في مجرى الجداول، ويلهون بكسر الجليد ورمي قطعه إلى وسط الطريق، مأخوذين بلا ريب بالتماع كسوره المتناثرة تحت أشعة الشمس. مكث شيمامورا لبعض الوقت يتأمّل صنيعهم، منتصباً في مساكب الضوء يكاد لا يصدّق أن الجليد بلغ مثل تلك الكثافة.

فتاة في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها كانت تقف على حِدةٍ تحبك دثار صوف وقد أسندت ظهرها إلى حائط. ولاحظ شيمامورا أن قدميها المتدلّيتين من «بنطالها الجبلي» الفضفاض والخشن

(*) ينبغي أن يُفهم هنا بالمعنى الياباني للكلمة التي تطلق، بغرض التحقير، على حانة من الطراز الوضيع حيثُ تجالسُ النساءُ الشَرْب.

كانتا عـاريتين في خفيّ الجيتـا(*)، ورأى أن بشرتهما تميـل إلى الاحمرار وقـد تشقّقت بفعـل الـبرد. وإلى جـانبهـا طفلةٌ ضئيلة الحجم لم تبلغ عـامها الثـاني وقد اقتعـدت، راضيـــةً مـرضيـةً، كـومـةً من الحـطب وبـاعدت مـا بين معصميهـا اللذين يحملان بصـبر وطول أنـاة ربـطة الخيوط ذات اللون الرمادي الداكن، ومنها يصلُ الخيـط إلى يـدِ الفتاة وقـد ازدهى لونـه وصار أقـلّ دكنـة لمجـرّد انتقـالـه من ذراعي الفتـاة الصغرى إلى يدِ الكبرى.

من مسافة سبعـة أو ثمانيـة بيوت إلى الأسفـل، ترامى إليـه صوت مِنْجَر النجّار الذي يعمل في معمل ألواح التزلّج. وفي الجهـة الأخرى من الشـارع وقفت خمس أو ست فتيـات غيشـا يـثرثـرن تحت سقيفـة مائلة. «أنا واثق من أن كوماكو إحداهنّ» فكّر شيمامورا الذي أصبح يعرف اسم المرأة الشابة منذ صباح ذلـك اليوم بـالذات حـين أخبرتـه إحدى نادلات النزل. وبالفعل كانت كوماكو هناك. وبـرغم المسافـة التي تفصله عنها استطاعت هي أيضاً أن تتعرّف وجهـه: كان التجهّم في ملامح وجهها لا يُفسح في المجال لأي خطأ بهـذا الشأن. «سـوف تصطبـغ وجنتاهـا بـالحمـرة حتّى الأذنـين، لن تستـطيـع أن تـداري خجلهـا ما لم تتـظاهر بـأنّ شيئاً لم يكن. . .» ولم تكـد تخـطر لـه تلك الخاطرة حتّى رأى وجهها بالفعل يحمّر خجـلاً حتى أعلى عنقهـا. كان أجدر بها أن تشيح بوجهها ولا تلتفت إليه، غـير أنّها على العكس من ذلك راحت تقتفي مشيتَه بعينيها كأنّ شيئاً ما يُـرغمها عـلى ذلك وإن أبقت عينيها خفرتين ينتابُها إحساس مؤلم بالضيق.

(*) صندل خشبي يُرتدى مع الزي الياباني التقليدي.

أحسّ شيمامور هو أيضاً بحرارة تلهب خدّيه وحثّ خطاه كيما يبتعد عنها ولم تلبث كوماكو أن لحقت به.

«كان يجدر بك ألاّ... إنّه لَمُربك حقاً أن أراك مارّاً في مثل هذه الساعة.

ـ مُربك لِمَنْ؟ ألا تعتقدين أنّ الأمر يربكني بالمقدار نفسه لمجرّد أن أراكِ واقفةً على هذا النحو كأنّك تنتظرين مروري بهذا المكان فتعترضين طريقي؟ لقد تردّدت كثيراً قبل أن أعقد العزم على متابعة طريقي! أتجري الأمور دائماً على هذا النحو؟

ـ بلى، على الأرجح... في أوقات ما بعد الظهيرة.

ـ إحمرار وجهك بهذه الطريقة ثمّ اللحاق بي، ينبغي أن أقول لك إنّ مثل هذا السلوك يُضاعف من ارتباكي.

ـ أوه، لا! لا أحسبَ أن ذلك يبدّل من الأمر شيئاً».

كان كلامها واضحاً ولكنّ هذا لم يُحل دون اصطباغ وجهها بالحمرة للمرّة الثانية. ثمّ توقّفت وطوقت بذراعيها جذع شجرة كاكي عند حافة الطريق.

«لقد خطر لي أن أدعوك لزيارتي. وهذا ما دفعني إلى اللحاق بك.

ـ وهل منزلك في هذه الناحية؟

ـ إنه على مقربة.

ـ أقبل دعوتك على أن تأذني لي بقراءة دفتر يوميّاتك.

ـ في نيّتي أن أحرقه قبل مماتي.

ـ للمناسبة أخبريني أليس في منزلك رجل مريض؟

ـ كيف علمت بذلك؟

ـ لقد ذهبتِ أمس لانتظاره في المحطّة وكنت ترتدين عباءة كحلية. لقد كانت بيننا رفقة سفر وكان يجلس قبالتي تقريباً وترافقه فتاة أحاطته بعنايةٍ لا توصف لشدّة رقّتها ولطفها... أهي زوجته؟ أم أنّها من فتيات المنطقة أوفدت لاصطحابه معها؟ أو هي من سكان طوكيو؟ كم أحاطته بالعناية والانتباه... كانت بمثابة أمّ له. وقد أثّر فيّ ذلك أبلغ التأثير.

ـ لماذا لم تذكر شيئاً حول هذا الموضوع مساء البارحة؟ لماذا هذا الكتمان؟ قالت كوماكو بانفعال مباغت.

ـ أهي زوجته؟

غفلت عن الإجابة لانشغالها بالسؤال الذي طرحته عليه.

ـ ولكن لماذا كتمت عني مثل هذا الأمر مساء أمس؟... يا لطباعك الغريبة!»

لم يكن شيمامورا ليستحسن تلك الفظاظة في نبرة من يُخاطبه وعلى الأخصّ إذا صدرت عن امرأة. إذ لا شيءَ مما رآه، في الظاهر، قد يبرّر اللجوء أليها لا في مناسبة السؤال ولا في تصرّفاته الشخصية. أو تكون تلك أمارة على مكنون طباع كوماكو؟ ومع ذلك كان لا بدّ له من الإقرار في سرّه بأن إلحاحها على السؤال قد استثار فيه مكمن حساسيته: صبيحة ذلك اليوم بالذات، وصورة كوماكو في المرآة، أحمر خدّيها إذ ينعكس على بياض الثلج، فلا بدّ أنّ هذا كلّه قد أعاد إلى مخيّلته صورة المرأة الشابة في القطار وانعكاسها على زجاج نافذة العربة... فلماذا إذاً لم يأت على ذكر ما جرى؟

في تلك الأثناء كانا قد تقدّما في سيرهما.

«وما الأهميّة في أن يكـون هناك رجـلٌ مريض. إذ لا أحـد يدخـل إلى غـرفتي على الاطـلاق». قالت كـوماكـو وقد سلكت المعـبر الـذي يُفضي عبر جدار وطيء.

إلى الجهة اليمنى، حقل صغير تغطيـه الثلوج. وإلى الجهة اليسرى صفٌ من أشجار الكاكي أمام السور الفـاصل. أمـام المنزل جُنينـة لا بـدّ أن تكون حـديقة تـرفيـه، وفي بُـركـة اللوتس حيث نُـزع الجليـد المُحـطَّم وجُمع عنـد الحافـة، كان في وسـع العابـر أن يرى عـدداً من الأسـماك الضخمة الحمـراء. كان المبنى في ذاتـه يبدو قـديماً ومُصـدَّعاً أشبه بجذعٍ أجوف لشجرة توت مُسنّة. أكـوام من الثلج تجمّعت هنا وهنـاك على سـطحه المنفتـل بعوارضـه الملتويـة وكأنها تـزيّن الأفاريـز بكشاكش.

ما أن يطأ المرء أرضيّة المـدخل المـوحلة حتّى يُطالعـه بردٌ قـارّ. ثمّ اقتيد شيمامـورا إلى أسفل سلّم حتّى قبـل أن تعتاد عينـاه على الـظلمة المفاجئة. سلّم حقيقي يُفضي إلى عليّة حقيقية.

«كـانت هذه عليّـة خاصـة بتربيـة دود القزّ. قـالت كومـاكـو. ألم يفاجئك الأمر؟

ـ إنّـه لمن حسن طالعـك حقاً أنّـك لم تقتـلي نفسـك حتى الآن إذ تتسلقين هذا السلّم وقد أفقدك السُكرُ رشدك!

ـ لقد وقعت عنه مراراً. ولكنْ في العادة حين أشرب كثيراً أفضّـل أن أندسّ في الكوتاتسو هنا في الأسفل حيث أنام».

وفيما كانت تسرّ له بذلك دسّت يدهـا داخل الكـوتاتسـو لتتحسّس درجـة سخونتـه ثمّ لم تلبث أن هبطت السلّم لإحضـار بعض الجمر.

تفحّص شيهامورا الغرفة بعناية ولاحظ أن ليس فيها سوى نافذة واحدة تطلّ على الجهة الجنوبيّة، لكنّه لاحظ أيضاً أنّ ورق تلك النافذة ذات المصراع الجرّار جديد ونظيف ويُتيح دخول أشعّة الشمس بالقدر الكافي للإضاءة. كان ورق عجينة الأَرُزّ يُغطي الجدران فتبدو الحجرة وكأنّها علبة من الورق المقوّى القديم. ومِنْ فوق كان السَطْحُ العاري هو السقف الذي إذ يميل منحدراً حتى أعلى النافذة يولّد انطباعاً بالعزلة الكئيبة. وسرعان ما تساءل شيهامورا في انقياده إلى نوازعه الفطرية عمّا يوجد وراء الجدار الفاصل لهذه الحجرة الضيقة، وانتابه احساس مُنفّر أشبه بمن يجد نفسه على شرفة مقفلة الجوانب معلّقة في الفراغ. غير أن الأرضيّة والجنبات بدت، برغم قِدَمها، مذهلةً في نظافتها.

لبُرهةٍ راقت لشيهامورا فكرة أن يخترق الضوءُ جسد كوماكو الحيّ في حجرتها المخصّصة لتربية دود القزّ كما يخترق الأبدان الضئيلة الشفيفة لتلك اليَرَقانات الناشطة.

كان غطاء الكوتاتسو مصنوعاً من القماش القطني المخطّط إيّاه الذي يستخدم عادة في خياطة «البناطيل الجبليّة». أمّا الصُوان بأدراجه العديدة فقد بدا قطعة أثاثٍ جميلة بخشبه الدقيق والمعرّق باتقان والصقيل؛ - ربّما كان تذكار الأعوام التي عاشتها في طوكيو، قال شيهامورا في سرّه. في المقابل، كانت قطعة الأثاث الأخرى، وهي منضدة زينة رخيصة، تشيع لمسةً من التنافر بطابعها الريفيّ فيما تُبرز علبة الخياطة المزخرفة مسحةً من الدفء المكنونِ الذي يَصْنَع فتنة اللكّ ذي النوعية الفاخرة. وعلى إحدى جنباتها صفٌّ من العُلَب الصغيرة المتراصفة خلف ستارة من الصدف الخفيف يحجبُ الموضع

الذي تستخدمه، في الأرجح، كمكتبة.

كان الكيمونو المخصّص لأوقاتِ الخروج والذي كانت ترتديه ليلة البارحة معلّقاً هناك على الجدار وبدا من فتحته حرير الأحمر الجارح للثوب الداخلي.

تسلّقت كوماكو السلّم برشاقة حاملةً معها ما تحتاجه من الحطب.

«لقد أحضرت الحطب من غرفة المريض، قالت. ولكنْ اطمئن: يُقالُ إنّ النار تلتهم كلّ الجراثيم».

انحنت لتضرم لهب الجمر ومالت في انحنائها حتّى كاد شعرها المصفَّف بعناية أن يلامس حافة الكوتاتسو. «إنّه سلّ الأمعاء الذي يُضني ابن أستاذة الموسيقى، أوضحت له. ولم يعد إلى المنزل إلاّ ليموت هنا». في الحقيقة هو نفسُه لم يولد هناك، إنه منزل والدته. لقد واصلت تدريس الرقص في المناطق الساحلية حتّى بعد أن كفّت عن العمل كفتاة غيشا. ولكنّها أصيبت بنوبة قلبية على مشارف الأربعين وعادت إلى منتجع الينابيع الحارّة بقصدَ العلاج. أما ابنها الذي كان مولعاً بالميكانيك منذ نعومة أظفاره فقد مكث هناك لينهي تدرّبه على يدِ ساعاتيّ ماهر. وفيما بعد ذهب للإقامة في طوكيو حيث يتاح له أن يتابع دراسته في معهد ليلي دون أن يتوقّف عن العمل، وكان أن أفسد الإرهاق صحته وهو لا يزال في الخامسة والعشرين.

أفضت كوماكو إلى شيمامورا بهذه الشروحات دون تردّد. ولكن لماذا أغفلت ذكر الفتاة التي كانت ترافق الرجل المريض؟ ولماذا لم يسمع منها أي تفسير لإقامتها هي في ذلك المنزل؟

على أيّة حال كان شيهامورا يُصغي إليها بشيءٍ من الضيق. وبدا له أن المرأة الشابة بثّت من أعلى شرفتها برنامجاً إذاعياً موجّهاً إلى نواحي العالم الأربع.

وما أن عاد إلى لمدخل حتّى لمحت عيناه البياضَ الغائم لشيءٍ لم يره من قبل: علبة آلة آلساميسن التي أذهله حجمها. بدت له العلبة أطول وأعرض مما تكون عليه عادةً، لذلك كان يصعب عليه أن يتخيّل كوماكو في إحدى الأمسيات التي تستدعى إليها وقد حملت معها تلك الآلة المربكة. وفي تلك الأثناء عمد شخصٌ ما إلى فتح الباب الداكن الذي يُفضي إلى الداخل.

«ألا يزعجك يا كوماكو أن أعبر من فوقها؟» سأل الصوتُ المثير بوضوحه وبنبرته الشجيّة التي تبثُّ السامع شجناً لا يُضاهى: صوت يوكو الذي يتردّد في مسامع شيهامورا منذ أن سمعها لأوّل مرّة، في تلك الليلة، تنادي ناظر المحطّة عندما توقّف القطار عند طرف النفق. وأصغى في انتظار الجواب الذي سيترامى إليه كالصدى.

«لا، أبداً، هلمّي!»

تخطّت يوكو بقفزة رشيقة علبة الساميسن واتجهت نحو الباب الخارجي حاملةً بين يديها مبولةً من زجاج. ولم تلبث أن ابتعدت بخطوات صامتة، بعد أن رمقت شيهامورا بنظرة خاطفة وحادّة.

ممّا لا شكّ فيه أنها بنتُ تلك المنطقة، بلد الثلوج: يكفي أن يرى طريقتها في ارتداء الهاكاما(*) الجبليّ أو أن يتذكّر نبرة الألفة في حديثها مع ناظر المحطّة غير أنّ الزركشة المرهفة التي تزيّن زنارها العريض

(*) لباس جبلي، عبارة عن سرولة فضفافة تصل حتى أعلى الركبتين.

والتي لا يُرى منها سوى نصفها الأعلى فوق السرولة الفضفاضة المشقوقة، كانت تُبرز تخطيط القماش الخشن البنّي والأسود وكذلك كميّ الكيمونو الطويلين وكأنّهما يكتسبان منها أناقة أشدّ إثارة. حتّى الهاكاما، المشقوق عند أعلى الركبة والمُنتفخ كثيراً عند الوركين، كان يُضفي على قامتها مسحة من الليونة والرقّة ويبدو خفيفاً برغم غلظة القماش والخشونة المعتادة لمثل تلك الألبسة القطنية السميكة.

حتّى بعد أن غادر المنزل ظلّ شيمامورا مأخوذاً بتلك النظرة الحادّة التي خلّفت على جبينه أثراً كأنه حريق. وكانت الفتنة أيضاً قبساً من ذلك البهاء النقيّ الذي لا يوصف يبثّه نورٌ قصيّ وبارد، روعة تلك البقعة الملتمعة التي تلألأت على وجه المرأة الشابة ومن تحتها كان ينسربُ الليل، مُنعكساً على زجاج نافذة العربة، ذلك الوميض الذي انبثق لثوانٍ وأضاء نظرتها بنور مفارق كأنّه تهلُّل خرافي وغامض لم يستطع قلب شيمامورا إلاّ أن يستجيب له، في تلك الأمسية، بخفقانه المتسارع، وها قد امتزج به في ذلك الصباح سحر الثلج في لألأته، والمدى الشاسع لبياضٍ يتألّق في كنفهِ، لامعاً وحادّاً، كلّ القرمزيّ في وجنتي كوماكو.

أسرع في المشي. لا لرشاقةٍ في ساقيه، فقد كان، على العكس من ذلك، أقرب إلى السمنة. غير أنّ شيئاً من الخفّة كأنّها حيويّة مُستجدّة لا يعرف مصدرها بالضبط، حلّت في بدنه لرؤية جباله المحبّبة. وكان لا يصعب عليه أن ينسى، في ميله الفطري إلى تصديق الأحلام، أن عالم الأنس يُقحم نفسه في لعبة الانعكاسات الغائمة والصور الغريبة التي تفتنه. لا، لم تكن نافذة العربة التي جعلها الليلُ مرآة، ولا المرآة

التي أفعمها بياضُ الثلج، أشياء صنعتها يدُ إنسان: فقد كانتا، في جزءٍ من تكوينهما، من طينة العناصر المكوّنة للطبيعة نفسها، وفي الجزء الآخر أقرب إلى عالم مغاير وبعيد. كون قائمٌ في مكان آخر وإليه تنتمي أيضاً الغرفة التي كان غادرها للتوّ.

وإذ انتابته تلك الأحاسيس، سرت رعشةٌ في أوصال شيمامورا وألحّت عليه رغبةٌ في العودة إلى أشياء العالم المادي. واستوقف مدلّكة عمياء عند أعلى المنحدر، وسألها أن ترافقه لتدلك له جسمه.

«لنر كم الساعة الآن»، قالت وهي تدس عصاها تحت ذراعها لتسحب ساعة جيب من زنّارها وتفتح غطاءها مُتحسسةً ميناءها بأنامل يدها اليسرى: «الثانية والنصف. لدي موعد عند الثالثة والنصف. هناك أبعد بقليل من المحطة. ولكن لا بأس إن وصلت متأخّرة بعض الشيء.

- إنه لمذهل حقاً أن تكوني قادرة على قراءة الساعة، قال شيمامورا بإعجاب.

- ليست لها غطاء زجاجي ولذلك أتحسّس العقارب.

- والأرقام؟

- لا، الأرقام غير ضرورية». قالت وهي تسحب ساعة الجيب مجدّداً وتفتح غطاءها. كانت ساعة من الفضّة أكبر بقليل من الساعات التي تحملها النساء عادة. وبعد أن وضعت ثلاث أصابع لاعتلام مواضع الثانية عشرة والسادسة والثالثة قالت: «باستطاعتي أن أعرف كم الساعة بالضبط، وإن أخطأت فبدقيقة أقلّ أو أكثر. وفي أبعد الاحتمالات ليس أكثر من دقيقتين على الإطلاق.

ـ وماذا عن انحدار الطريق، ألا تكبّدك المشقّة؟ سألها شيامورا قلقاً.

ـ عندما تمطر، تأتي ابنتي إلى البلدة وتصحبني إلى هذا المكان، أمّا في المساء فلا أعمل إلاّ في محيط البلدة ولا أصعد إلى هنا. حتّى إنّ الأمر أصبح موضوعاً للتنادر عليّ من قبل نادلات النزل: إذ يزعمن أن زوجي هو الذي يرفض السماح لي بالخروج مساءً.

ـ ألكِ أولاد كبار؟

ـ ابنتي البكر في الثانية عشرة من عمرها».

تابعا ثرثرتهما حتّى وصلا إلى غرفة شيامورا، وعندما شرعت العمياء في التدليك توقفا عن الكلام. وران صمتٌ لم يعكّره سوى عزف بعيد على الساميسن.

«عجباً! مَنْ التي تعزف؟ سألت العمياء مُصغية».

ـ أبإمكانك دائماً أن تعرفي الغيشا من عزفها؟

ـ بعضهنّ، بلى، وبعضهنّ الآخر لا. لكَ جسم مَن ليس في حاجة لأن يعمل. ألا تتحسَّس مقدار الليونة والارتخاء في أطرافك؟

ـ أما من تشنّج عضلي في أي موضع؟

ـ تشنّج بسيط، هنا، عند أسفل القفن. ولكنّ جسمك على التمام كما ينبغي أن يكون، لا مفرط السمنة ولا شديد الهزال. أنت لا تحتسي المسكرات، أليس كذلك؟

ـ ألأنّك قادرة على التخمين بهذا الشأنِ أيضاً؟

ـ لديّ ثلاثة زبائن آخرين، ممّن اعتادوا خبرتي، يتمتّعون بمثل قوّتك البدنية.

ـ باه! إنها مزية عاديّة مثل أي صفة أخرى.

ـ ربما تكون على حقّ، ولكنْ إذا كنت لا تتناول المسكرات فهذا يعني أنّك تحرم نفسك مُعينَ الهناءة: أن تقدر على النسيان، والقدرة على النسيان لذّة حقّة!

ـ وزوجك، أيشرب زوجك؟

ـ بل يفرط في الشراب!

ـ ولكن بشأن عازفة الساميسن تلك، فهي، كائنة من كانت، عازفة رديئة.

ـ أجل، إنّه عزف رديء.

ـ وأنتِ هل تجيدين العزف؟

ـ كنتُ أمارس العزف في صباي، منذ أن كنتُ في الثامنة وإلى أن بلغت التاسعة عشرة. ولكنّي توقفت عن العزف منذ أن تزوجت أي منذ خمسة عشر عاماً.

ما أن سمعها شيمامورا تبوح له بعمرها حتّى راوده السؤال عمّا إذا كان العميان يبدون دائماً أصغر سناً ممّا هم عليه بالفعل. لكن سرعان ما أردف قائلاً:

«مَنْ تمرّس على العزف في صباه الباكر يستحيل أن ينسى.

ـ في المهنة التي أزاولها اليوم، صدّقني، ما عادت يداي كما كانتا في السابق. لكني ما زلت أمتلكُ أذناً لا بأس بها، وكم يسيئني سماع عزفهن. ولكن أحسب أيضاً أن طريقة عزفي في صباي ما كانت لترضيني الآن».

أصغت لثوانٍ

«ربّما كانت فومي، من فتيات الايزوتسويا. ذلك أن بإمكاننا دائماً

أن نتعرّف دون مشقة على الأسوأ وعلى الأبرع من بينهنّ.

ـ وهل يوجد حقاً مَن هُنّ بارعات في العزف؟

ـ كوماكو، عازفة ممتازة. لا تزال شابّة بالطبع، ولكنّها تحسّنت كثيراً منذ بعض الوقت.

ـ كوماكو؟ حقاً؟

ـ للمناسبة، أنت تعرفها أليس كذلك؟ بلى، أرى أنها ممتازة. ولكن عليك ألاّ تنسى أيضاً أننا، هنا في الأريافِ، أقلّ تطلباً.

ـ لا أعرف عنها إلاّ القليل لذلك لا يسعني القول، أوضح شيامورا. لقد صادفت أيضاً أثناء رحلتي في القطار أمس ابن مدرّسة الموسيقى.

ـ وهل هو في حالةٍ أفضل؟

ـ لم يبد لي في حالةٍ أفضل.

ـ آه؟ يبدو أن هذا المسكين قد كابد المرض طويلاً في طوكيو. حتّى إنّ البعض يقول إنّ كوماكو قرّرت، في الصيف الماضي العمل كفتاة غيشا محترفة لكي توفر له جزءاً من تكاليف العلاج. ولستُ واثقة من جدوى ما فعلته!...

ـ كيف؟ كوماكو؟

ـ كانا مجرّد خطيبين. ولكن أحسب أن المرء لا يشعر براحة الضمير إلاّ إذا بذل كلّ ما في وسعه. فعندئذٍ لا يبقى لديه على الأقلّ ما يلوم نفسَه عليه.

ـ كانت خطيبته؟

ـ هذا ما يقال. أنا لا أعرف أكثر ممّا يقال بالطبع. لكن مثل هذه الأمور لا تعرف عادةً إلاّ بالقيل والقال.

أليس من الأمور العادية جداً أن يسمع ثرثرة مدلكةٍ في أحد المتجعات تنمّ على فتيات الغيشا من بناتِ الناحية؟ غير أنّ هذه الأخبار فاجأت شيامورا وربّما لأنها ترامت إلى مسامعه عبر قناة عادية، ولذلك بدت له مذهلة وغير معقولة. كيف؟ هي ذي كوماكو تتحوّل إلى فتاة غيشا لتهبّ إلى نجدة خطيبها؟ حديث خرافة! ألا يُشبه هذا أن يكون مشهد الميلودراما الأكثر ابتذالاً! فما استطاع أن يصدّق. حتّى في ميله إلى قياس تصرّفها وفق ما تمليه عليه قيمه الخاصة: فقد كان يودّ فعلاً لو أنّ المرأة قد اختارت بملء إرادتها أن تمارس حقّها في بيع نفسها كفتاة غيشا! وقصارى القول إنه أحسّ برغبة عارمة في معرفة تفاصيل تلك الحكاية واستيضاح جوانبها الغامضة. ولكنّ المدلكة كانت قد أنهت عملها.

في غمرةِ انشغاله بما يجول في رأسه ويعتمل كانت تلحّ عليه دائماً فكرة «الجهد المبذول عبثاً» والتي سبقت أن راودته بشأن دفتر يوميّات كوماكو. فإذا كانت كوماكو خطيبة ذلك الرجل فعلاً ويوكو الحبيبة الجديدة لذاك الخطيب الذي يكابد بدوره سكرات الموت الوشيك، أفلا يكون كلّ ذلك عبثاً مطلقاً وسدىً؟ إذ كيف لا يكون هدراً عندما تصل كوماكو إلى حدّ القبول ببيع نفسها لكي يتسنّى لها أن تفي بالتزاماتها كاملةً وأن توفر له تكاليف العلاج؟ سدىً. جهد ضائع. عبث.

كان شيامورا يرى أنّ من واجبه أن يحدثها بالأمر في لقائهما التالي، ويقول لها كيف يرى من جهته إلى الأمور، ويحاول إقناعها. ولكن في الوقت نفسه كان لا يسعه إلاّ الإقرار في سرّه بأنّ ما اكتشفه للتوّ من جوانبِ حياتها المكتومة جعلها في عينيه أكثر شفافيةً ونقاءً.

بلى، لقد كانت خشيته من كذبةٍ ما، وإحساسه بفراغٍ ما وبقدرٍ من الغرور في كلّ ذلك أقرب إلى توجّس غامض ومقلق يدفعه إلى الحذر، كأنّ في الأمر ما فيه من أخطار خفية. ولبث شيمامورا وقتاً طويلاً بعد مغادرة المدلّكة العمياء يُحاول استيضاح ما يخالجه، حتّى أحسّ بالصقيع يُجمّد أطرافه. ليس فقط لأنّه كان على تلك الحال بل أيضاً لأن نوافذ غرفته تُرِكَت مُشرّعةً.

كان أسفل الوادي الذي اكتنفته باكراً عتمة الظلال، قد اكتسى تماماً بمروحةِ ألوان المساء. والجبالُ، باسقةً خارج الغور المُظلم، هناك، متوهجةً بأنوار المغيب، بدت أقرب بتضاريسها المجسّمة بفعل الظلالِ التي تفوقها تجويفاً وإظلاماً، وببياضها المتوقّد قليلاً تحت السماء الملتهبة بالحمرة. وهناك، أقرب منها، كانت غابة الأرز، عند ضفة الشلال، تحت ساحة التزلّج، تبسط رقعة ظلالها السوداء حول حرم المعبد.

كان شيمامورا يزداد إحساساً بالوحشةِ والشقاء وقد أعيته مشاعر اللاجدوى والخواء الباطل. وعندما دخلت عليه كوماكو كأنّ شعاع نور حار أضاء ليله.

كان الفندق يستضيف اجتماعاً لوضع برنامج محلّي لموسم الشتاء، وقد دُعيت إلى الأمسية التي ستعقب الاجتماع، قالت له فيما كانت تسارع إلى دس يديها الاثنتين داخل الكوتاتسو. وبعد ثوانٍ كانت كفّها تتحسّس وجنته في رقّة.

«كم أنت شاحب هذا المساء!.. غريب!..» قرصت خدّه قليلاً بين إصبعين وشدّت على البشرة اللّينة كأنّها تنزع عنها قناعاً.

«دعكَ من مزاجك العبثي، هيا! كأنَّك تُقلق نفسَك». . .

وحسب شيهامورا أنّها ثملة قليلاً.

ولكنْ حين عادت، بعد انتهاء الأمسية، تهالكت أمام المرآة وبدت عليها ملامح من يُفرط في تظاهره بالسكر:

«لا أفهم شيئاً. لا شيء على الإطلاق. . . أوه! رأسي. . رأسي المسكين! أشعر بألم. . ألم فظيع. . . يجب أن أشرب. آه! أحضر لي كوب ماء».

كانت تضغط صدغيها بيديها الإثنتين مُرجّحةً رأسها غير مكترثة لتسريحتها العالية. ثمّ نهضت وراحت تفرك وجهها، بلمسات خفيفة متأنية، بمزيلِ المساحيق لتمسح عن وجهها طبقة الذرور البيضاء الكثيفة. كانت وجنتاها مُلتهبتين. ومع ذلك فقد بدت كوماكو كأنها أصبحت راضيةً عن نفسها أمام ذهول شيهامورا الكبير إذ كان عاجزاً عن الاقتناع فعلاً بأنّ السُكر قد يتبدّد بسرعةٍ مماثلة. ورأى كتفيها ترتعشان لشدّة البرد.

بهدوءٍ ورويّة خالية من أي انفعال، أسرّت إليه أنها كادت تُصاب بانهيار عصبي خلال شهر آب.

«كنتُ أشعر بأنني سأفقد عقلي! كنت أستسلمُ لهواجس كئيبة وأقلّبُ أفكاراً قاتمةً ولا أعرف سبباً لما أعانيه. كانت حالة مُرعبة، لا أقوى على النوم ولا أتمالك نفسي إلاّ حين أغادر البيت. كانت أحلامي من كلّ صنفٍ ونوع، وفقدت شهيّتي للطعام. وكان يحدث لي أن أمكث ساعاتٍ أضربُ الأرض بكفيّ، جالسةً في موضعٍ لا

أفارقه، إلى ما لانهاية، في أشدّ أوقات النهار قيظاً.

- متى بدأت تزاولين مهنتك كفتاة غيشا؟

- في حزيران وحسبتُ لبعض الوقت أنه ربّما كان علي أن أذهب إلى هاماماتسو.

- بغرض الزواج؟»

أجابت بنَعَمْ. فقد كان الرجل مُصراً على الزواج منها، ولكنّها لم تستطع أن ترغم نفسها على القبول به. وقد سبب لها قرارها النهائي بعض المتاعب.

- إذا كان لا يُعجبك فلماذا أبطأتِ في القرار؟

- ليس الأمرُ سهلاً كما تظنّ... فالأمور ليست بالبساطة التي تبدو عليها.

- الأن الزواج، في ذاته، يبدو لك مليئاً بالمغريات؟

- كفّ عن خبثك هذا! يحقّ للمرأة أن تحلم ببيتٍ لها حيث تُعنى بترتيبه والحفاظ على نظافته».

أجاب شيامورا بغمغمة غير مفهومة.

«أوتدري، أن التحدُّث إليك ليس مُمتعاً على الإطلاق!

- وهل كانت تربط بينكما علاقة، أنت ورجل هاماماتسو؟

تدفّق جوابها على الفور:

«أوتظن أنني كنت لأتردّد لحظة واحدة لو كانت تربطني به أي علاقة؟ لا، غير أن إصراره بلغ به حدّ السعي لعرقلة زواجي من أيٍّ كان حتّى هنا. ويؤكد أنه سيبذل كلّ ما في وسعه للعرقلة.

ـ ولكنْ، مهلاً. ألا ترين أن هاماماتسو بعيدة جداً ولا يستطيع أن يفعل شيئاً من هذا القبيل؟ ومع ذلك كنتِ قلقة؟».

إذ استسلمت لدعةِ الدفء الذي سرى في جسدها، تمطّت كوماكو طويلاً، بانتشاء أرادت أن يدوم. وعندما أجابته أخيراً، كان كلامها ينمّ عن عدم اكتراث:

«ومع ذلك كنتْ أحسب أنني سأرزق مولوداً. أليس منتهى السخف؟...

وضعت قبضتيها على ياقة الكيمونو وانطوت على أطرافها مثل طفل يريد أن ينام. ومرّة أخرى انطلت على شيمامورا خدعة أهدابها الكثيثة الناعمة، إذحسبَ أن عينيها تنامان في نصفِ إغماضة.

ـ ٥ ـ

عندما استيقظ شيهامورا في الصباح رأى كوماكو مُستندةً بمرفقيها إلى الكوتاتسو، وبدت مُنهمكةً بخربشاتها على غلاف مجلّة قديمة.

«لن أستطيع العودة إلى المنزل، قالت له. لقد استيقظت حين أحضرت الخادمة الجمر. وكنا أصبحنا في وضح النهار. وأشعة الشمس متوهجة عند الباب. لقد أفرطت قليلاً بالشراب ليلة البارحة ونمت نومة أهل الكهف.

ـ كم الساعة الآن؟

ـ الثامنة.

ـ حسناً إذاً سنذهب للاستحمام، قال شيهامورا وقد نهض قافزاً من فراشه.

ـ أنا لن أذهب: فقد يلمحني أحد عند المدخل...»

كانت كأنّها جُبلت بمشاعر الرضوخ سواء في سلوكها أم في نبرة صوتها.

وما أن عاد شيهامورا من الحمام حتّى وجدها مُنهكمةً بتنظيف الغرفة بعناية بالغة وقد عصبت شعرها بمنديلٍ أضفى على مظهرها مسحةَ

أناقة. كانت تنفض الغبار برويّة عن قوائم الطاولـة والهيباشي(*)، ثمّ تضرم بيدها الحاذقة والخفيفة، نيران الجمر.

كـان شيامـورا مسترخيـاً في جلسته المـريحة يـدخّنُ بلا مبـالاة وقد دسّ قـدميه داخـل الكوتـاتسو. وعنـدمـا سقط رمـاد سيكـارتـه عـلى الأرضيّة تناولت كـوماكـو منديـلاً لتلمّه وأحضرت لـه منفضة سكـائر فأطلق ضحكة ابتهاج صباحي وضحكت كوماكو بدورها.

«لو أنّ لك زوجاً، قال لها، لما أقلعت لحظة عن تأنيبه.

ـ أوه! لا أبداً! الأحرى أن يسخر هو مني حيال إصراري على طيّ كلّ شيء حتى الثياب الداخلية المتسخة. فلا حـول لي في ذلك: لقـد ترعرتُ على تلك الخصال!

ـ يستـطيع المـرء أن يعرف كـلّ شيء عن امرأة مـا لمجرّد أن يلقي نظرةً واحدة على دُرْج صوانها».

كـانا يتنـاولان طعام الفـطور وأشعة الشمس تمـلأ الغرفـة ببهجـة أنوارها:

«إنّه نهار رائع! قالت. كان ينبغي أن أعود إلى داري لأعزف عـلى آلة الساميسن: فموسيقاها في طقسٍ مثل هذا تبدو مختلفة جدّاً».

رفعت عينيهـا نحو السـماء التي بدت صـافيةً كـالبلّور. وفي البعيد كـان الثلج الذي يكسـو الجبال متـألّقاً بـألوانـه الزبـدّية ورقيقـاً كأنّـه يحتجب خلف غلالة من دخان أبيض.

(*) مدفأة صغيرة (مصنوعة من الخزف أو الخشب) تُستخدم لتدفئة اليدين.

لم يتردّد شيهامورا، بَعدَ ما أسرّت به إليه المدلّكة، في أن يدعوها للعزف على آلة الساميسن، في غرفته. فسارعت كوماكو إلى الاتصال هاتفياً بمنزلها وطلبت أوراق موسيقاها والآلة وشيئاً ترتديه لتُبَدِّل ثيابها.

هكذا إذاً، قال شيهامورا في سرّه مُتكاسلاً، إنّ الدارة القديمة التي رآها ليلة البارحة مجهّزة، برغم قدمها، بهاتف خاص. . . وتراءت له عينا الفتاة الأخرى، نظرتها: يوكو الشابة.

«ـ أهي تلك الفتاة الشابة التي ستحضر لك ما تحتاجين؟
ـ ربّما جاءت هي بالفعل.
ـ والابن، إنّه خطيبك؟
ـ كفى! ولكن متى علمت بالأمر؟
ـ أمس.
ـ يا لك من رجلٍ غريب الأطوار. . . إذا كنت تعلم بالأمر منذ البارحة، فلماذا لم تقل لي شيئاً بهذا الشأن؟».

كانت تردّد تقريباً كلام البارحة نفسه، سوى أن نبرتها لم تكن عدوانية، لا بل على العكس من ذلك: فقد خالطت صوتها لكنة استرخاء ومازجته ابتسامة عريضة.

«لو كنتُ أقلّ حِرصاً على احترام الآخرين لكان أسهل عليّ أن أطرق مثل هذه الأمور، قال شيهامورا بلهجة واثقة.

ـ وأنا، كم أودّ أن أعرف حقيقة الأفكار التي تراودك في أعماقك. آه! أترى، لذلك لا أحب أهل طوكيو!

ـ أرجوكِ، لا تبدّلي الموضوع، وتعلمين جيّداً أنّك لم تجيبي بعْدُ عن سؤالي.

ـ ولم أسعَ لتجنّبه. وهل صدّقت ما قيل لك؟

ـ أجل، صدّقت.

ـ إنها كذبة أخرى. فأنت لم تصدّق بالفعل، أليس كذلك؟

ـ الحقّ يُقال أنني لم أصدّق كلّ ما قيل. ومع ذلك فإنّ الرواية التي سمعتها تؤكد حقيقة أنك أصبحت فتاة غيشا لتوفير تكاليف العلاج.

ـ من يَسمع كلّ هذا يحسب أنّها رواية مبتذلة. ولكنّ هذا غير صحيح. لم أكن يوماً خطيبته وإن شاء الناس، كما يبدو، أن يصدّقوا. ولمزيد من الدّقة أخبرك أنني لم أصبح فتاة غيشا بقصد إعانة أحد. غير أن هذا لا يعني أنني لست مَدينة لوالدته بالكثير، ومن اللائق بالطبع أن أبذل كلّ ما في وسعي.

ـ أهو لغزٌ أم ماذا؟

ـ لا بالطبع، وسأطلعك على كلّ شيء. فما من خفايا أو أسرار. يبدو من المؤكد الآن أنّ فكرة زواجي منه قد راودت الأمّ ذات يوم. إلاّ أنها لبثت فكرة ليس أكثر ولم تطلع أحداً عليها على الإطلاق. وكنا، أنا والابن، نرتاب بما يدور في خلدها، وفي آخر الأمر ظلّت الأمور على حالها. والحقيقة أن شيئاً آخر لم يحدث. هذه كلّ الحكاية.

ـ يمكن القول إنها صداقة طفولة.

ـ بالضبط. ثمّ ترعرعنا منفصلين. ومع ذلك لم يرافقني أحدٌ سواه إلى المحطة عندما أرسلوني إلى طوكيو كي أصبح فتاة غيشا. لقد دوّنت ما حدث في ذلك اليوم في أول صفحةٍ من دفتر يوميّاتي.

ـ لو أن الحياة لم تفرّق بينكما لكنتما الآن زوجاً وزوجة.
ـ لا، لستُ واثقة ممّا تقول.
ـ ومع ذلك، أحسبُ أن زواجكما كان ليتمّ.
ـ من جهته هو لا جدوى من إحساسه بالأسى لأنّ زواجنا لم يتمّ. أيامه أصبحت معدودة.
ـ ألا تعتقدين، برغم ذلك، أنّ من الخطأ أن تقضي لياليك خارج البيت؟
ـ الخطأ هو أن تطرح عليّ السؤال. ثمّ كيف لرجلٍ مُحتضر أن يثنيني عن التصرّف كما أشاء؟».

لم يجد شيامورا ما يردّ به عليها. ولكنْ لماذا تتكتم كوماكو إذاً بخصوص يوكو وتُغفل أي ذكر لها؟ يوكو التي رآها في القطار تحوط المريض بعناية أمومية. يوكو تلك التي اعتنت به كما تُعنى أم بطفلها، تُرى كيف تكون أحساسيها لو كانت هي مَن سيحضر الكيمونو والآلة لكوماكو، كوماكو التي تربطها صلاتٌ لم يعرف حقيقتها بعدُ، بالرجل الذي عادت به إلى بلدته.

عندئذٍ غرق شيامورا، كعادته في معظم الأحيان، في لجّة أفكاره الغامضة.

«كوماكو! كوماكو!»

رصين وعميق وواضح، كان ذلك صوت يوكو الرائع.

«شكراً لكِ، بالفعل، شكراً جزيلاً! قالت كوماكو بينما كانت تهرع لتلاقيها عند ردهة المدخل. لقد أحضرته بمفردك، أليس كذلك؟ لا بدّ أنّه كان ثقيلاً عليك».

ولم تلبث يوكو أن عادت أدراجها دون تريّث.

عندما أرادت كوماكو أن تنقر أوتار آلتها للتثبّت من صحة الدوزان انقطع وتر النغمة الحادة مباشرةً. ولم يَسَع شيمامورا لمجرّد أن رأى براعتها في تبديل الوتر ودوزنته إلاّ الإقرار بحسن دُربتها ودرايتها كعازفة. كانت قد وضعت رزمةً من كرّاسات الموسيقى على حافة الكوتاتسو: مجموعات من الأغاني في طبعات رائجة، وبجانبها نحو عشرين كرّاسة لتلقين الموسيقى وفق أساليب كينيا ياشيتشي القديمة وبعض المقطوعات الحديثة لتلقين العزف دون معلّم، وكان شيمامورا يقلّبها ويتفحّصها بفضول كبير.

«هل تعتمدين في عزفك على هذه الكراسات(*)؟

ـ وما حيلتي؟ لا أجد هنا من يستطيع تلقين العزف على الساميسن.

ـ وأستاذة الموسيقى التي تقيمين في دارها؟

ـ إنها مشلولة.

ـ ولكن ألا يسعها أن ترشدك بنصائحها إذا كانت قادرة على النطق؟

ـ إنها عاجزة عن النطق. ولم تبق لها سوى قدرة قليلة على استخدام يدها اليسرى، وبها ترشد تلاميذ الرقص إلى أخطائهم. ولعلّ أشدّ ما يؤلمها أن تسمع عزف الساميسن ولا تقدر على أي شيء آخر.

ـ وهل توصّلت فعلاً إلى العزف على الساميسن باتباعك هذه

(*) إنّ الكتابة الموسيقية اليابانية الكلاسيكيّة تتميّز بدرجة عالية من التعقيد.

الطرائق المكتوبة؟

ـ أنا أقرأ الموسيقى جيّداً.

ـ أحسب أن غبطة ناشر هذه المقطوعات ستكون كبيرة عندما يترامى إلى سمعه أن فتاة غيشا محترفة ـ وليس مجرّد مبتدئة في عالم المهنة ـ تعمل هنا، في هذه الجبال، انطلاقاً ممّا درسته من موسيقاه.

ـ خلال إقامتي في طوكيو كنتُ أودّ أن أصبح راقصة وتابعتُ تدريباً متواصلاً على الرقص: تمارين، دروس نظرية، وكلّ شيء. أمّا الساميسن فلم أحظ من أصول العزف عليه إلاّ بالمبادىء الأولية لا بل عَرَضاً. ولو حدث أن نسيت هذه المبادىء الأولية لما وجدتُ هنا مَن يقدر على تلقيني مجدّداً. ولذلك أحتفظ بهذه المقطوعات.

ـ والغناء؟

ـ لا أحبّ الغناء على الإطلاق. لقد اتقنتُ بعض الألحان التقليدية بالطبع خلال تدريبي على الرقص، وبإمكاني أن أؤدّيها بالطريقة الصحيحة. أمّا الألحان الجديدة فلا أعرف منها إلاّ ما أسمعه عبر الإذاعة، ولست واثقة من معرفتي الصحيحة بالفروقات بينها. آه! أعرف جيّداً أن ادائي الشخصي لهذه الألحان قد يدفعك للسخرية منّي! والحقيقة أنّ صوتي يخذلني دائماً عندما أغني لمن أعرفه جيّداً. أمّا أمام الغرباء فيبدو أفضل بكثير ويصبح قويّاً واثق النبر».

بدت حائرة قليلاً فأغضت بشيءٍ من الارتباك، ثمّ رمقته بنظرات مَنْ ينتظر، كأنها تقول له إنها أصبحت مستعدّة لسماعه وليس عليه إلاّ أن يبدأ، هو، بإنشاد الأغنية التي يشاء.

كانت نظراتها تلك قد أربكت شيمامورا الذي لا يمتلك لسوء الحظ

أي موهبة غناء. فهو من المهتمّين بقضايا المسرح والرقص ويعرف كلّ ما يتعلّق بموسيقى ناغوتا ويكاد يحفظ غيباً كلَّ العروض الغنائية على مسارح طوكيو، إلاّ أنّه لم يسبق له أن درس الغناء، وفي ظنّه أن ترتيل «القصائد الطوال» ينتمي إلى فن الإنشاد المسرحي الموقّع ويتلاءم وأداء الممثلين أكثر بكثير مما قد يتلاءم وفن الترفيه، الأكثر صميميّة، الذي تمارسه فتيات الغيشا.

«ألأنّ السيّد يتمنّع عن الغناء؟ قالت كوماكو في شبه دعابة إذ مطّت شفتها بمشاكسةٍ محبّبة فيما أسندت الساميسن إلى ركبتها واستغرقت بنظرات ثابتة، كأنّها استبدلت بشخص آخر للتوّ، في تفحُّص كرّاس النوطة المفتوح أمامها.

ـ هذه هي المقطوعة التي أنكبّ على دراستها منذ موسم الخريف» قالت.

وراحت تعزف لحن كانجينشو.

وعلى الفور سرت رعشةٌ في جسد شيماموا، حتّى حسب أنّ تياراً كهربائياً قد مسّه فتفشّت به قشعريرة حتّى خدّيه. وبدا له أنّ أولى النغمات تجوّف أحشاءه وتفسح فيها فراغاً حيث يتردّد، واضحاً وصافياً، رنين الساميسن. كان ما ينتابه أشدّ من الدهشة: إنّه الذهول الذي كاد أن يودي به، أن يُفقده الرشدَ مثل ضربة مُحكمة. كان مذهوباً في ما يشبه الإجلال الخالص، مُستغرقاً، لا بل غارقاً في لجّة بحر من الحسرات، مُشفقاً، تائهاً، عاجزاً عن المقاومة، ولا يجديه إلاّ أن يلوذ بتلك القدرة التي تتقاذفه وأن يستسلم أعزلَ ومغتبطاً لأهواء كوماكو، ولها أن تفعل به ما تشاء.

ولكن مهـلاً؟ فهي ليست في آخر الأمـر سوى فتـاة غيشا ريفيّـة، إمـرأة لم تبلغ بعد عـامهـا العشرين: ولا يُعقـل أن تكـون بمثـل تلك البراعة! لم تكن الحجرة حيث يجلسان واسعـة ولكنْ أما كـانت تعزفُ بالادعاء الذي قد يُـرافق عزف المحـترف في صالـة كبيرة؟ وإذ تملّكـه سحـرُ الأشعار الـريفيّة، استسلم شيـمامورا لحلمـه. كانت كـومـاكـو تـواصل إنشـادهـا بنـبرة أرادتهـا رتيبـة، مـردِّدةً بعض المقـاطـع ببطء متعمّد، غافلةً عن بعضها الآخر لصعوبة مـطالعها أو رتـابتها. ولكن سرعان ما استسلمت بدورها لمثل ذلك الاسترسال، مستغرقة في نوع من ثمالة الافتتان. وكان إنشادها الجسـور يُغرقُ شيـمامورا في مـا يُشبهُ الـدوار، فيقـاوم استســلامـه لــه إذ لا يعـرف إلى أين ستفضي بــه الموسيقى، فيتظاهر باللامبالاة والبُعد وقد أسند رأسه إلى راحة يده.

استعاد طلاقة أفكاره بعد أن توقف الغناء. «إنها تحبّني، هذه المرأة واقعة في غرامي». إلّا أن تلك الخاطرة قد أزعجته.

سرّحت كوماكو أنظارها في السماء الصافية فوق الثلج. «إنّ النغمة تكـون مختلفة تمـاماً في مثـل هذا الـوقت». وبالفعـل، فقد كـان بذخ الـرنين ومـرتبته النغميـة على أفضـل ما يكـون كما ألمحت. وكم كـان الإطار مختلفاً أيضاً، في تلك العزلة الحميمة بعيداً عن معوقات المدينة وزخـارف الخشبة، بعيـداً عن جـدران المسرح والجمهـور، في صحـو ذلـك النهار الشتـوي، في قلب شفافيـة البلّور تلك، حيث كان بلّور الموسيقى وكأنّه يبث إنشاده الرنّان الصافي حتّى يصل إلى ذرى الجبـال المكسوة بالثلوج، هناك، في البعيد، عند حافة الأفق!

وكوماكو المستوحدة في انكبابها على دراسة الموسيقى في ذلك الركن

النـائي من منـطقتهـا الجبليّـة، ألم يتشبّـع كيـانها، ألم يغتــذ من تلك الينابيع الساحرة والطاقات الكامنة لـطبيعة بـاذخة الفضـائل تتـواصل معها ولو من غير قصد؟ الطبيعة البرّية الهائلة لمنطقة أعلى الوادي. ألا تعثر عليها في عزلتها بالذات، في قوّة إرادتها التي لا تلين والتي تمنحها القدرة على تحمّل المشقّات؟ عـلى الرغم من معرفتها بـالمبادىء الأوليـة للعـزف، فإن الاعتـماد على النـوطة المكتـوبـة لعـزف تلك المـوسيقى الصعبـة، والإنكباب عـلى دراستها كـما فعلت والتوصّـل إلى عـزفهـا غيباً، لا بدّ أن تكون أمارة على صنيع الإرادة التي لا تلين.

جهـدٌ ضائـع تلك الطريقـة في الحياة. طـاقةٌ تبـدّد هدراً. عبث. تلك كـانت قناعـة شيامـورا، ولكن من أعماق ذاتـه كـان يُصغي إلى النداء الصامتِ المُلحّ الذي يستثير تعـاطفه من عمق ذلـك الاشفاق. ومع ذلك، كان شيامورا يودّ أن يقـول في سرّه، إن تلك الطريقـة في الحياة لم تبدّد شيئاً من مسحة القداسة، لا بل التألّـه، التي تستمدّهـا من الساميسن.

وربّمـا كان شيـامورا، في حسـاسيته المفـرطة لـلانفعـال المـوسيقى وجهله المطبق بالبراعات التقنّية البحتة، السميع المثـاليلعزف كوماكو؟

عـلى أيـة حـال كـانت بـدأت معـزوفتهـا الثـالثـة، الميـاكـادواي. وشيامورا الغارق في عذوبة تلك الموسيقى المُبهجة والرقيقة، شيامورا الذي تراخت في كيانه رعشة المسّ الكهربائي واستحالت دفقـاً داخلياً شهيَّ الـدفء، شيامـورا المُكتنف بإحسـاسٍ عميق بالالفـة الحسيّة، رفع رأسه ونظر إلى كوماكو مُستغرقاً في تأمّل وجهها.

بـدا أنفها الـدقيق الأقنى، برغم مسحـة اليُتم التي تلازمـه عـادةً،

كـأنّه استعـاد في ذلك اليـوم بعضاً من بهجتـه إذ يكتنفه لـون الخدّين المُشرق والحـار. كأنّ الأنف يقـول: «أنـا هنـا أيضـاً!» وعـلى طـرف شفتيها اللحيمتين المُطبقتين بـروعة كـأنهما برعم زهـرة، كانت تتـلألأ قبساتُ نور، وعندما تنفرجان لينطلق الغناء فإنما هنيهةً ثمّ سرعان مـا تطبقان مجـدداً كبرعم. لقـد كانت حـركتهما المثيرة التي لا تنقبض إلاّ لكي تُرخى بمزيدٍ من الاستسلام والفتنـة، أفضل مـا يُعبّر عن حـركة جسـدها بـالذات، إذ يتصلّب لشوانٍ لكي يستعيد عـلى الأثر الأنـوثة الشهـوانية لصبـاها الجميـل. وكان بـريق نظراتهـا، الرقراقة الـبراءة، اللامعة، يبـدو صبيانيـاً. ولا تزال عينـاها عيني فتـاة صغيرة، لا بـل عيني طفلة، ولهـما إشراق اللون الطبيعي لفتـاة جبليّة وسـاذجة، تحت قناع الوجه الصقيل لفتـاة الغيشا من أهـل المدن. أمـا بشرتها فكـأنّها أملس من رقيقـات البصـل المقشّر للتـوّ، أو، بـالأحـرى، هي أشبـه ببصيلة الزنبق تخالطُ رقّتها مسحةً من لـونٍ زهري يفشـو حتى النحر. وكلّ هذا يفوح بضوع الهفهفة.

كانت كوماكو التي حافظت على استقامة جلستها فبدت أصغر سنّـاً بكثير، قد بدأت بمعزوفة لم تحفظها غيباً بتمامها فراحت تستعين بقراءة النوطة. وعندما انتهت منها دسّت الريشـة بين الأوتـار ببراعـة عازف محترف. ولم تلبث أن تبدّلت حركاتها فاستعادت ليونتها الفاتنة، وتلك التلقائية الخفيّة التي تُكسبها مَسحةً من الإغواء.

كان شيمامورا يحاول عبثاً أن يجد مـا يقولـه، إلا أن كومـاكو بـدت وكأنها لا تبالي كثيـراً بمعرفـة رأيه حـول طريقتهـا في العزف. وكـانت تُبـدي بوضـوح إحساسهـا بالـرضى عن نفسهـا دون أن يخالـطه أي تواضع زائف.

«أبإمكانك أن تعرفي، معرفة قاطعة، ولمجرّد السماع، أيّاً من فتيات الغيشا هي التي تعزف، عندما تسمعين لحناً من ألحان الساميسن؟

ـ الأمر ليس صعباً: لا يوجد هنا سوى عشرين فتاة غيشا أو بالكاد. ومع ذلك فأنّ هذا الأمر مرهون قليلاً بالمعزوفة نفسها: فبعض الألحان تكشف، بطبيعة أسلوبها عن شخصية العازف أكثر من سواها وهكذا. .».

وعندئذٍ وضعت آلتها على الأرض ومدّت ساقيها جانباً بحيث أسندت طرفه الأبعد إلى ربلة ساقها وقالت في لهجة مُداعبة:

«هكذا يُمسك الصغار بالآلة». قالت له موضحةً وقد انحنت على الساميسن كأنها فتاة صغيرة جداً. وانشدت كطفل، بصوت حاد مرتجف: «سوا ـ وا ـ وا ـ والشعر».

ـ «أهي أوّل أغنية تعلّمتِها؟»

ـ «أشل(*) ـ اشل»، أجابت مواصلةً لعبتها في تقليدها البارع للفتاة الصغيرة التي كانتها عندما كانت لا تزال عاجزةً عن الإمساك كما ينبغي بالآلة الكبيرة ذات الأوتار الثلاثة.

(*) أجل. أجل.

- ٦ -

أصبحت كوماكو لا تحاول المغـادرة عند الفجـر عندمـا تمضي ليلتها في غـرفة شيـمامورا. ومـا لبث أن تـرامى إلى سمعهـا صـوت طفـولي يناديهـا: «كوماكو! كومـاكو!» بنبـرةٍ عذبـة: إنها ابنة مـالكي الدارة، طفلة (لم تبلغ العامين بعد) كانت كاماكو تلهو معهـا في الكوتـاتسو ثمّ تصحبها إلى الحمّام عند الظهر.

في ذلك الصباح كانت كومـاكو تسرّح لهـا شعرهـا بعد الاستحـمام وتثرثر:

«كلّما رأت فتاة غيشا تنـاديها «كـوماكـو» بصوتهـا الطفـولي ولهجتها المضحكة. وعندما ترى صورة امرأة ذات تسريحة تقليديّة عالية، فهي أيضاً «كوماكو». الأطفال لا يخطئـون أبداً: إنهم يعـرفون من يُحبهم! «تعالي بسرعة يا كيمي، سنذهب لنلعب عند كوماكو!».

كانت جاهـزةً للرحيل وابتعـدت عن الكوتـاتسو، إلاّ أنّها تـوقّفت على الشرفة، متكاسلةً، وراحت تنظر إلى الخارج.

«يا لمخبولي طوكيو أولئك! يتزلجون في مثل هذه الساعة!»

كانت الشرفة تطل على حقول الثلج ناحية السفح الشمالي للجبل.

التفت شيمامورا الذي لم يغادر الكوتاتسو ليرى: مساكب من الثلج تتوالى على ساحة السفح المُنْحَدِر، وخيـال خمسة أو ستّـة أشخاص في ثياب التزلّج ينحدرون بخطوط متعرّجـة من حقلٍ إلى حقـل إذ بدت الحيـطان الوطيئـة التي تفصل بـين الحقول مكسـوة بـطبقـة رقيقـة من الثلج. كأنّ المتزلجين دمى غريبة ومثيرة للضحك.

«أيكون اليوم الأحد؟ أحسب أنهم طلّاب، قـال. أتراهـا رياضـة مُسليّة...

«هم ليسوا من المبتدئين بأية حال، قـالت كومـاكو وكـأنها توضـح هذا الأمر لنفسها. إن سيّاحنا لا يخفون دائماً دهشتهم عندمـا تبادرهم فتاة غيشا بالتحيّة في ساحات التزلج: كـأنهم لا يتعرّفـونها تحت هالـة الثلوج. فهم لا يـرون الغيشـا إلاّ وقـد غـطّت وجههـا بـالمسـاحيق البيضاء، عند المساء.

- أترتدين البنطال والسترة الخاصين بالتزلج؟

- لا، أرتـدي الهاكـاما الفضفـاض. كم هو مُـرهقٌ موسم التـزلّج هذا! إذ يلـحّ الزبائن الذين نلتقيهم ليلاً في النزل على اصطحـابنا في اليـوم التالي لمـمارسـة التـزلّـج. أعتقـد أنني سـأرفض دعـواتهم هـذا الشتـاء... والآن، هيـا، ينبغي أن أغـادرك. هـلاّ أتيت يـا كيمي؟ يبدو أنّ الثلج سيتساقط بغزارة هذا المساء فالبرد شديد. هنا، يُصبـح البردُ شديداً في الليلة التي تسبق تساقط الثلوج».

كان شيمامورا قد جاء إلى الشرفة ليشاهد كوماكو وهي تعبر الدرب المنحـدر بشدّة أسفلَ الحقول المكسوة بالثلوج وتقود الصغيرة بخطواتها الحذرة المتأنّية.

كـانت الغيوم تـزداد كثافـةً في السماء وخلفَ الجبـال التي أصبحت غارقةً في الـظلال انبسقت جبال أخـرى لا تزال مكلّلة بهـالةٍ ضيـاء. وكـان الترجُّـح في لعبة الـظلّ والضياء يتكشّف عن مشهـدٍ جليدي، وسرعان ما اكتنفت العتمة كلّ السـاحات المخصّصـة للتزلّـج. كانت مسلّات الجليد تحت طنف السقف لا تزال تقطر ماءً، ولكنّ شيمامورا لاحظ حين نظر نحـو الأسفل، أنّ تلك القـطرات لا تلبث أن تتجمّد على الأقحوان الذي أذواه الصقيع تحت نافذته.

لم يأت المساء بالثلوج بل باعصار بَرَدٍ أعقبه مطر متواصل وبَرْد.

عشيـة رحيله استدعى شيـمامورا كـوماكـو لقضاء الأمسيـة الأخيرة معه. كانت ليلة مقمرة بردُها قارس. ولكنّ كوماكـو ألحّت عليه نحـو السـاعة الحـاديـة عشرة لاصـطحـابهـا في نـزهـةٍ وأرغمتـه عـلى تـركِ الكوتاتسو.

كان الدربُ صلباً تحت الجليد والبلدة غـارقةً في سباتها تحت سـماء الصقيـع. وكانت كـوماكـو قد رفعت أطـراف الكيمونـو ودسّتها تحت الأوبي؛ وبـدا القمر كنصـل مغـروز في كتلةٍ من الجليـد يشـع بـبريق فولاذي أزرق.

«لنتـابع السـير حتّى المحطة، اقـترحت كومـاكو بحـماسـة لا تقبـل التردّد.

ـ ويحك، هذا جنون مطبق! المحطة تبعد تقريباً كيلومترين ذهاباً!

ـ ولكنّك ستغادر قريباً إلى طوكيو، أليس كذلك؟ سألت بإلحـاح. إذاً لابأس من الذهاب لنشاهد المحطّة قليلاً».

سارا وأحسّ شيامورا بلسع البرد من مؤخر عنقه حتّى أصابع القدمين.

وما أن عادا إلى الغرفة حتّى تهالكت كوماكو في مكانها، صامتةً، مطرقةً ينتابها القنوطُ وقد دسّت ساعديها داخل الكوتاتسو. ولسبب ما رفضت أن ترافق شيامورا إلى الحمّام.

عندما عاد ألفاها مكتئبةً مُرهقةً تقتعد الأرض بجانب الفراش الذي وُضع بحيث يكون طرفُه، عند قدمي النائم، داخل الكوتاتسو. ولم تتفوّه بكلمة واحدة.

«ما الأمر؟

ـ أريد أن أعود إلى البيت.

ـ إنّها نزوة سخيفة!

ـ استلق على فراشك. سأمكث جالسةً بعض الوقت هنا.

ـ ولكنْ لماذا تريدين العودة إلى بيتِك؟

ـ لن أعود. سأمكث على هذه الحال حتّى الصباح.

ـ هيّا لا تكوني معقّدة على هذا النحو!

ـ لست معقّدة، على الإطلاق، لا، لا.

ـ إذاً؟

ـ ذلك أني . . . حائض».

ضحك شيامورا

«أهذه هي المشكلة؟ فليكن، سأدعك تنامين دون أن أتحرش بك.

ـ لا، لا أريد.

ـ أوتحسبين أنّ المشكلة تزول حالما تغادرين عَدْواً إلى طـرف البلدةِ الآخر.

ـ سأغادر. . . أنا عائدة إلى بيتي.

ـ لا أجد سبباً لذلك.

ـ آه! ليس بإمكاني القول إنّ الأمور بمثل هذه السهولة! عليـك أن تغادر إلى طوكيو. ولا أستطيع أن أرضخ لهـذا الأمر بسهـولة!» قـالت وقد حنت رأسها فوق الكوتاتسو.

أهـو شجن الإحساس بـالوَلَـه أو الارتباط العميق حـين لا يتعدّى الأمر مجرّد علاقة بسائح؟ أم هي قسوة الكتمان، حين لا يكـون البوحُ ممكنـاً في مثل تلك الحـال؟ المهمّ، تلك كانت حـالُها! فكّـر شيمامـورا الذي مكث صامتاً هو أيضاً.

«أتوسّل إليك: عد إلى طوكيو!

ـ في الحقيقة كنت عازماً على الرحيل صباح الغد.

ـ مـاذا؟ أوه كـلّا! . . . لن تـرحـل، ليس هنـاك مـا يـدعـوك إلى الرحيل، أليس كذلك؟»

كـانت قد انتفضت في جلستهـا كمن يستيقظ مذعـوراً من النوم، وارتسمت في عينيها بوارق ذهول لا يخلو من الزيغ.

ـ مـا الـذي يسعني لأجلك أكـثـر من أن أُطيـل إقـامتي هنـا مـا استطعتُ؟».

حدّجته كوماكو بنظرةٍ ثابتة، ثمّ صرخت في وجهه بغتة:

«لا يحق لك أن تخاطبني بمثل هذا الكلام! أوه، لا! ما الذي يدفعـك إلى قول هذا؟»

ونهضت بحركة مفاجئة وطوّقت عنقه بذراعيها.

«لا يليق بك أن تقول مثل هذا الكلام! هيّا، انهض! قلتُ لك انهض!»

كان سيلٌ من العبارات المُبهمة يتدفّق من شفتيها بعد أن أرخت ذراعيها وارتمت إلى جانبه وقد غفلت تماماً، في غمرة انفعالها، عن العائق الطبيعي الذي ألمحت إليه قبل ذلك بقليل.

وبعد قليل فتحت عينيها مجدّداً وطالعته بنظراتٍ دامعة ودافئة.

وإذ بدت منهمكةً بجمع الشعيرات التي سقطت منها على الفراش، بحركة آلية من يدها قالت بنبرة واثقة:

«ينبغي أن ترحل غداً، بالفعل».

وكان صوتها رائقاً ونبرتها مطمئنة.

في صبيحة اليوم التالي، كان شيمامورا الذي سيغادر في قطار الساعة الثالثة، مُنهمكاً في تبديل ملابسه، ما بعد الظهيرة بقليل، عندما نادى صاحب النزل كوماكو عند الباب وحدّثها في الرواق.

«ويحك!... سنقول إنّ المجموع بلغ إحدى عشرة ساعة».

كان ذلك صوت كوماكو، وأدرك أن حديثهما يدور حول أتعابها كفتاة غيشا والتي بلغت في الحقيقة ست أو سبع عشرة ساعة، وذلك ربّما ما وجده صاحب النزل كثيراً. وفي آخر الأمر اتفقا أن يتمّ الحساب على أساس التوقيت: «من يُغادر في الساعة الخامسة» أو «من

يغـادر عنـد منتصف الليـل» ولم تُحتسب كـلّ الخـدمـات الليليـة غـير المعتادة.

ثمّ رافقتـه كومـاكو إلى المحـطّة وقد ارتـدت عبـاءة وغـلالـة وجـه بيضاء.

وبعد أن تسوّق عدداً من الهدايا الصغيرة ليحملها معه إلى طـوكيو لم يبق أمامه سوى عشرين دقيقة قبل انطلاق القطار، فراحـا يتنزهـان في الساحة قبالة المحطّة وغرقَ شيمامورا في أفكاره مُستغرقـاً في تأمّلهـا وفي ضيق ذلك الوادي الصغير في وسط الكتلة الهائلة للجبال المكسوة بالثلوج. كأنّه جيب ظلال، حفرة مستوحـدة بين العـزلات الريفيّـة! وشعـر كومـاكو الـذي يدجّيـه السواد كـان يوقظ في كيـانه رعشـةً من الاثارة والحزن الهينّ.

كـانت الشمس تُلقي أشعّـةً بـاهتـة، هنـاك، عـلى أحـد سفـوح السلسلة الجبلية، صوب تدفّق مياه الشلّال الموغلة في البعيد.

«لقـد تعاظم ذوبـان الثلوج منـذ أن حللتُ هنـا، قـال شيـامـورا مُسرّحاً أنظاره الساهية صوبَ الجبال.

ـ أوه! يكفي أن تُثلج ليومين وستبلغ كثـافة الثلوج المـترين وأزيد! ثمّ لا بدّ أن تثلج مجدّداً، وسرعان ما يغطي الثلج تلك المصابيح التي تـراها هنـاك. أما أنـا فسأواصـل نزهـاتي في هذه النـاحيـة يستغـرقني التفكير فيك، وسيُعثَر عليَّ وقد شنقتُ نفسي بإحدى هذه الخطوط!

ـ أحقاً تبلغ كثافة الثلوج هذا المقدار؟

ـ يُحكى أنّ تلاميذ إحـدى المدارس، في البلدة المجـاورة، يقفزون

عراةً من غرف النـوم في الطبقـات العليا وبـإمكانهم أن يسـيروا تحت طبقات الثلج المتراكم، يحجبهم علوّها كأنّهم يسبحون تحت الماء. آه! انظر إنّها طرّادة ثلج!

ـ كم أودّ أن أرى ثلوجـاً بهذا العلو، قـال شيامـورا بنبرة إسرار. ولكن أحسب أنني عندئذٍ لن أجد غرفة شاغرة في النزل، كما قد تُقطع الطريق بسبب الأجرف الثلجية.

ـ أنت لا تعاني أيّ مصاعب مالية، أليس كذلك؟ولطالما استطعت أن تنفق المال الذي تنفقـه؟ سألتـه وقد تـوقفت عن السير بغيـة تأمّـل وجهه. لماذا لا تبقي على شاربيك؟

ـ لقد فكّرت مراراً في الأمر»، قال شيامـورا بعد أن لامس بـراحة يده ظلال لحيته الحليقة الزرقاء فبدا أثر الشاربين أعلى شفته كأنّه يُبرز نعومة خدّيه. أهذا ما يُثير كوماكو؟ قـال في سرّه، ثمّ مازحهـا قائـلاً: «أنت أيضاً تبدين حليقة الذقن عندما تزيلين قشرة المساحيق والذرور عن وجهك.

ـ أوه! اسمـع! الغربـان(*). . . كم تستطيـع الغـربـان أن تكـون مفجعة! . . . تُرى أين هي. برّررر! يا للبرد! . . . . »

كانت ترتعد وتحتضن كتفيها وأنظارها تسعى في قبّة السماء.

«لندخل إلى ردهة الانتظار ونجلس قرب المدفأة؟ اقترح شيامورا، وفي الأثناء رأيا طيفاً بالهاكاما الفضفاض يهرع في اتجاههـما على الجـادة الموازية للطريق المؤدّية إلى المحطة.

ـ كوماكو! يوكيو. . كوماكو! نادت يوكـو لاهثةً ثمّ تشبّثت بهـا كما

(*) سماع الغربان: نذير موت.

يتشبث طفلٌ مذعور بأمّه. كوماكو! أسرعي، أسرعي إلى البيت! على الفور! يوكيو في أسوأ حال! أسرعي!»

أغمضت كوماكو عينيها جرّاء صدمة ذلك الجسم الذي ألقى بنفسه عليها مُتشبثاً بكتفيها والذي ربّما أوجعها. وامتقع وجهها. ومع ذلك هزّت رأس الفتاة بيديها وقالت في صلابة مذهلة:

«لا أستطيع أن أذهب الآن. أنا في صحبةِ زبون».

مكث شيمامورا مذهولاً.

ـ ليس محتّماً عليكِ أن تمكثي معي حتّى انطلاق القطار، قال مُعترضاً.

ـ ولكنّك تغادرني، ومن يدري متى أراك مجدّداً؟

ـ سأعود. من المؤكد أنني سأعود. أعدك بذلك».

ودون أن تصغي إلى حديثهما، قاطعتهما يوكو بصوت متهدّج:

«لقد اتصلت بالنزلِ على الفور. فقيل لي إنّك في المحطّة فهرعتُ إلى هنا بأسرع ما أمكنني لا ألوي على شيء. يوكيو يريد أن يراك. إنّه يسأل عنك، قالت بإلحاحٍ وقد تشبّثت بكوماكو التي صدّتها بنفاد صبر:

ـ دعيني وشأني!»

ولكن هي التي ترنّحت وقد انتابتها نوبة فواق مفاجئة استطاعت أن تتمالكها بعد أن أبقت شفتيها مطبقتين. وترقرقت عيناها بالدموع واقشعرّت بشرة خدّيها.

كانت يوكو، مُتصلّبةً وساكنة، تحدّج كوماكو بنظرات ثابتة، وكان

وجهها الجامد كقناع يتّسم بوقارٍ يصعب القول فيه أنّه وقار الذهول أو القلق أو الغضب. وجه رأى فيه شيهامورا صورة النقاء والبساطة المدهشة.

ودون أن تبدّل شيئاً من تلك الملامح التي ارتسمت على وجهها، استدارت يوكو وتشبثت بشيهامورا:

«أرجو منك المعذرة، ولكن دعها تعود إلى البيت، أرجوك؟ قالت بصوت مكتوم كأنه حشرجة، دعها تعود!

ـ بالطبع، هيا! صرخ شيهامورا. كوماكو! يجب أن تعودي إلى البيت حالاً. لا تكوني حمقاء!

ـ وما شأنك أنت؟» قالت كوماكو محاولة ابعاد يوكو التي كانت لا تزال متشبثة بذراع شيهامورا.

كانت سيّارة أجرة تقف أمام بوّابة المحطّة وحاول شيهامورا أن يلفت انتباه السائق بإشارة من يده إلّا أنّ يوكو كانت تتشبث بذراعه وتشدّ عليها حتّى أحسّ بتنمّل في أصابعه.

«ستعود في سيارة الأجرة، قال مخاطباً يوكو. هلّا ذهبت أنت الآن؟ لقد بدأ المارة يتساءلون عمّا يدور بيننا».

وافقت يوكو بإشارة من رأسها ودون أن تتفوّه بكلمة راحت تبتعد بخطوات متسارعة بينما مكث شيهامورا مذهولاً، حائراً في أمر تلك الفتاة التي طالما بدت له عاقلة ورصينة، وحائراً في أمرِ نفسه إذ تراوده أفكار مماثلة في مثل ذلك الموقف.

وخُيّل إليه أنّ ذلك الصوت لطالما تردّد في أذنيه بجماله المُذهل حتّى

الكآبة، وأنّه يسترجع صداه الحيّ من كنفِ الجبـال البعيدة، المكسـوة بالثلوج.

«ماذا تفعل؟ إلى أين تذهب؟ قالت كوماكـو محاولـةً صدّ شيـيامورا الذي أوقف سيّارة الأجرة وحاول الاقـتراب منها، لا، لا، لا أريـد! عبثاً تحاول: لن أعود إلى البيت».

للحظات أحسّ شيامورا، حانقاً، ببعض النفور الجسدي حيالها.

«أجهل تماماً ما حكايتكم أنتم الثلاثة، قال. ولكنّ هذا الرجل قد يكـون عـلى الـرمق الأخـير في هــذه اللحـظة بـالـذات. ألم تـأت لاصطحابك لأنّه سأل عنك؟ لأنه أراد أن يراك؟ إذاً كوني لبقةً قليـلاً واذهبي إليـه. وفكّري جيّـداً قبل أن تتصرفي فـربّما راودتـك مشاعـر الندم طوال حياتك لأنّـك رفضت العودة! فقـد يلفظ أنفاسـه في هذه الأثناء... هيا، لا تكوني عنيدة. إنسي واغفري!
ـ«إنسي واغفـري»؟ ما الـذي تحسب أنّك تعـرفه؟ أنت لا تعـرف شيئاً. لا تعرف شيئاً على الإطلاق.
ـ حسنـاً. ولكن حين غـادرت إلى طوكيـو لم يصحبك إلى المحـطة أحدٌ سواه. ألستِ أنتِ من أخـبرني بذلـك؟ والآن أوتحسبين أنّـه من الـلائق أن ترفضي الـوداع الأخير لمن دوّنتِ اسمـه في الصفحة الأولى من الدفتر الأوّل من يومياتك، كما أخبرتني أمس؟ من جهته لا بدّ أنّه الآن في السطور الأخيرة من الصفحة الأخيرة في حياته!
ـ بلى، ولكنْ لا أريد أن أراه. لا أريد أن أرى رجلاً يموت».

أكـان دافعها إلى ذلـك مجرّد قسـوة قلب أم، على العكس، هـوى مفرط؟ بين تفسيرين مكث شيامورا حائراً.

«لن أقوى بعد الآن على متابعة تدوين يـومياتي. ولم يبق لي إلاّ أن أحرقها»، قـالت في شبه همس، كـأنها تحدّث نفسهـا. ثمّ أردفت وقد اصطبغ وجهها بحمرة مبـاغتة: «أنت رجـل عطوف، أليس كـذلك؟ رجل طيب وبسيط بالفـطرة، أليس بلى؟ لأنّـك لو كنت هـذا الرجـل بـالفعل لما تردّدت في ارسـال دفاتـر يوميـاتي إليك. ولكن لا تسخـر منّي. . . لا، أعلم يقينـاً أنّـك صـاحب قلب نبيـل، ومخلص وغـير مخادع».

اعترت شيامورا مشاعرُ عطف وبدا عاجزاً عن فهم ذلك الانفعال الذي تملّك كيانه. لم يشكّك لحظة واحدة باستقامتـه المُثلى، وبسـاحة قلبه التي لا تنضب: ولا ريب في أنه يـرى إلى نفسه عـلى أنّها الشرف مجسداً فلا يسعه إلاّ أن يكون الرجل الأكثر استقامة في العالم. أمـا عن رغبته في إقناع كوماكو، فقد نسي الأمر تماماً، وأصبح لا يبالي سـواء عادت إلى البيت أم لا. أمّا كوماكو فقد لزمت، من جهتها، الصمت.

دنـا منهما أحـد مستخـدمي النـزل ليقـول لهـما أنّ في استـطاعتهـما الانتقال إلى الرصيف.

وهنـاك كان أربعـة أو خمسة قـرويين، في ثيـابهم الشتويـة الداكنـة والكئيبة، يصعدون إلى القطار أو ينزلون منه.

«لن أصحبك إلى الرصيف. إلى اللقاء!».

ومكثت كوماكو هناك، تنظر إليه من خلال زجاج النافذة المغلق في ردهة الانتظار. وبدت، عبر زجاج نافذة المقطورة، كأنها فاكهة غريبة تُعرضُ، لسبب غامض، في واجهـة أحد الحـوانيت المحليّة البـائسة، وعندما انطلق القطار لاحت لثوانٍ خاطفـة انعكاسـاتُ صورة غـائمة

على نافذة ردهة الانتظار: وجه كوماكو الذي لاح كوميض ثمّ سرعان ما تلاشى. وكان لعقيق خدّيها، وقد أصبح وهماً، بـريق مماثـل لذاك الذي التمع في مدى الثلج الباهر في المرآة الصباحية. ومرّة ثانيـة كان ذلك في عيني شيمامورا حلول اللون الذي يأذِن بوداع العالم الحقيقي.

سار القطار صُعُداً صوبَ السفح الشمالي للسلسلة الجبليّة ثمّ توغّل داخل النفق الطويـل. وعندمـا غادر النفق من الجهـة الأخرى كـانت الضياء الغائمة لبعد ظهـيرة ذلك اليـوم الشتوي قـد غارت في جـوف الأرض المُعتم. أما عربات القطار المقعقعـة فكأنها خلّفت في عبـورها النفق خِلْعتها من الملاّح والثلج. كـان القطار يـواصل سـيره انحداراً نحو الوادي حيث الظلمات التي وشّاهـا الأصيلُ تمـلأ الوهـاد إذ تلوحُ بـين القمم الشاهقـة المتراصفـة. وما من أثـر للثلوج بعدُ عـلى ذلـك المقلب من الجبل.

تواصل الدربُ على امتداد النهر ليصل إلى السهل بعـد حين. وإذ ارتسم مشهده الجانبي ذو الهندسة العجيبة من أبراج وسهامٍ ومتاريس على خطّ الذُرى، كان الجبلُ باذخاً يبسط منحـدراته الجميلةَ متعـرّجةً حتى خواصره الأبعد حيث يتـألّق القمر بضيـاء الساعـات الأخيرة من النهار. كانت تلك نقطة ارتكاز النـظر الوحيـدة ولا شيء سواهـا على مـدى الرتـابة المُضنيـة للسهل القـاحل. ومن السـماء المتناسقِ ذَهبُهـا ينبثقُ، كاملاً ومميّـزاً، ذلك الـطيف الهائـل للجبلِ المنقـوش في كتلةِ الأرجوان الحادّ. وكان القمرُ الذي فقد خفوت إضاءتـه أوانَ النهار لا يـزال، مع ذلـك، باهتـاً فلم يلتمع بـذلـك الـبريق المُـرتعش الـذي تُضفيها عليه شفـافية الليـالي الشتويـة الدامسـة. كانت السـماء مدىً

راكداً ليس فيه رقّة جناح. ولا شيءَ، ناحية اليمين أو ناحية اليسار، يُعكّر صفو الأفق المرسوم بظلام الجبال البعيدة، وحتّى آخر التموّجات الدقيقة التي تختم مداه رشيقةً ومتطاولةً حتّى النهر الذي يُباغتُ النظر بالمبنى المربّع الأبيض على ضفافه: إنها بالتأكيد محطّة لتوليد الطاقة الكهربائية. كان ذلك المبنى آخر الأشكال التي تجمع إليها كلّ ما يخلّفه النهار من فضلاتٍ في ثنايا المشهد الكابي، تماماً كما يرتسمُ، كئيباً، في إطار النافذة في ذلك القطار الشتوي.

ثمّ شيئاً فشيئاً راح غبش التدفئة يغطي زجاج النافذة وكلّما ازداد الغبش كثافة تلاشت في الخارج خطوطُ السهل المتوالية. وعاودت لعبة المرآة كما تعاود الأشياء إلى الأبد، عاكسة، هذه المرّة، على صفحتها غير الصقيلة أخيلة المسافرين القاتمة. لم يكن القطار، بعرباته الثلاث أو الأربع المقعقعة التالفة، من طراز تلك القطارات السريعة التي تُسيّر على الخطوط الرئيسية الكبرى: والمسافر فيه يحسب أنّه يستقلّ قطاراً من بلدٍ آخر، غريب. أمّا الإضاءة فكانت صفراء خافتة.

مستسلماً لأحلام اليقظة وضباب مخيّلته، كان شيامورا يحسبُ نفسه مُسافراً في الخرافة، تدفعه المقادير نحو «الفراغ» الأبدي الكبير، خارج الزمان والمكان، تقلّه عربةٌ خارقة. وعلى وقع العجلات المقعقعة الرتيب، ترامى إلى سمعه وئيداً صوت المرأة التي غادرها للتوّ. وبرغم نبرته المتقطّعة المتهدّجة، كان كلامها يعني على الأقل أنّه صوت حيّ وممتلىء وحقيقي. وأدرك شيامورا لفرط ما كان يؤلمه سماعه، أنّه لم يستطع أن ينساه. ولكن في أذن الرجل الذي يبتعد عنها في تلك

اللحظة، في أذن شيامورا المسافر، كان الصوت إيّاه يتبدّد في مسافة البعاد ولا يوقظ فيه سوى المزيد من كآبة الأسفار.

من يدري إذا كان يوكيو قد لفظ أنفاسه الأخيرة؟ ومن يدري إذا استطاعت كوماكو التي كانت لها أسبابها الخاصة لرفضها العودة إلى البيت، أن تصل، برغم كل شيء، في الوقت المناسب؟

كان المسافرون قلّة في عربة القطار فأحسّ شيامورا بشيء من الضيق. كان لا يرى، إلى جانبه، سوى رجل على مشارف الخمسين وقبالته تجلس قروية شابة تحدّثه منحنيةً وكأنها تحرص على أن لا يفوتها شيء من حديثه إليها ومن أجوبتها عليه. كانت تغطي كتفيها اللحيمتين القويتين بشالٍ أسود وكان لخدّيها حمرةٌ برّية، رائعة. فقال شيامورا في سرّه: إنهما زوجان على سفر طويل.

ولكن ما أن توقّف القطار ـ وكان يمكن للناظر أن يرى من المحطّة مداخن مصانع الغزل الشاهقة ـ حتّى نهض الرجل على عجل ولم يحمل من شباك الأمتعة سوى سلّة رمى بها عبر باب العربة إلى الرصيف.

«إلى الملتقى! صرخ مخاطباً القروية الشابة ومُسرعاً نحو الباب، قد نلتقي ذات يوم!».

كان شيامورا يودُّ لو يبكي. لقد فاجأه الموقف المستجدُّ في غمرة ما ألمّ به من حيرة وشتات وأعاده كلام الرجل إلى رشده: لقد ودَّع كوماكو وها هو القطار يعود به إلى طوكيو.

مجرّد لقاء، بمحض المصادفة، في القطار. أحد الاحتمالات التي لم تخطر له للحظة واحدة. فقد يكون الرجل من الباعة الجوّالين.

-٧-

فيما كان يُعدّ العدّة لمغادرة طوكيو بغيةَ قضاء عطلة جديدة في الجبل مطلع الخريف، سمع شيمامورا زوجته توصيه بأن لا يدع ملابسه معلّقة على حائطٍ أو مشجب، وأردفت قائلة: «في مثل هذا الموسم تبيضُ فراشات الليل».

فراشات الليل. لقد رأى الكثير منها في النزل فعلاً: جاثمة على المصباح الذي يزيّن طنف السقيفة عند المدخل. أحصى ستاً أو سبعاً منها، فراشات كبيرة الحجم ولونها يميل إلى صُفرة الذرة. وفي الردهة صادف واحدة أخرى أضأل حجماً ولكنّها منفوخة البطن وثقيلة حتّى بدت بجناحيها الضعيفين بائسةً مثيرةً للضحك.

كانت النوافذ لا تزال مجهّزة بشبكيّات الصيف التي تصدّ البعوض. وعندما دنا منها شيمامورا رأى فراشةً على إحداها، ساكنةً من غير حراك كأنها عَلِقَتْ في الدبق. كان زبانياها منتصبين مثل خيطين دقيقين من الصوف ولونها بلونِ قشرةِ الأرز أمّا جناحاها فكانا شبه شفّافين يميلان إلى الخضرة الباهتة، وطويلين كأصبع امرأة. كان حجاب الجبالِ، في الخلفية البعيدة، قد أسدَل مروحة ألوانه الخريفية الوفيرة تحت أشعة الشمس المائلة للمغيب. توشيات من الصُهبة

والصدأ لم يرَ شيماورا حيالها في تلك المَسْحة من الأخضر الحيي إلاّ صبغة الموت إيّاه. ولم يلبث الأخضر أن أصبح كثيفاً حين أرخي الجناحان المزدوجان على جانبي الجسمِ الضئيلِ المرتعش في نسائمِ الخريف مثل أوراق خفيفة.

اقترب شيماورا مُتسائلاً عمّا إذا كانت الحشرةُ ميتة ونقر بأنملة شبكية المنخل الرقيقة، ولكنّ الحشرة لم تتحرّك، وعندما ربّت قليلاً عليها سقطت الفراشة كما يسقط ورق الشجر اليابس، خفيفة ومترجّحة في سقطتها، تهبط وتعلو قبل أن تلامس الأرض.

قُبُلاً، أمام صفّ أشجار الأرز، كانت غمامةٌ من اليعاسيب تتراقص مع الريح وتتقاذفها النسائمُ مثل قنازع ثمرة الهندباء. والمياه المتدفّقة من الشلال كأنها تنبجسُ من أعلى أغصان الأرز.

أمّا بساط الورود المفضّضة التي فرشها الخريف على سفوح الجبل، فلن يرتوي النظرُ منها حتّى لو مكث العمر في تأمّلها.

عندما عاد من الحمّام صادفَ عند المدخل إحدى أولاءِ الروسيّات البيض اللواتي يمارسن البيعِ الجوّال «أنصادفهنّ في كل مكان، حتّى هنا في الجبال؟» قال مندهشاً ودنا منها.

كانت في الأربعين من عمرها بالتأكيد. لها وجه مجعّد ومترب، ولكن ما عدا الوجه، أي عند العنق والنحر، وكذلك الذراعين واليدين، كانت بشرتها رقيقة صقيلة البياض نقيّته.

«مِنْ أين أتيتِ؟ سألها شيماورا.

ـ من أين أتيتُ؟ من أين أتيتُ؟» ردّدت في حيرةٍ من أمرها كأنّها لا تعرف بماذا ستجيب. ثمّ راحت تقلِّبُ بضاعتها الرخيصة: بضائع

يابانية رخيصة الأثـمان، مستحضرات تجميل، أمشـاط زينة ومشـابك شعر مبتذلة.

لم يكن في ثوبها الذي بدا كقطعة قماش مُتّسخة، اكتفت بلفّه حول جسمها، ما يجعله شَبَه الثوب الغربي بل، على العكس لعلّه اكتسبَ، مع الوقتِ، شيئـاً من طابـع الزيّ اليـاباني. إلاّ أن ذلـك لم يَحُل دون انتعالها الحذاء الغربي.

جـاءت زوجـة صـاحب النـزل ووقفت بجـانب شيـامـورا إلى أن غـادرت المرأة الـروسيّة، ثمّ صحبتـه إلى غرفـة المكتب. أمام المـدفأة كـانت تقف امرأة وقـد أولتهـا ظهـرهـا فلم يـرَ منهـا سـوى منكبيهـا العريضين وما لبثت أن استأذنتها بالمغادرة وخرجت من الغرفة ممسكةً بيدها طرف الكيمونو الأسود الباذخ الذي ترتديه. ومع ذلك استطاع شيـامورا أن يتعـرّف وجهها: لقـد تذكّـر أنها فتاة غيشـا وسبق له أن شاهد صورتها، في صحبة كوماكو، على ملصقٍ دعائي؛ كانتا تنتعلان أحذية التزلّج وترتديان الهاكاما الجبلي فوق كيمونو المناسبات. ولاحظ أنها تقدّمت قليلاً في السنّ إلا أنّ قوامها الممتـلىء تحت الكيمونـو كان يضفي على مشيتها مسحةً من النُضج والعذوبة.

كان صاحب النزلِ مُنهمكاً بتسخين قطع كبـيرة من الكعك فـوق جمر المدفأة، فالتفت نحو شيامورا قائلاً:

«أترغب في بعضٍ منها؟ لقـد جاءت بهـا فتاة الغيشـا التي غادرت للتوّ احتفاءً بانتهاء مدة عقدها.

ـ إنها تعتزل المهنة إذاً؟

ـ أجل.

ـ تبدو فتاة لطيفة، أليس كذلك؟

ـ لقد كان الجميع يحبّها. وها هي اليوم تقوم بجولتها الوداعية».

بعد أن نفخ عليها قليلاً قضمَ شيهامورا بشهيّة ظاهرة قطعة الكعك التي فتّت قشرتها الحامضة قليلاً وخلّفت في فمه رائحة عفنٍ خفيف.

كانت حمرةُ ثمار الكاكي الناضجةِ تبدو، عبر النافذة، متألّقةً في أنوار الغروب. وكان ألقها مثل وهجِ حريق يتعاظمُ انعكاسه على قصبِ الجيزايكاجي(*) المعلّق فوق المدفأة.

«آه! ما أطول هذا الخيزران! صاح شيهامورا تعجّباً، عندما رأى عجوزين تسيران على الدرب المنحدر وعلى ظهر كلّ منهما حزمة من الخيزران الذي يبلغ طوله ضعفَ قامتهما وتبدو حروفه المدبّبة كأنها قنازع أعوادٍ مُستقيمة.

ـ إنه خيزران بلادنا، قال صاحب النزل، خيزران الكايا.

ـ الكايا الحقيقي؟

ـ أجل. لقد قامت إدارة السكة الحديد، لمناسبة معرض منتجعات الينابيع الحارّة بتشييد نزلٍ ريفي على الطراز القديم، وقد فُصِلَت جدران مقصورة الشاي فيه من كايا جبالنا. وأعتقد أن رجلاً من طوكيو قد اشتراه كما هو.

ـ الكايا الحقيقي؟ تعجّب شيهامورا مُجدّداً بصوتٍ خفيض. هذا إذاً ما يجعل سفوح الجبالُ مفضّضةً على هذا النحو؟ لقد ظننتُ أنّها أنواع من الورود. . .»

(*) معلاق للمدفأة ذات الشكل المربّع المركوزة في الأرض حيث تُضرَمُ نيرانٌ متوقدة.

ذلك أنّ أوّل ما استلفته فور نـزوله من القـطار كان ذلـك البساط الأبيض المُفضّض الرائع إذ يتـألّق على السفـوح تحت أشعة الشمس، حتّى إنّ النـاظر إليـه يحسب لشدّة تـألقه أن سيـول الضيـاء الخـريفي تتدفّق على سويةِ الأرض. وكانت بهجة منوّرة تنبثق من تلك الروعة، فأينع شيء مـا في داخله خفيةً: كـأنه صـوت تبريـك يهمسُ في روعه قائلاً: «آه! ها قد وصلت أخيراً!»

ومع ذلك بدت له أعواد الخيزران المحـزّمة فـوق ظهر العجـوزين مختلفةً جداً، حتى كاد لا يصدّق أنها نفسها تلك النبوت المُدهشة التي تزيّن البساط السحـري. كانت أعـواد الخيزران مجمـوعةً في حـزمات كبيرة تكاد تحجب الجسدين الضامرين، أمّا أطـرافها المـدبّبة فتجـرجر فـوق حصى الدرب الـوعر وتكنسـه من غير عنـاء، بقنـازعهـا الأثيثـة الصلبة.

عندما وصل إلى غرفتـه كانت الشمس تميـل للمغيب. ولم يبق من الضيـاء سوى غبش بصيص يُنـير الردهـة فرأى، عـلى اللكّ الأسـود لعـلاّقة مـلابسه، الفـراشـة ذات البـطن المنتفـخ وهي تضـع سُبْحـة بيضها. سمع صوت ارتطام حشرات بالمصباح المعلّق تحت السقيفـة. وكـان إنشـادُ حشرات الخـريف الألف متـواصـلاً لم يكتمـه غـروب الشمس.

وصلت كوماكو متأخرة قليلاً.

تردّدت قليلاً عند العتبة محدّجة شيمامورا بنظرات ثابتة:

«مـا الذي أعـادك إلى هذه النـاحية؟ ولمـاذا تأتي لـلإقامـة في مكان مماثل؟

ـ جئتُ لأراكِ.

ـ ما تقوله لا يعبّر عمّا يجول في رأسك. إنّ أهل طوكيو يكذبون دائماً ولذلك لا أطيق رؤياهم».

ثمّ جلست وقالت بنبرةٍ أرقّ:

«لن أصحب أحداً إلى المحطّة بعد اليوم. ولا أريد أن أخبرك بما حلّ بي عندما رأيتك تغادر!

ـ هذه المرّة سأرحل دون أن أعلمك برحيلي.

ـ ولكن لا. كنتُ أقصد أنني لن أصحبك إلى المحطّة.

ـ وهو، ماذا حلّ به؟

ـ لقد مات بالطبع.

ـ مات أثناء وجودك في رفقتي؟

ـ هذا ليس هو السؤال. لم أكن أعلم أن وداعاً مماثلاً قد يكدّرني إلى هذا الحدّ».

مكث شيمامورا صامتاً وأجابها بحركةٍ من رأسه.

«أين كنت في ١٤ شباط؟ لقد انتظرت قدومك. ولكنّي أعرف الآن ما قيمة وعودك...»

يوم ١٤ شباط يوافق يوم «صيد الطير»، وهو عيد للأطفال تعدّ له العدّة باتقان تعبيراً عن الروحية السائدة في بلد الثلوج. قبل حلول العيد بعشرةِ أيّام يَعمَدُ صبيان البلدة إلى تكديس الثلج تحت جراميقهم المصنوعة من القشّ حتّى يصبح كثيفاً وصلباً فيُصار إلى تقطيعه مكعّبات يبلغ ضلع الواحد منها ذراعين، ثمّ يستخدمون تلك المكعّبات في تشييد «قصر الثلج» الذي يبلغ ارتفاعه عشر أقدامٍ وضلعُ مربّعه ثماني عشرة قدماً. وبما أنّ أهل الوادي يحتفلون بعيدٍ رأس السنة في الأيام الأولى من شهر شباط تكون أبواب المنازل

الخارجية لا تـزال إذذاك مزينـة بشرائط القش، وفي يوم ١٤، ينـزعها الأولاد عن الأبواب ويجمعونها ليضرموا فيها نيران الابتهاج أمـام قصر الثلج. وهكذا يمضون في صياحهم وتدافعم ويرقصون متحلّقـين على السـطح منشدين أغنيـة «صيد الـطير» تحت وهج النـيران الأحمر. ثمّ يختتمون ليلتهم داخل قصرهم على ضوءِ شمعـة. وعند بـزوغ الفجر يستأنفون حلقة رقصهم وانشادهم على السطح، ولا ينتهي الاحتفـال بعيد «صيد الطير» إلاّ في صبيحة ١٥ شباط.

ولأن العيد يُصادف في أوج موسم الثلوج، كان شيمامورا قـد وَعَد كوماكو بالعودة في ذلك اليوم لمشاهدة الاحتفال.

«لقـد كنت في إجـازة طـوال شهـر آب، لازمت خـلالهـا البيت. وتعمّـدت أن أكون هنـا في ١٤ منـه لاعتقـادي أنّـك ستـأتي... لـو علمت أنك لن تأتي لمكثت هناك إلى جانبها!

ـ مريض آخر؟

ـ أستاذة الموسيقى، هنـاك ناحيـة الساحـل، لقد أقعـدها التهـاب الرئة. استلمت برقيّتها أثناء إجازتي وأشفقت لحالها، فذهبتُ لأمكث في جوارها هناك.

ـ وهل تعافت؟

ـ لا.

ـ إنّه أمرٌ مؤسف»، قـال شيمامـورا دون أن يتضح إذا كـان كلامـه يُعـبّر عن أساه لمـرض الاستـاذة أم عن أسفـه لعـدم إيجـاد العبـارات الملائمة لموقف مماثل.

عند سماعها تلك العبارة أطرقت كوماكو قليلاً. ثمّ تناولت منـديلاً ومسحت الغبار عن الطاولة. «إنّه غـزو الحشرات!» قالت. وبـالفعل

فقد مَسحَت بمنديلها عدداً هائلاً من الحشرات الضئيلة المجنّحة. وحول المصباح كان عددٌ من فراشات الليل يُحوِّم ويدور. أمّا شبيكة النافذة المعدنية فقد كانت مكسوةً بالفراشات من كلّ نوع كأنها تعوم في ضياء القمر الشاحب.

«آه، معدتي! تأوّهت كوماكو ودسّت يديها تحت حزام الأوبي وانحنت تسندُ رأسها إلى ركبة شيماورا. معدتي تؤلمني».

دنت حشراتٌ أضأل حجماً وقواماً مِنْ أضأل بعوضةٍ وحطّت على مسحوق الزينة الأبيض الذي يكسو عنقها. ورأى شيماورا عدداً منها يموتُ على الفور.

لاحظ شيماورا أنّ كتفيها قد أصبحتا أكثر استدارة وبدا عنقها أكثر امتلاء، وتذكّر أنها أصبحت في مطلع العام الواحد والعشرين من عمرها. وأحسَّ فجأةً كأنَّ دفئاً رطباً يسري في ركبته.

«اذهبي يا كوماكو لإلقاء نظرةٍ على «غرفة الكاميلية»! وبدوا مغتبطين في غرفة المكتب. كم أمقت هذه الطريقة في الكلام. كنتُ غادرت كيكويو للتوّ طلباً للراحة والنوم عندما جاء من يُبلغني أنهم تلقوا اتصالاً من النزل وأن هناك من يطلب حضوري. لم أكن راغبة في المجيء: فمساء أمس أقيم احتفال وداعي لكيكويو وأفرطت في الشراب. وفي المكتب ضحكوا كثيراً ورفضوا أن يخبروني مَن الذي يطلب حضوري. فأصعد وأجدك أمامي، أنت! بعد انقضاء سنة كاملة... أوتكون من طينة أولئك الرجال الذين لا تتاح رؤيتهم إلاّ مرّة واحدة كلّ عام؟

ـ لقد قدّموا لي قطعةً من الكعك الذي أحضرته.

ـ لك أنت؟»

استقامت كوماكو في جلستها بغتةً وبدا أثر احمرار على خدّها في موضع استناده إلى ركبة شيمامورا، ما جعلها أشبه بطفلٍ أجفلته المفاجأة.

لقد رافقت كيكويو، فتاة الغيشا التي اعتزلت المهنة، بعضَ رحلتها في القطار، حتّى المحطّة التالية، قالت له. «يا لكآبة حالنا! كنّا في الماضي على أحسن حال، وكنّا نتدبّر الأمور فيما بيننا بالتراضي. ولكنّ الحياة تبدّلت هنا! وكلٌّ واحدة منّا تزداد إحساساً بالأنانية والأثرة. هناك دائماً فتيات مُستجدّات في المهنة فلا يُعنى أحد بأحد. سوف أفتقد كيكويو كثيراً. فلولا حضورها لما سارت الأمور هنا على خير ما يرام. حتّى صاحب النُزل كان يكنّ لها كلَّ المودّة ولكن بعد انتهاء مدّة العقد كان لا بدّ لكيكويو أن تعود إلى ديارها.

- هل عادت إلى ديارها بقصد الزواج أم أنها عازمة على افتتاح نزلٍ أو مطعم لحسابها الخاص؟ سأل شيمامورا.

- إن حكايتها كئيبة! لقد تزوجت في البداية وكان زواجها فاشلاً، وبعد ذلك جاءت إلى هنا»، رَوَت كوماكو ثمّ توقّفت عن الكلام كأنها تسأل نفسها إلى أيّ حدّ يمكنها أن تسترسل في رواية التفاصيل دون أن تخون عهدَ الكتمان. ثمّ راحت تقلّب نظرها، لبعض الوقت، بين السماء المقمرة وحقول الثلج المترامية عند سفح الجبل. «ألم يستلفتك من قبل ذلك النزل المشيّد حديثاً عند منتصف الدرب المنحدر؟ سألته.

- إنه مطعم، أليس بلى؟ ويُسمّى الـ «كيكومارا» على ما أذكر.

- بلى، صحيح. لقد شيّد خصيصاً من أجل كيكويو التي بدّلت رأيها في اللحظة الأخيرة. وقد حضرت أقنية خاصة لجرّ المياه الحارة من هنا. كانت تعمل آنذاك لدى رَجُلٍ أراد أن يبني تلك الدارة

خصّيصاً من أجلها. ولكن حين أنجز البناء وأصبح جاهزاً للانتقال إليه، تخلّت عن كلّ شيء! كانت قد أحبّت رجلاً وأرادت أن تتزوجه ولكنّ الرجل غادر فجأة وهجرها. أحَتْمٌ على المحبّين دوماً أن يُخلّ بهم عندما يتولّهون بغرام أحدهم؟... المهمّ، أنها أصبحت لا تستطيع العودة إلى ربّ عملها السابق بغية استرداد المطعم الذي سبق أن رفضت الانتقال إليه رفضاً قاطعاً. وبعد كلّ الذي جرى لها لم يبق أمامها إلاّ أن ترحل عن هذه البلدة لشدّة ما شعرت بالعار. كان عليها أن ترحل لتبدأ حياتها من جديد في مكان آخر، لتبدأ مجدّداً من الصفر. مسكينة كيكويو! كم أشفق لحالها حين أتذكّر!... وفضلاً عن ذلك يبدو أنّ ثمة رجالاً آخرين في حياتها، وإن كانت تفاصيل تلك العلاقات لا تزال طيَّ الكتمان ولا أحد يعرفها...

ـ رجال؟ وكم عددهم؟ خمسة، أو ربّما أكثر؟

ـ إنه السؤال الذي يراودني دائماً، أسرّت كوماكو مغضيةً قليلاً وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة حَرَج. لم تكن كيكويو منزَّهةً عن الضعف... لا بل يمكن القول إنها الضعف مجسّداً.

ـ طبعٌ مثل طبعها، مَن يدري؟ ربّما كانت مغلوبة على أمرها...

ـ ربّما، ولكنْ أيُعقَل هذا؟ لا يُعقل أن يفقد أحد صوابه لمجرّد أنّه أعجب رجلاً ما، قالت كوماكو ساهمةً وقد أغضت مُتلهيّةً بتسريح خصلةٍ من شعرها قبل أن تعيد مشط الزينة إلى موضعه في تسريحتها العالية. على كلّ حال، لم أستطع أن أتقبّل رحيلها بسهولة!

ـ ولكنْ ماذا عن المطعم؟

ـ لقد تولّت ادارته زوجة الرجل الذي بناه.

ـ رائع، إنه حقاً رائع: الزوجة الشرعيّة تُديرُ مطعم العشيقة...

ـ وهل لها أن تختار؟... كان كلّ شيء معداً للافتتاح. فكان على

الزوجة أن تنتقل وأولادها للاقامة فيه.
ـ والبيت الذي كانت تقيم فيه من قبل؟
ـ يبدو أن الجدّة هي التي تسكن فيه الآن. أمّا الرجل فهو مزارع لكنّه يحبّ اللهو كثيراً. إنّه رجلٌ مثير للاهتمام فعلاً.
ـ لا يصعب عليّ أن أتخيّل شخصاً مثله. أهو في سنّ متقدّمة؟
ـ لا أبداً، فهو لا يزال في ريعان شبابه. قد يكون في الحادية أو الثانية والثلاثين من عمره.
ـ إذاً كانت عشيقته أكبر من زوجته؟

ـ لا، أبداً: لقد كانتا، إحداهما كما الأخرى، في السادسة والعشرين.
ـ ألم ترغب الزوجة في تغيير اسم المطعم؟ فأنا أحسب أن الـ «كيكو» في «كيكومارا» مُشتقّة من كيكويو...
ـ بلى، ولكن بعد الحملة الدعائية التي رافقت الإعلان عن الافتتاح أصبح الأمر مستحيلاً».

إذ رأت شيمامورا يرفع ياقة الكيمونو، بادرت كوماكو مُسرعة إلى إغلاق النافذة.

«كانت كيكويو تعرف كل شيءٍ عنك. وهي التي أنبأتني اليوم بوجودك هنا.

ـ لقد التقيتها في الطبقة السفلية، في غرفة المكتب عندما جاءت لتقول وداعاً.
ـ وهل حدّثتك بشيء؟
ـ لا، على الاطلاق.

ـ أوتدري بمَ أشعر؟» قالت كوماكـو ثمّ فتحت النافـذة التي كانت أغلقتهـا للتـوّ وارتمت عـلى حـافتهـا كـأنها تـودّ أن تلقي بنفسهـا إلى الخارج.

لاحظ شيمامورا، بعـد هنيهات من الصمت، أن النجـوم هناك لا تشبه النجوم في سماء طوكيو:

«يحسب الناظرُ إليها أنها تُبحر على صفحة السماء.

ـ ليس في هذه الأمسية، بأية حال. فضوء القمـر ساطـع». قالت كوماكو معترضـة ثمّ أردفت قائلةً بعـد حين: «كم كـان الثلجُ غزيـراً هذا الشتاء!

ـ بلى، أحسبُ أنّه كان غزيـراً جداً لأنّ حـركة السكـة الحديـد قد توقّفت لبعض الوقت.

ـ وفي آخر الأمر أصبحت الثلوج المتراكمة ترعبني. ظلّت الطرقات مقفلة حتّى شهر أيار، أي مـدّة أطول من المعتـاد بشهر كـامل. وتلك الـدارة التي جُعِلت حانـوتاً قـرب ميادين التـزلّـج، أتـذكـرهـا؟ لقـد اجتـاحها جـرفٌ وأودى بالـطبقة الأولى منهـا. ظنّ الناس في الـطبقـة السفلى حيث كانوا مجتمعين أنها غزوة جرذان جائعة اكتسحت مـطبخ المبنى إذ بدا الصوت الذي سمعوه غريباً جداً. لكنّ المنطقة خالية من الجـرذان، وعندمـا صعدوا وجـدوا أنّ الجرف الثلجي قـد أودى بكلّ شيء ولم تبق في الـطبقـة نـوافـذ أو أبــواب. ولحسن الحظ أنّ الأمـر اقتصر على انزلاق ثلجي طفيف ولم يسبّب جرفاً ضخماً. ولكنّ أجهزة الإعـلام ضخّمت الحادثـة فأثـارت ذعر هـواة التزلّـج. ولم يأت منهم سـوى أعداد ضئيلة. أمـا أنا فقـرّرت الامتنـاع عن مـزاولـة التـزلّـج

وأهـديت أدواتي قبل نهايـة العام. ومـع ذلك لم أتـوقف عن مزاولتهـا كلّياً، فربّما فعلت مرتين أو ثلاثاً. هل تغيّرت كثيراً؟

ـ وماذا فعلت بعد وفاة أستاذة الموسيقى؟

ـ ولماذا اهتمامك بمشاكل الآخرين؟ عـدتَ إلى هنـا وانتـظرت عودتك طوال شهر شباط.

ـ مـا دمتِ قضيتِ ردحاً من الـوقت في المنطقـة الساحليـة، لماذا لم تكتبي لي رسالة؟

ـ أوه! لم يكن في مُستـطاعي، لم يكن في مستطاعي حقـاً أن أكتب لك ذلك النـوع من الرسـائل التي ربّمـا وقعت بين يـدي زوجتك! لا أقدر أن أحمّل نفسي مثل هذا العبء كما لا أقدر أن أكـذب لاعتقادي بأنّ هناك ربّما من يسمعني».

لـم يسـع شيمامـورا حيال ذلـك السيل المتـدفّق من الكـلام إلاّ أن يُطرق سَمَعاً. لقد كانت الكلمات تتدفّق من فمها مثل سيل حقيقي.

«قـد يكون من الأفضـل أن تطفىء الأنـوار، قالت في النهـاية. إذ لست مجبراً على مكابدة جحافل البعوض...».

كان القمرُ ساطعاً من ورائها، وأنواره تهدّبُ أذنيها بظلال واضحة وتنسكب قُدُماً في أرجاء الغرفةِ، فتنوّر الحصائر بمياه خضراء باردة.

«لا. أريد أن أعود إلى داري لو سمحت.

ـ لا يبدو لي أنَّك تغيرت».

وإذ رفع شيمامورا رأسه تراءت له مسحـة غرابـة في ملامحهـا فراح يحدّق في ذلك الوجه ذي الأنف الأقنى.

«يُقال لي دائماً إنني لم أتبدّل منذ قدومي إلى هذا المكان. ولكن يبنغي ألّا ننسى أنني كنتُ لا أزال في السادسة عشرة من عمري. وإذا كانت الحياة هي دوماً الحياة، إلّا أنّ الزمن يمضي».

كانت بشرتها الدافئة تحفظُ من الطفولة الريفيّة لوناً، إلّا أن ضياء القمر كان يوشي المساحيق المتقنة على وجه فتاة الغيشا بلألاءِ أطيافه.

«وهل أخبروك أنني انتقلت للاقامة في مكان آخر؟

ـ لا، وهل غادرت عليّة دود القزّ؟ منذ وفاة أستاذة الموسيقى؟ والآن، أتقيمين في دارة خاصة بفتيات الغيشا؟

ـ دارة خاصة بفتيات الغيشا؟ إذا شئت، بلى... فالحانوت لا يبيع سوى التبغ والسكاكر... وأنا فتاة الغيشا الوحيدة التي تعمل هناك. ولكنْ هذه المرّة أعمل بموجب عقد حقيقي: فعندما أرغب في القراءة حتى ساعة متأخرة من الليل لا أستخدم سوى نور شمعة، لكي لا يحْسَب ربّ العمل أنني أهدر التيّار الكهربائي».

انفجر شيامورا ضاحكاً وقد وضع كفّيه على كتفي كوماكو.

«أوتدرك ما أقصده، هناك عدّاد... وينبغي ألّا أفرط في استهلاك التيار الكهربائي(*).

ـ لقد فهمتُ! لقد فهمتُ جيّداً!

لكنّهم يعاملونني بلطف شديد، فعلاً، ويبلغ بهم حسن المعاملة حدّاً يجعلني لا أصدّق أحياناً أنني أعمل لديهم كفتاة غيشا. حتّى إذا علا صوت طفل بالنحيب سارعت الأمّ إلى حمله إلى الخارج لكي لا

(*) يندر أن تجهّز البيوت الصغيرة في الجبل بعدّاد كهربائي: والشائع أن تسدّد كلفة استهلاك التيار على أساس عدد المصابيح المستخدمة.

يـزعجني صراخه. وبـرغم أنّ منامتي هنـاك ليست أفضـل مـا تكـون المنـامة، إلّا أنني لا يسعني الشكـوى من أي شيء. وعندمـا أعـود في ساعة متـأخرة من الليـل أجد كـلّ شيء معدّاً في انتـظاري، وليس ما يكـدّرني سوى أنّ الفُـرُش لا تكون مـرتّبـة والشراشف غـير مـطويـة بعناية. ومع ذلك أجد أنّهم لطفاء للغايـة: فكيف لي أن لا أصرّ على ترتيب فراشي بنفسي؟

ـ صـدّقيني، لو كـانت لـك دارة خـاصـة بـك لصرفت عمـرك في تنظيفها وترتيبها!

ـ هذا ما يقوله الجميع. هناك يـوجد أربعـة أولاد صغار، ولـذلك تـرى الفوضى تعمّ المكـان. فأقضي نهاري في تـرتيب الأشيـاء، ألّمهـا وأضعها في مكانها مع يقيني التامّ أنّ الفـوضى ستستأنف مـا أن أغفل عنهم هنيهـة. ولكن مـا العمـل؟ لا أستـطيـع أن أبـدّل من خصـالي شيئاً. يجب أن يكون كـل شيء مُرتّبـاً من حولي، أو مـا أمكن. كأنها حاجة ملحّة. أتدرك ما أقول؟

ـ بلى، أدركه جيّداً.

ـ . . . ومـا الذي تـدركه، هـلّا أخبرتني؟ قـالت فجأةً وقـد بدت نبرتها مختلفةً، ملحاحةً وشديدة التوتر. لو كنت تفهمني لكانت الأمور أسهل ما يكـون. ولكنّك تـرى جيداً أنّـك كنت عاجـزاً عن الفهم. كـانت كذبـة أخرى! كثـير المال ضحـل القلب، هكذا أنت! أنت لا تفهم شيئاً ولا تستطيع أن تدرك. . .»

ثم خفضت صوتها لتضيف:

«أحيـاناً ينتـابني شعورٌ بـأنني وحيدة. ولكنني لست سـوى حمقاء. يجب أن تعود إلى طوكيو في الصباح الباكر!

ـ يسهل عليك توبيخي، أجابها شيمامورا. ولكنّ المستغرب أيضاً رغبتكِ في أن أفسّر لك حقيقة مشاعري!
ـ وما ضير ذلك؟ قالت في شيء من الأسى. كلّ ما في الأمر أنّه لمؤسف حقاً أن تكون غير قادر على ذلك».

ولا بدّ أن كوماكو قد سألت نفسها حين أغمضت عينيها: أيعرف من أكون؟ أيعرف من أكون حقّاً، كما أنا؟ ولا شكّ في أنها توصّلت إلى جواب إيجابي لكي تقول له ما قالته:

«عُدْ ولو مرّة واحدة في السنة! أقسم لي أنّك ستعود كلّ عام ما دمتُ هنا، هلاّ أقسمت؟

وأضافت أنّ مدّة عقدها أربع سنوات.

«لم أحسب يوماً أنني سأعود إلى مزاولة الغيشا بعد أن عدتُ إلى داري، أسرّت إليه. حتى أنني وهبتُ عدّة التزلّج قبل رحيلي. وأحسبُ أنّ النتيجة الوحيدة التي أحرزتها هي امتناعي عن التدخين.

ـ على ذكرِ التدخين، أذكر أنّك كنتِ مدخّنة شرهة.
ـ أصبحت أجمع السكائر التي يقدمونها لي في كم الكيمونو، وعندما أعود إلى البيت مساءً أجدُ أنني جمعت منها مجموعة متنوّعة.
ـ أربعة أعوام، قال شيمامورا، إنّها مدّة لا يُستهان بها!
ـ ستمضي بسرعة».

وماأن دنت منه حتّى احتضنها شيمامورا بين ذراعيه وقال مذهولاً:

ـ «يا لسخونة جسمك!...
ـ أنا دائماً على هذه الحال.

ـ مع هبوط الليل أعتقد أنّ الحـرارة ستنخفض وتنعمين بشيء من الطراوة.

ـ منذ أن حللتُ في هذه الناحية، منذ خمس سنوات، كنتُ أسـأل نفسي دائماً كيف سأعتاد على الحياة في مكانٍ مماثل... وخصوصاً قبل افتتاح خط السكّة الحديد. ثم ها قد مضت سنتان منذ مجيئك إلى هنا لأوّل مرّة».

وبـالفعـل كـان شيـامـورا قـد جـاء ثـلاث مـرّات خـلال السنتـين المنصرمتين، وفي كلّ زيارة له كان يلاحظ بعض التغييرات الجديدة في حياة كوماكو.

في الخارج كان جَـرَاد الكوتسـوواموشي(*) قـد شرع يُحدثُ جَلَبتـه الصاخبة.

«كم أودّ لـو أن انشاد الجراد أقلّ صخباً!» قالت كـوماكـو مُشيحةً بوجهها عنه.

طارت الفراشـات الجاثمـة على شبكيـة النافـذة عندمـا هبّت أولى نسائم الشمال.

كان شيامورا مُصيباً في ظنّه: إن أثاثة أهدابهـا توهمُ حـين تُغمضُ عينيها، بأنّها لا تزالان مفتوحتين. ومع ذلك فاجأه إصراره على النظر إليها عن كثب لمزيدٍ من التثبّت.

علا صوت كوماكو قائلةً:

«منذ أن أقلعت عن التدخين ازداد وزني».

(*) نوعٌ من الجراد الكبير الذي يُطلق عليه اسم (mecopoda elongaha).

وكـان لاحظ ذلـك: فقـدت بـدت بعض السمنـة عنـد استـدارة خصرهـا. لقد مضى وقت طـويل عـلى لقائهـما الأخير، وبـرغم ذلك سرعـان ما استعـاد شيامـورا في حضورهـا كلَّ تفـاصيل عـالمِ الأُلفةِ والحميمية الذي لم تخبُ جـذوته لكنّـه يتبدّد عـلى نحوٍ غـامض ما أن يبتعد عنها فلا يعود قادراً على استذكاره.

وإذ وَضعَت يديها مكوّرتين تحت نهديها، قالت كوماكو:

«لديَّ واحدٌ أكبر من الآخر.

ـ لا بـدّ أنّها عادة لـديه: دائـماً من الجانب نفسـه! قال شيـامـورا مُتهكّماً.

ـ أنت مقزّز فعلاً عندما تتلفّظ بمثـل هذا الكـلام! قالت كـوماكـو مغيظة فاطمأنّ شيامورا في سرّه إلى أنه وجدها أخيراً كما يعرفها.

ـ ليس لك إلاّ أن تقولي لـه في المرّة القـادمة ألاّ يؤثـر أحدهمـا على الآخر، أردف قائلاً:

ـ ألاّ يؤثـر أحدهمـا على الآخـر؟ أينبغي حقاً أن أوصيـه بـذلـك؟ ردّدت كوماكو قائلة وهي تُدني برويّةٍ وجْهِها من وجهه.

وعلى الرغمِ من أنّ الغرفة في الـطبقة الأولى، إلاّ أنها بـدت كأنّها في وسط مأوى للضفادع حيثُ تناهى إليها صراخُ بائعين مُتجـوّلين أو ثلاثة وأداء زمـارين أشداء الصـدور والأنفاس، كـأنّهم لا يبارحـون الجوار أبداً.

بعد عودتها من الحمّام، استرسلت كوماكو في بثٍّ متواصلٍ وكانت تتحدّث في استرخاءٍ ونبرةٍ هادئة. وتطرّقت إلى تفاصيل حميمة كزيارتها للطبيب الـذي دخلت عليه ـ لاعتقـادهـا بـأن الأمـور ستجـري كـما

اعتادت في مدرسة الغيشا ـ عارية الصدر فانفجر الطبيب ضاحكاً فيما راحت هي تنتحب وتذرف الدموع. وأشياء من هذا القبيل وكان شيمامورا لا يتوانى عن استدراجها للتحدّث عنها بأسئلته الكثيرة.

«بإمكاني الاطمئنان إلى دقّة الروزنامة: بالضبط شهر إلاّ يومين، كلّ مرة.

ـ ومع ذلك أحسب أنّكِ، مع ذلك، لا تفوّتين ولو أمسية واحدة. ؟

ـ هذه أمور تستطيع أن تدركها، أليس كذلك؟

كانت تستحمّ كلّ يوم في مياه النبع الحارّة، وكم هي رائعة تلك المياه وفوائد سخونتها المنشّطة المتواصلة. وكلّ يوم تقطع المسافة إلى النبع ومنه والتي تبلغ أربعة كيلومترات تقريباً سيراً على الأقدام سواء قصدت مجلس النسوة عند أحواض الينبوع القديم أو الجديد. وعلاوة على ذلك ينـدر أن تطول الأمسيات الساهرة في تلك الناحية إلى ساعات متأخّرة من الليل. ويتأتّى عن ذلك أنها تمتلك جسماً متعافياً وقويّاً وإن كان يميل إلى اكتساب القوام الذي يفرضه الزيّ المهنيّ على فتيات الغيشا: ضيقُ الوركين المشدودين على الدوام، يقابله بروزٌ خفيف للبطن. كان شيمامورا يجدُ في صُحبتها ما يُفعم قلبه عطفاً، لا يتمالك تأثّره العميق لفكرةِ أنّ تلك المرأة استطاعت أن تدفعه إلى العودةِ إليها برغم المسافة.

«تراني سأكون قادرة على الإنجاب؟» أسرّت إليه في سياقِ حديثها كما تساءلت على مسمعه عمّا إذا كان إخلاص المرأة لرجل واحد لا يجعلها في سوية المرأة المتزوجة.

وسمعها شيهامورا تتحدّث للمرّة الأولى عن ذلك «الرجل الـوحيد» في حياتها. تعرّفت إليه حين كانت لا تزال في السادسـة عشرة، قالت موضحةً، وسرعـان ما تـراءى لشيهامـورا أنّه بـات يدرك الآن السببَ الـذي جعلها لا تبـدي حيالـه إلاّ القليل من المقـاومة: ذلـك التهـوّر الذي طالما حيّره منذ البداية.

ثمّ قالت له: «لم يكن في هذا الرجل ما يجذبني إليه لا جسـدياً ولا عاطفياً، وربّما لا تعدو الحكاية كونها نشأت نـاحية المنـطقة السـاحلية ومباشرةً بعد وفاة الرجل الذي سدّد دَيْنها.

«برغم ذلك، عندما تدوم العلاقة خمسة أعـوام لا يُمكن القولُ إنّها مجرّد صِلة، قال شيهامورا معترضاً. ففي مثل هذه الحـال تكون وثيقـة تعاقد.

ـ لمرّتين فكّـرتُ في الانفصال عنـه. المرّة الأولى حـين جئتُ أعمل هنا كفتاة غيشـا. والثانيـة حين بـدّلت مكان إقـامتي بعد وفـاة أستاذة الموسيقى. ولكنّي في المرّتين لم أقدر على ذلك. ينقصني الحزم».

كان ذلك الرجل يقطن الناحية الساحليـة، قالت، ولم يستـطع أن يقنعها بالبقاء هناك. لذلك أرسل كومـاكو في رفقـة أستاذة المـوسيقى عنـدما صمّمت هـذه على العـودةِ إلى الجبال. وإنّمـا فعل بـدافعٍ من مروءته، أضافت كوماكو. «لطالما عـاملني بلطف، وأنا أشعـر بالأسى فعلاً لأنني لم أستطع أن أحبّه، أن أكون له جسداً وروحاً. وقـالت إنه كان يكبرها بسنوات عديدة ولا يأتي لزيارتها إلاّ فيما ندر.

«وغـالباً مـا كنت أحسبُ أنني لو أردت أن أسيء التصرّف لكـانت

القطيعة معه أسهل عليّ. صدّقني غالباً ما كنت أحدّث نفسي بهذا الأمر.

ـ ولكنّ الأمور لن تجري أبداً كما تشتهين!

ـ ذلك أنّي لا أقدر. طباعي لا تسمح لي كما أني أحبّ جسدي كثيراً. لو شئت لكان في استطاعتي أن أخفّض مدة عقد الأربع سنوات إلى النصف. إلاّ أن هذا يتطلّب مني أن أعمل في سبيل ذلك، ولا أريد أن أفعل. تخيّل كم أستطيع أن أجني من المال لو أردتُ. ولكن يكفيني أنّ الرجل الذي تعاقدت معه لن يَخسَر مالاً في نهاية السنوات الأربع. المطلوب أن يستردّ رأس المال والفوائد والضرائب وتكاليف إقامتي وإعالتي، لقد حسبت ما يترتّب على ذلك من مبالغ شهرية، ولا أبذل أقلّ جهد لأجني المزيد. وما أن أجد أنّ أمسية ما لا تستحق العناء حتّى أنسحب منها وأعود إلى الدار. بإمكانهم أن يرسلوا في طلبي دائماً للذهاب إلى النزل ولكنّهم لا يفعلون إلاّ إذا كان المعنيُّ زبوناً قديماً يطلبني أنا بالاسم. لو كانت لديّ أهواء شاذّة لما وجدتُ مشقّة في أن أبذل جهداً أكبر، غير أني في الحقيقة لا أعمل إلاّ حين يحلو لي أن أعمل. وأجدُ أنّ هذا يكفي ما دمت قد سدّدتُ نصف المبالغ المتوجبة في أقلّ من سنة واحدة. بالاضافة إلى مصاريفي الخاصة والتي قد تبلغ ثلاثين ينّاً أو أكثر في الشهر الواحد. لذلك لا أحتاج أكثر من مئة ينّ في الشهر، أردفت قائلة، وأوضحت أنّه حتّى في الشهر الفائت، وهو أكثر أشهر السنة كساداً، استطاعت أقلّ الفتيات حظاً من زميلاتها أن تجني ستين ينّاً، أمّا هي فقد حظيت بتسعين لقاءً وجنت من المال أكثر مما جنته كلّ الفتيات الأخريات. وبما أنها تنال نسبةً محدّدة لقاءَ كلّ زبون فإنّ

ربحها الشخصي يزداد بنِسَب تفوق تلك التي يجنيها رب عملها باعتبار عدد الاحتفالات والأمسيات التي تشارك فيها. بإمكانها إذن أن تنتقل بين أمسية وأخرى ساعة يحلو لها أو تشاء. فما من فتاة غيشا تعمل في هذا المنتجع أرغمت على تحديد عقد عملها وظلّت غارقة في الديون».

في صباح اليوم التالي استيقظت كوماكو باكراً.
«لقد أيقظني حلمٌ: كنتُ أرتّبُ منزل المرأة التي تُعلّم فنْ الورود».

كانت قد أزاحت منضدة الزينة الصغيرة في اتجاه النافذة فعكست مرآتها، في ضياء الشمس الخريفية، منظر أوراق الشجر الحمراء التي تكسو الجبل.

لم يكن صوت يوكو، هذه المرّة، الذي نادى على كوماكو من وراء الباب: ذلك الصوت المُثير الذي ينقبض له القلبُ قليلاً. لا. لقد أحضرت ابنة ربّ العمل الصغيرة الكيمونو الذي ترتديه كوماكو خارج أوقات عملها.

«والفتاة الأخرى، أين أصبحت؟» سأل شيمامورا.

رمقته كوماكو بنظراتٍ حادّة.

«إنها تقضي وقتها في المقبرة، هناك، هل تراها؟ عند طرف ساحة التزلّج: انظر: هناك حقل حنطة سوداء، والمقبرة بمحاذاته إلى الجهة اليسرى».

بعد رحيل كوماكو، خرج شيمامورا في نزهة بين أنحاء البلدة.

كانت فتاة تلهو برمي كرة قبالة جدار أبيض في فيءِ سفينة متقدّمة؛ وكانت ترتدي هاكاما جديداً من الفلانيلّة لونه أحمر موشّى بالـبرتقالي. حفظ شيـامـورا بتلذذ تلك اللوحـة المُبهجـة التي رأى فيهـا الصـورة المثالية للخريف.

لا بـدّ أنّ تلك البيوت المشيّـدة جميعها عـلى طـراز العهـد القـديم كانت موجودة هناك في الحقبـةِ التي شهدت روحـات وغدوات أسيـاد المقاطعات الريفية الاقطاعيين على طريق الشمال. سقائف مـائلة تكاد تلامس الأرض، وأروقة خارجية طـويلة، نوافـذ وطيئة ولكنهـا طويلة في الطبقة العليا مكسوّة بالورق: لا يتعـدى ارتفاعهـا ذراعاً واحـدة؛ وستائر من أسَلٍ مُسدلةٍ من أطراف السقائف.

حائطٌ خفيضٌ من الطين تكلّله نجيليّات خريفية عالية ودقيقة كأنّها تنحني بجلالٍ لثقل زهراتها وعلى طول سويقاتها تنبثق وريقاتٌ نصلية دقيقة وصلبة كأنها فوّارة ماء.

لَمحَ يوكـو تفترشُ حصـيرة من القشّ على قـارعـة الـطريق تـطرق الفاصولياء اليابسة تحت أشعة الشمس. وكانت القشور اليابسة تنشقّ عن حبيبات تتقافز أمامها مثل قطراتٍ من ضوء.

لا بـدّ أنها لم تره بسبب الـوشاح الـذي عصبت به رأسهـا. كانت جاثية على ركبتيها، مستقيمة الجذع وقد باعدت قليلاً مـا بين سـاقيها مُرتديـةً هاكـاما أهـل الجبل. وكـان يُصاحبُ طَـرْقَها المنتـظم للقشورِ المنثورةِ أمامها انشاد أغنية خافت: أغنية تُنشد بصوتها الجـليّ والعميق حتّى يكاد يُفعم السامعَ شجناً، صـوتُها المُـوحي بغموضٍ يهـزُّ الروعَ كأنّه يتناهى من حيث لا أحدَ يدري أين.

«الصَبيّةُ والجُدجُدْ، الفراشةُ
والجراد، زيز الحصاد وصَرُّار الليل
تَخْلب الجبال.

أيّ رفرفة هـائلة تلك التي تُغادر شجـرة الأرز في ريح المسـاء! كما يقول الشاعر. مِنْ غابة الأرز الصغيرة التي يستطيع شيماورا أن يراها من نـافذتـه، كانت جحـافـلُ من اليعـاسيب تهـرعُ مجـدّداً، مُـطوِّفـة مـتراقصة لـمَقْـدِمِ المسـاء في حميّـة متصـاعـدة، كـأنّها مُسَّت بـالحمّى والاستعجال.

وعلم شيماورا أثناء تصفّحه لدليل المنطقة الجبليّة الذي ابتـاعه في طـوكيو لتمضيـة الوقت قبـل انطلاق القـطار، أنّ ثمـة دربـاً ضيّقـاً، بمحاذاة إحدى قِمم السلسلة الجبليّة، يتعرّج بين بحيرات ومستنقعات خلَل منظرٍ رائع، وأن تلك المنطقة الرطبة تتميّز بأنـواعٍ من النباتـات الصروديّة ذات المنافـع العجيبة. تـأتي سُربة من اليعـاسيب الحمراء، أيّام الصيف، لتلهو بينهـا هانئـةً جليلةً وتحطُّ على قبّعتـك أو كمِّك أو على إطار نـظارتيك، ولا تشبـه اليعاسيب الهـائجة والمسرعـة التي تحيا على مشارف المدن، كما لا يشبه الغيمُ الشفيفُ النُقعَ الآسن.

كان الرقصُ المـدوّمُ لتلك اليعاسيب التي يـراها، أقـرب إلى رقص مجـاذيب أو ممسوسـين: إذ بدت في حميّـا الهياج، كـأنها تـودّ أن تصـد غشاوة المساء الذي راح يُدِّجي غابة الأرز رويداً، متفانيـة في صراعها مع الليل الوافد، مع الغروب.

ذلك أن الشمس هوت خلف الـذُرى الشاهقـة، مُنوِّرةً، في قبسٍ أخير، شلال الأوراق الحمراء على امتداد السفوح المترامية.

«الانسان كائن هش، ألا تعتقد ذلك؟ قالت له كوماكو في صبيحة ذلك اليوم. كانوا كأنّهم عُجنوا عجناً، كما قيل لي. الجمجمة، العظام، كلّ شيء فيهم كان محطّماً. لو أن دبّاً سقط من العلوّ ذاته لنجا دون أن يُصاب حتّى بكسر». كانت تحدثه عن حادثةٍ جرت في الجبال مؤخراً وذهب ضحيّتها بعض المتزلجين، وكانت تشير بإصبعها إلى المكان، أعلى الصخور، هناك حيث «أفلتوا وسقطوا». وها شيمامورا يقول في سرّه لو أنّ الإنسان له قساوة جلد الدب وأثاثة فروته لكان عالمه مختلفاً بالتأكيد: ألا يحبّ الانسان من خلال بُشرة جلده الناعمة ومن خلال رقته ورهافته؟ ولم تلبث هذه الخاطرة الغريبة، هو الساهم في منظر الجبل الغَسَقي، أن أثارت لديه رغبةً عاطفية ملحّة في أن يداعب بشرة إنسان.

«الصَبيّةُ والجُدْجُد، الفراشة...

مجدّداً تلك الأغنية... يسمعها بصوت فتاة غيشا رديئة الأداء يصحبها عزفٌ على الساميسن كلّما أراد أن يتناول طعام العشاء في ساعة مبكرة نسبياً.

إذا كان الدليل الذي قرأ بعضه لا يتضمّن سوى بعض الارشادات العملية كالوقت الذي تستغرقه الرحلات، والمسالك التي ينبغي اتباعها ومواضع الفنادق وكلفة الاقامة فيها... إلخ فإنه على الأقلّ يدع لقارئه فرصة أن يتخيَّل التفاصيل الأخرى التي لا تردُ فيه. كان شيمامورا يعودُ من تلك الجبال عندما تبدأ السويقات النابتة باختراق قشرة الثلج المتبقيّة، في الموسم الذي تعرّف فيه إلى كوماكو. وها أصبح، في موسم السباقات الخريفية، يستعيدُ في أعماقه نداء

تلك المرتفعات التي تسلّقها منذ عهدٍ قريب. مُتبطّلاً، كان يستطيع أن يقضي أوقاته كما يحلو له. إلاّ أن سُكنى الجبل لها أحكامها لأنّ رياضة تسلّق المرتفعات بدت له مثال الجُهدِ المبذول مجّاناً، ولذلك كان يهوى التسلّق كأنّه مفتونٌ على الدوام بسحر الوهم.

عندما تكون كوماكو بعيدة عنه، لا يتوقّف لحظة عن التفكير بها.

وعندما يرى أنها قريبة منه تصبحُ رغباته التائقة للمس جلد، لتحسُّس جلد إنسانٍ رقيق وناعم، أقرب إلى رغباتٍ حلميّة منها إلى شهوةٍ جسديّة، تُصبحُ حنيناً أشبه بذاك الذي توقظه في أعماقه فتنة القمم الشاهقة. أيكون ذلك لاحساسه المفرط بالأمان؟ أيكون ذلك لأن جسده في الأثناء يصبح ألوفاً وحميماً؟ لقد أمضت كوماكو ليلتها السابقة في رفقته، والآن، إذ يجد نفسه وحيداً في غرفته، لا يسعه إلاّ أن ينتظر قدومها. يخالجه إحساس اليقين بأنها ستأتي إليه دون أن يُرسل في طلبها. لهنيهات، أصغى شيماموراً إلى صياح مجموعة من التلميذات في رحلة. ثمّ راح يغلبه النعاس فنام باكراً.

في الليل سمع حفيف مطرة مباغتة لم تدم طويلاً، كما يحدث عادةً في مثل ذلك الموسم.

وعندما فتح عينيه في الصباح رأى كوماكو، مُتقنة المظهر، جالسة وراء منضدة وطيئة تقلّبُ صفحات مجلّة. كانت ترتدي كيمونو عادياً وبسيطاً.

«هل استيقظت؟ سألته بصوتٍ خفيض وقد أدارت وجهه نحو برفق.
ـ ماذا تصنعين هنا؟»

وتلفت شيامورا مجيلاً أبصاره في أنحاء الغرفة على عجل. تُراها جاءت أثناء الليل دون أن يدري؟ تناول ساعته من تحت الوسادة: السادسة والنصف.

«أراكِ مبكرةً هذا اليوم!

ـ ليس كثيراً. لقد سبقتني الخادمة وأَحضَرتِ الوَقدة».

وبالفعل كان بخار خفيف يتصاعد من المغلاة أشبه بضبابة الصباح. دنت كوماكو وجلست على طرف الفرش لتقول له بلطفٍ إنّ وقت النهوض قد حان، تماماً كما تفْعَلُ الزوجة المثالية.

تمطّى شيامورا في فراشه وتثاءب وشدّ بيده على اليد التي ألقتها على ركبته، مداعباً أصابعها الدقيقة التي خشّنها العزفُ على الساميسن.

«أشعر بالنعاس! لقد بزغت الشمس للتوّ! قال متذمّراً.

ـ هل كان نومك بمفردك مُريحاً؟

ـ كان جيّداً جداً.

ـ وشارباك، في آخر الأمر، لم تدعهما...

ـ آه! صحيح، إن لم تخنّي الذاكرة كنتِ تودّين أن يكون لي شاربان.

ـ لا أهميّة لذلك. كنت أعلم جيّداً أنّك لن تفعل. فأنت تبدو دائماً حليق الذقن ناعمها وبشرة وجهك رقيقة مُزْرَقّة.

ـ وأنت أيضاً تبدين كمن حلق ذقنه حديثاً حين تزيلين تلك المساحيق عن وجهك.

ـ ألم يكن وجهك أكثر امتلاءً بعضَ الشيء؟ كنتَ تبدو كطفلٍ أثناء نومك، بخدّيكَ العفيين وبشرتك الشاحبة وشاربيك الحليقين.
ـ كنتُ محبّباً وظريفاً، أليس كذلك؟
ـ أوه! لا، ليس إلى هذا الحدّ!
ـ هيّا أخبريني أنت: كنتِ تتأمّلين وجهي أثناء نومي، لا أعرف جيّداً إذا كنت أقبل بأن يتأمّلني أحدٌ ما أثناء نومي...»

أطرقت كوماكو قليلاً مُبتسمةً ثمّ لم تلبث أن أطلقت ضحكةً مدوّية مثل نيران تُقْدَح من الجمر. أطبقت أصابع يدها بقوةٍ على يد شيمامورا.

«لقد اختبأت في الخزانة الكبيرة! فما ارتابت الخادمة بشيء.
ـ متى؟ هل اختبأتِ لوقتٍ طويل؟
ـ لثوانٍ فقط، بالطبع! لم تمكث هنا، دخلت ثمّ غادرت بعد أن وضعت الوقدة».

وانفجرت كوماكو ضاحكةً لتلك الدعابة، واصطبغ وجهها بالحمرة بغتةً متظاهرة بهبوةِ حرّ لتُخفي ارتباكها، وشرعت تتروّحُ بطرف غطاء الفراش.

«هيا، انهض، انهض، أرجوك!
ـ الجوّ بارد جداً! قال شيمامورا متلحّفاً بالغطاء. هل استيقظ جميعَ من في النزل؟
ـ وما أدراني أنا؟ لقد سلكتُ من الخلف.
ـ من الخلف؟
ـ بلى، لقد تسلّقت مباشرة من ناحية غابة الأرز.

ـ أيوجد دربٌ من هناك؟
ـ لا، ولكنّ المسافة أقصر».

رمقها شيمامورا بنظرةٍ حائرة.

«لا أحد يعلم بوجودي هنا، قالت موضحة. لقد سمعت جلبةً في المطبخ ولكن لا بدّ أن باب المدخل لا يزال مغلقاً في مثل هذا الوقت.

ـ تبدين كطيرٍ مُبكر!
ـ ولم أستطع أن أنام.
ـ هل سمعتِ هطولَ المطر؟
ـ آه! أأمطرت إذاً؟ الآن أدرك لماذا كان العشبُ مُبتلاً لا كالمعتاد: لم يكن مجرّد ندى إذاً. . . حسناً سأغادرك، نوماً هنيئاً».

نهض شيمامورا من فراشه في قفزة مباغتة ممسكاً يد كوماكو بشدّةٍ، وقادها برفقته إلى النافذة ليرى من أين جاءت. عند منتصفِ المُنحدر الذي يخترقُ العشب المتطاول والعلّيق، يوجَدُ دغلٌ شائكٌ من الخيزران القزمِ الذي يُطلقُ قضبانه في كلٍّ اتجاه. وعلى مقربةٍ من مطلّ النافذة، أحواض جنينة خضار تتراصف فيها أثلام اللفتِ والبطاطا السكرية والكرّات والبطاطُس. رُكنٌ من جنينةٍ عادية جدّاً تطالع شيمامورا ولأوّل مرّة بتلاوين الخضرة العذبة المختلفة وكأنها لُمّعت حديثاً في الصبيحة المنعشة.

خلال عبوره الرواق في طريقه إلى الحمّام التقى البوّاب، الذي كان يرمي الطعوم للأسماك الحمراء في الحوض.

«واضح جداً أن البرد يشتدّ، قال له الرجل. إنها تأكل من غير شهيّة».

مكث شيمامورا هنيهةً يراقب ديدان القزّ المجفّفة اليابسة تطفو على سطح المياه كأنّها حروفٌ مبهمة.

استحمّ وعاد إلى غرفته حيث كانت كوماكو في انتظاره، غضّة وناصعة مثل صورة.

«كم أود لو يكون لي ركنٌ كهذا أنصرف فيه إلى أشغال الخياطة!»

وكان واضحاً أن الغرفة قد نظّفت ورتّبت فيما شمس الصباح السخية تغدقُ عليها دفقاً من أشعّتها تصل حتّى أطراف حاشية الحصر الباليةِ بعض الشيء.

ـ أتجيدين الخياطة؟

ـ إنه سؤال مهين! من بين جميع أفراد عائلتي كان من نصيبي أنا أن أقوم بالأعمال الأكثر مشقّة. وأحسب الآن، حين أعود بذاكرتي إلى الوراء، أنّ سنوات صباي تلك كانت الأسوأ في حياتي كلها».

كان صوتها محايداً كأنها تحدّث نفسها، ولم تشتدّ نبرتها قليلاً إلاّ حين قالت له:

«لقد رأتني الخادمة. وأبدت امتعاضها ثمّ سألتني متى أتيت إلى الغرفة. وأحسست بالحرج! ـ ولكن ماذا أفعل؟ لن أهرع إلى الخزانة كلّما جاءت! والآن يجب أن أغادر. لقد بدّدتُ قسطاً لا يستهان به من الوقت حتّى الآن ولديّ الكثير لأصنعه. ولأنني لم أنم جيّداً هذه الليلة صممت على غسل شعري بالشامبوان وينبغي أن أفعل ذلك في

وقتٍ مبكر جدّاً حين أصمّم على غسل شعري، إذا أردت أن يجفّ قبل أن أقصد المزيّن. وإلاّ لما استطعت أن أنجز كلّ هذا قبل وقت الغداء حيث ارتبطتُ بموعد عمل. كما أُرسل في طلبي إلى النزل، هنا، ولكن لن أستطيع المجيء: لقد تأخّروا في طلبهم وكنتُ ارتبطتُ بموعدٍ آخر. كذلك الأمر لن أستطيع أن أراك هذه الليلة: إنها ليلة السبت ولديّ ارتباطات عديدة.

ومع ذلك، بدا أنها لن تذهب برغم كلّ الكلام الذي قالته. وكلّ ما في الأمر أنها لن تغسل شعرها، لن تفعل وحسب.

أمسكت بيد شيمامورا وقادته برفقتها نحو الجنينة الخلفية، ولم تنس أن تحمل، في طريقها، صندلها وجوربي التابي المبتلّين التي كانت دسّتهما تحت حافة الرواق قبل أن تدخل.

كان دغلُ الخيزران القزم الذي استطاعت أن تفسح لها طريقاً بين أعواده المتشابكة أثناء صعودها، يسدّ عليهما الطريق كحاجز منيع، فانحدرا من طريق الجنينة، مُستدلّين بخرير الشلال الهادر، حتّى وصلا إلى الجرف العالي عند غابة أشجار الكستناء. بين الأشجار كانت تتردّد أصوات أطفال يتنادون فيما بينهم. وعلى التراب أعداد كبيرة من ثمار الكستناء التي تساقطت عن الأغصان فغطّاها العشب. كسرت كوماكو بكعبها عدداً من تلك القشور ذات البراثن وأخرجت منها ثمراتٍ ضئيلة الحجم.

وقبالتهما، على السفح المنحدر للضفة الأخرى، كانت قنازع الكايا الفضيّة اللون تترجّح ببياضها المُشرق في غمرة ضياء الصباح. تفتُّحٌ باذخ لبهاءٍ نادر، لكنّه البهاءُ الذي يُشبه في هشاشته وسُرعةِ زواله

ذلك الصفاءُ الباهر والشفافية المذهلة في سماء الخريف المنوَّرة.

«هلّا عبرنا إلى الضفة الأخرى؟ اقترح شيمامورا. وعندئذٍ بإمكاننا أن نصل إلى قبر الخطيب».

في لمحِ البصر استطاعت كوماكو أن تنحني ثمّ تقف مجدّداً وفي الأثناء، تلقّى شيمامورا حفنة من ثمار الكستناء على وجهه. لم يستطع أن يتجنّب الرمية التي أحدثت له خدوشاً في جبينه.

«أتريد أن تسخر منّي؟ قالت له في البداية. ثم أضافت:

ـ تُرى ما الذي قد يدفعك للذهاب إلى المقبرة؟

ـ ولكن ما الداعي إلى غضبك هذا. . . قال شيمامورا.

ـ لم تكنْ رمية غضب. كلُّ ما في الأمر أنني لا أطيق الناس الذين يفعلون كلَّ ما يخطر لهم دون أن يفكّروا في الآخرين ولو للحظة واحدة. أنا أرى أن الأمر مقصود.

ـ ولكنّ أي أمر؟ قال شيمامورا بشيءٍ من الخجل.

ـ لماذا سمّيته خطيبي؟ ألم أخبرك، وبالتفصيل، أنه لم يكن خطيبي؟ ولكن أنت، بالطبع، لا بدّ أنّك نسيت كلّ شيء!»

لا، في الحقيقة، لم ينس شيمامورا شيئاً على الإطلاق، لا بل كان بإمكانه القول، دون أن يكذب، إن ذلك الرجل، الذي يُدعى يوكيو، لا يزال يُثقلُ عليه بذكراه. ولكنَّ المؤكّد هو أن كوماكو لا تستطيع احتمال أي حديث عن يوكيو. فمن الجائز أنّها لم تكن خطيبته، ولكنّ ذلك لم يحل دون أن تُصبح فتاة غيشا بقصدِ توفير بعض أكلاف علاجه. وأن تكون ردّة فعلها متعمَّدة و«جدّية» فتلك

هي البداهة عينها في نظر شيهامورا.

وهو نفسُه لم تبدر منه أي بـادرة غضب، حتّى بعد تعـرّضه لـرشقة الكستناء. أمّا كوماكـو التي مكثت طويـلاً ترمقـه بنظرات مشـدوهة، فقد أحسّت بأن مقاومتها تلين. فتأبطت ذراع شيهامورا قائلة:

«أنت رجـلٌ طيّب ومُستقيم، ألـيس كـذلـك؟ رجـل طيـب بالفطرة... وثمة ما يكدّرك.

ـ أولئك الصِبية يترصدوننا من أعلى الأغصان، قال.

ـ ومـا الضـير في ذلـك؟ أنتم، أهـل طـوكيـو، تعقّـدون الأمـور. حيـاتكـم ليست إلاّ ضـجيجـاً وفـوضى، تحيـون في هيـاج يُحـطم مشاعركم ويجعلها نثاراً.

ـ كلّ شيء يتحطّم نثاراً، أجابها شيهامورا مُطرقاً.

ـ حتّى الحياة، الحياة نفسها، لا تدوم طويلاً، قالت كوماكو متمّمة لعبارة شيهامورا. والمقبرة، هل نذهب إلى المقبرة؟

ـ أقصدُ...

ـ أرأيت، أنت نفسك لا تريدُ، في صميم أعماقك، أن تذهب إلى هناك!

ـ ذلك أنَّك جعلتِ من الأمر مُشكلة...

ـ لأني لم أذهب إلى المقـبرة، ولو مـرّة واحـدة. صـدقـاً، ولـو مـرّة واحدة ووحيدة. أحياناً ألومُ نفسي الآن وقد أصبحت أستاذة الموسيقى هنـاك هي أيضاً. وأحـايين أخـرى أجدُ أن الأوان قـد فات ومـا عاد يُجدي أن أبدأ الآن. ففي ذهابي بعد انقطاع شيء كثير من الخبث.

ـ ألا تعقدّين الأمور أكثر مما أفعل بكثير؟

ـ وكيف ذلك؟ في مواجهة الأحياء لا يمكنني أبداً أن أكون في حالة كاملة وتامّة من الصدقِ مع الذات، هذا صحيح. ولكنْ أريد على الأقلّ أن أبدو صادقةً وصريحة معه، الآن، وقد أصبح في عالم الأموات».

كانا يتابعان سيرهما مُتمهّلين فاجتازا غابة الأرز حيث بدا الصمتُ يرشَحُ قطراتٍ مدلّاة منعشة وعذبة. سارا بمحاذاة خطّ السكة الحديد أسفلَ ساحة التزلّج، ومن هناك سرعان ما أفضيا إلى المقبرة: بضع عشراتٍ من القبور القديمة المنهوكة بفعل تقلّبات الجوّ، مُبعثرةً في أنحاء ربوةٍ جرداء، كأنّها جزيرة صلعاء وضيّقة وسط بحرٍ من حقولِ الأرز؛ وحده النُصَب التالف لـ «جيزو»، حارس الطفولة يقف هناك. وما من وردة واحدة.

ثم بغتةً، بدا من خلف أجمة نابتة عند قدمي «الجيزو» رأس يوكو وكتفاها. وإذالتفتت نحوهما بوجهها الجامد والرصينُ كقناع، حدّجت الوافدِين بنظراتها الحادّة. فبادر شيمامورا إلى تحيّتها بإشارة عفوية عاجلة من رأسه، ثمّ وقف صامتاً.

كوماكو هي التي تكلّمت.

«ألا تعتقدين أنّك أبكرتِ بعض الشيء يا يوكو؟ كنتُ أعتزم الذهاب إلى المزيّن قبل أن. . .»

رَعْدٌ أسود عصفَ بهم وكاد يوقعهم أرضاً وابتلعت الجلبةُ عبارة كوماكو. كان ذلك قطار بضائع انبثقَ مسرعاً بمحاذاتهم مُخلِّفاً صخبه الهائل.

«يوكو! يوكو!» صاح بملء صوته شابٌ يلوّح بقبّعته وقد انتصب واقفاً على حافة باب مفتوح في وسطِ عربة سوداء.

«سايشيرو زعقَ صوتُ يوكو مُجيباً. سايشيرو!»

كان لصوتها تلك النبرة المؤثرة والرخيمة إيّاها، ذلك الصوت الذي يخترق كيانك بالكآبة لروعته الموجعة، كأنّها تنادي بلا رجاءٍ مسافراً ما نأت به السفينةُ إلى عرضِ البحر، النبرة نفسها التي أطلقها صوتها في كنفِ الليل والثلوج، عندما نادت من عربة القطار على ناظر المحطّة، عندما توقّف خارج النفق.

عبر القطار وإذ رُفع الستار الأسود الذي أسدله بغتة، انقشعت ألوان الحنطة السوداء لامعةً ونديّة في الجهة المقابلة من خطوط السكة الحديد: حقلٌ من الورود البيضاء التي تعتلي سويقاتها الحمراء وبثُّها السكينة وصفاء السريرة.

لقد أثار حضورُ يوكو المباغت دهشة كوماكو وشيمامورا فلم يلحظ أحدٌ منهما اقتراب قطار البضائع. إلاّ أن عبوره الصاخب أتاح لهما في المقابل أن يتمالكا دهشتهما تلك. وبعد أن تضاءلت جلبة القطارِ مُبتعداً، لم يبق مُجدّداً إلاّ صوت يوكو، بتموّجاته التي تشبه أخلص ما في الحبّ، يتردّد في أذنيه.

«إنه أخي، قالت وهي تتبع القطار المبتعد بعينيها. قد يكون من الأفضل إن أذهب إلى المحطة...

ـ ولكنّ القطار لن ينتظر! قالت كوماكو ضاحكةً.

ـ ربّما كنت على حق...

ـ أنتِ تدركين بالطبع أنني لم أقصد هذا المكان لزيارة قبر يوكيو».

فوافقت يوكو بحركةٍ خاطئة من رأسها وبدت في حيرةٍ من أمرها ثمّ ركعت أمام القبر.

ومكثت كوماكو واقفةً تُراقبها.

كان شيمامورا قد أشاح بوجهه عنهما وراح يتأمل نُصُبَ «جيزو» الذي يمتلك ثلاثة وجوه مستطيلة وزوجين من الأذرع بالاضافة إلى ذراعيه المشبوكين فوق صدره.

«يجب أن أذهب إلى المزيّن»، قالت كوماكو مجدّداً ليوكو قبل أن تبتعد على ممرّ ترابي مرتفع بين حقولِ الرزّ.

إنها عادة قديمة في بلد الثلوج أن يُجفّف الرزّ بربط رُزمه، رؤوسها إلى الأسفل، إلى قضبان من الخيزران أو الخشب، تُنصَّبُ كمسنّدات بين شجرتين. وفي ذروة موسم الحصاد تصبحُ المسنّدات محمّلةً بكميّاتٍ من الرزم بحيثُ تبدو حيثما كانت كجدرانٍ عالية من الرز الأخضر.

على طول الدرب الذي سلكه شيمامورا وكوماكو في طريق عودتهما إلى البلدة كان المزارعون منهمكين بالحصادِ وبتعليق محاصيلهم على المسنّدات. كانت فتاة ترتدي الهاكاما الخشن تحمل رزم السبلات وبوتائر منتظمة مصحوبةً بحركةٍ من الوركين ترمي بها إلى أعلى فيتلقفها رجلٌ على الممر الترابي المرتفع فيُفرِّج سويقات الرزمة إلى قسمين ثمّ يعلّقها على طرف قضيب. كانت حركات العاملين شبه آلية، بفعل العادة، متناسقةً ومتتابعة لا شوب فيها.

انـتزعت كومـاكو رزمـةً صغيرةً من الكـوم وراحت تهدهـدها بـين ذراعيها كأنّها تروزُ جوهرة».

«أنظر كم هي ثقيلة! قالت. وكم هي ناعمة الملمس! وكم تختلف عن محصول العام الماضي! »

كـانت كومـاكو قـد أغمضت عينيها كمَن يـريد أن يُـديمَ لـذّتـه، فعبرت سربة من عصافير الدوري فوق رأسها.

حين ابتعدا قليلاً طالعهـما، بمحاذاة الـدرب، مُلْصَقٌ كان لا يـزال معلَّقـاً على أحـد الجدران: ٩٠ سنّـاً(*) يوميّـاً بالاضـافة إلى وجبـات الطعام. للنساء: ٤٠٪ أقلّ».

أمام منزل يوكو، عند طرف الحقل المنخفض قليلاً الذي يُباعـدُ ما بين الطريق وبينه، كانت رُزَم مشـابهة مكـدّسةً فـوق مُسنّدات عـالية صفٌ طـويل منهـا يُسدلُ ستـاراً كثيفاً بـين أشجار الكـاكي، من أمام الحـائط الأبيض الذي يسـوّر الجنينة حتى مـدخـل الـدارة المجـاورة؛ وصفّ آخر يمتدُّ، وفق زاوية مستقيمة، على طولِ حافّة الحقـل قُبالـةَ الجنينة، وقد تُرِكَت فُتحة عند الزاوية للعبور من خـلالها. كـان ذلك أشبه بمسرحٍ مُرتجلٍ صغير أُقيمت جنباتـه من سبلات الـرزّ الناضـج بدل الحُصْرِ المدلاّة التي تستخدم عادةً لمثل هذه الغاية.

كـان القلقـاسُ في الحقـلِ، بسـويقـاتـه الصلبـة وأوراقـه الخشنـة القاسية، لا يزال في أوج نضارته. أما الدهليّات والورود فقد أنهكهـا الذبول. كما احتجبت بركة اللوتس، وأسماكها الحمراء، خلف ستـار

(*) عملة يابانية صغيرة.

المسنّدات الذي حجبَ أيضاً نافذة عليّة دود القزّ حيث كانت كوماكـو تُقيم.

عبرت يوكو من الفتحة بـين الرزم المعلّقـة، وأحنت رأسها بحـركة خاطفة بَرِمة:

«هـل تحيا وحيـدة؟ سأل شيـماورا وأنـظاره تتبـعَ القـامـة المحنيـة الظهر.

ـ لا، أحسبُ أنّها لا تحيا وحيدة؟ أجابت كوماكو بنبرةٍ لا تخلو من الحـدّة. إنّه لأمـر محزن حقـاً! سأستغني عن المـزيّن هذا اليـوم. أنتَ تحشر أنفك في ما لا يعنيك، وكانت النتيجة أننا أفسـدنا عليهـا زيارة المقبرة.

ـ كم أنت معقدّة فعلاً!... وما الفظاعة في أن نذهب إلى المقـبرة وأن نلتقي بها هناك؟

ـ لن تدرك أبـداً معنى ما يمثله ذلك في عينيّ... سـأعود لاحقـاً، إن استطعت، لأغسل شعـري. وقد يكـون ذلك في سـاعة متـأخرة، ولكنني سأعود بالتأكيد».

عند الساعة الثالثـة فجراً، استيقظ شيـماورا عـلى ضجّةٍ بـدت له كأنها جلبة بابٍ يُقتحم من الخارج، ولم يلبث أن تلقّى على صدره كلّ ما في جسد كوماكو من ثقل.

«قلتُ أنني سـأعودوهـا أنذا. أليس كـذلك؟ قلتُ أنني سـأعـودوهـا قـد جئتُ. أهذا صحيح أم لا؟»

لم يكن صدرُها يعلو ويهبط من جـراء لهاثهـا المتسارع فحسب بـل وبطنها أيضاً.

«لقد أفقدك السُكرُ وعيك
ـ ألم أقل لك؟ قلت سأعود. وهاأنذا. أتيت.
ـ حسناً، اتفقنا: لقد قلت لي.
ـ كنتُ لا أبصرُ شيئـاً في طريقي إليـك. لا شيء عـلى الإطـلاق. هذا الصداع.
ـ وكيف ارتقيتِ المرتفع؟
ـ لستُ أدري. لا أعرف كيف».

كانت ترخي ثقل جسمها متهالكةً فوق صدره، وخصوصاً بعد أن انقلبت على ظهرها واستلقت في استرخاء تام. حاول شيهامورا بارتباكٍ أن يرفع ثقلها عنه وهو لا يزال بين اليقظة والنـوم، غير أنّـه ترنّـح ثمّ عـاد فوقـع بطولـه على الفـراش وقـد استنـد رأسـه إلى شيء شـديـد السخونة.

«لكنّ جسمك يلتهبُ سخونة»!
ـ حقاً؟ إنه إذن وسادة جمر! فحذارِ من الحريق.
ـ مَنْ يـدري؟ مَنْ يدري؟ من الممكن أن أحـترق!» قال شيـهامورا مغمضـاً عينيه وقـد أحسّ بأوار يسري في كيـانه ويكتنف رأسـه كأنـه احتدام مباغتٌ لحيوية مفرطة.

ما أن تناهت إليـه أنفاسُهـا المتقطّعـة المتسارعـة حتّى استعاد وعيـه يُخالجه إحسـاسٌ غامض بـالنوم. وتـراءىء له أنـه يقف هناك لا يحـرّك ساكناً في انتظار ثأرها منه، دون أن يعرف ما هو بالضبط.

«لقد قلتُ ونفَّذت. لقد جئتُ، قالت، وبدا واضحاً مقدار الجهد الذي بذلته لتركيز أفكارها وعباراتها. والآن سأغادر. سأعودُ إلى المنزل لكي أغسل شعري؟».

دبَّت إلى الطاولة وشربت بنهم كوباً كبيراً من الماء.

ـ لا أستطيع أن أدعكِ تغادرين وأنت على هذه الحال، قال شيماورا معترضاً.

ـ بلى، بلى، سأغادر. إنَّهم ينتظرون عودتي. ولكن أين منشفتي؟»

نهض شيماورا وأشعل النور.

«لا! لا تفعل! لا، لا!»

وغطّت وجهها بكفَّيها وأطرقت.

كانت ترتدي كيمونو مزركشاً برسومٍ ذات ألوان فاقعة بمثابة منامة وفوقه زنار الأوبي العادي. وكان المنديلُ الأسود المعقود حول الياقة يُخفي أطراف الكيمونو الداخلي. وبفعل المسكرات التي تناولتها كانت بَشَرَتها متوهجةً لامعة حتى باطن قدميها العاريتين فحاولت أن تُخفيهما بأناقة فاتنة وقليل من الإغواء.

أما حوائج الاستحمام الخاصّة بها فكانت كوماكو قد رَمَت بها أرضاً فورَ دخولها. فالمنشفة والصابونة، والأمشاط، كانت كلُّها مبعثرةً على أرضيّة الغرفة من الباب إلى طرفِ الفراش.

ـ اقطع لي هذا. لدي مقصّ.

ـ ما الذي سأقطعه؟

ـ هذا! قالت وقد أشارت بإصبعها إلى الربط التي تشدّ تسريحتها العالية على الطريقة اليابانية. أردت أن أقطعه بنفسي ولكني لم أستطع: فأصابعي لا تمتثل لمشيئتي. فقلتُ في نفسي لماذا لا أطلب منك أن تساعدني في أمر كهذا».

عمد شيمامورا إلى إبعاد خصل الشعر بعناية ثمّ قطع الرُبُطَ واحداً تلو الآخر في حين راحت كوماكو تهزّ رأسها لكي تتهدّل الخُصَلُ الطليقة على ظهرها. وبدا أنّها استعادت بعض هدوئها.

«كم الساعة الآن؟ سألت.

ـ الثالثة.

ـ لا، أحقاً؟ إياك وشعري.

ـ ولكنْ كم عددها هذه الرُبُط؟ لم أرَ مثلَ هذا العدد في حياتي!»

قال شيمامورا مُتعجباً دون أن يتوقّق عن قطعِ الرُبُط.

كانت لفّة الشعر المستعار التي تسند تسريحتها ساخنة من الجهة التي تلامس الرأس.

«أيعقل أن تكون الساعة الآن الثالثة فجراً؟ قالت في استغراب. وأنا التي وعدتهن أن أرافقهن إلى الحمّام! لا بدّ أنني غفوت بعد عودتي إلى البيت. فجئنَ وناديني وتساءلن عما حلّ بي.

ـ أتنتظرنكِ؟

ـ في الحمّام العمومي. إنهن ثلاث. لقد أرسل في طلبي للمشاركة في ست سهراتٍ هذه الليلة ولم أشارك إلاّ في أربعٍ منها. والأسبوع المقبل سيكون حافلاً بالعمل لأنّ السياح يفدون بالمئات لمشاهدة شجر القيقب ـ شكراً، شكراً جزيلا».

كـانت كومـاكو قـد استقامت في جلستهـا لتسرح شعرهـا الـطليق فارتسمت على ثغرها ابتسامة حياء:

«أبـدو الآن في مظهـر مضحك، أليس كـذلـك؟» ولكي تتـمالـك خجلها انحنت ولمّت لفة الشعر المستعار.

ـ يجب أن أغادر، قالت. ليس من الـلائق أن أتأخـر عليهن. لن أعود هذه الليلة.

ـ هل أنتِ واثقة أنَّك ستبصرين جيّداً أثناء سيرك؟

ـ أجل، أجل.

ولكنْ ما أن نهضت حتّى تعثرت قدماها بأذيال الكيمونو.

قبل السابعة صباحـاً، وعند الثـالثة فجـراً: لمرتّـين في يومٍ قصـير واحد اختارت أن تزوره في أوقاتٍ غـير مألـوفة. «ليست عـادية جـداً هذه الحكاية» كان شيمامورا يردّد في سرّه.

- ٨ -

لن يلبث الزائرون أن يتوافدوا للتمتُّع بمشهدِ أوراق شجر الخريف. وقد زيّن مدخل النزل لهذا الغرض بأغصان القيقب.

وكان يحلو للبوّاب الذي أشرف كطاغيةٍ على انجاز هذا العمل أن يصف نفسه بأنّه طير مهاجر. فهو في الحقيقة، كغيره من الزملاء، يعمل في المنتجعات الجبليّة من الربيع إلى الخريف، إلى أن يحين موعد توافد الناس لمشاهدة أوراق شجر الخريف، وبعد ذلك يعود إلى المنطقة الساحلية لقضاء فصل الشتاء. وسيّان عنده أن يعود إلى الموضع نفسه أم لا، وتدفعه كبرياؤه التي يستمدّها من مخالطة الزبائن الميسورين في المنتجعات المشرفة للمنطقة الساحلية إلى احتقار مراسم الاستقبال التي يُقيمها النزل احتفاءً بالزبون. وفي محطّة القطار يسلك سلوكاً غامضاً كشحّاذٍ تتنازعه الحيرةُ ينتقي الوافدين الجُدد ويدنو منهم دون أن يكفّ لحظة عن فرك يديه ارتباكاً.

«هل ذقتها مرّةً من قبل؟ سأل شيمامورا العائدِ للتوّ من نزهته وأشار إلى ثمرة أكيبي أشبه برمّانةٍ كان يحملها في يده. إذا كنت تحبّها فبإمكاني أن أحضر لك بعضاً منها من الجبل».

ورآه شيهامورا يُعلّق ثمرة الأكيبي كما هي على غصن قيقب يزيّن المدخل. كانت تلك الأغصان التي قُطعت حديثاً، طويلة جدّاً حتّى تدلّت أماليدها القرمزية اللامعة من أطراف السقيفة بوريقاتها المصقولة ذات الاتساع المذهل. وكأنّ المدخل كلّه قد نوّرته جمرات متوقّدة.

كانت يدُ شيهامورا لا تزال تحفظ نواة ثمرة الأكيبي النفّاذة عندما لمحَ يوكو جالسةً أمام الموقد في غرفة المكتب. وكانت زوجة صاحب النزل قُبالتها تُسخِّن «الساكي» في مغلاة نحاسيّة وتخاطب الفتاة التي تهزّ رأسها بحركاتٍ متتالية لتُجيب عمّا يُقال لها. كانت ترتدي كيمونو حريرياً، بسيطاً قاتمَ الألوان، وكأنّه غُسِلَ وكُويَ للتوّ.

«هل تعمل هنا؟ سأل شيهامورا البوّابَ بلا مبالاة.

ـ أجل يا سيّد. إنّ وجودكم هنا بمثل هذه الكثرة، يتطلّب عدداً إضافياً من المستخدمين.

ـ مثلك أنت، أليس كذلك؟

ـ بالضبط. ولكنْ تلك، من بين فتيات أهل المنطقة، تبدو فتاةً استثنائية. إنها آنسة، إذا جاز لي القول».

ولكنْ في الأغلب أن يوكو تلازم عملها في غرفة الخدمة ولا تخالط الزبائن. والواضح أنّه كلّما ازدحم النزل بالوافدين الجدد لوحظ التصاعدُ في نبرةَ أصوات النساء اللواتي يعملن على خدمتهم، إلاّ أن شيهامورا لم يسمع نبرة يوكو العذبة النفّاذة. وعندما أخبرته الخادمة التي تعتني بغرفته أنّ من عادة يوكو أن تغني أثناء استحمامها قبل أن تأوي إلى الفراش، كان عليه الإقرار أنّ هذا ما فاته أيضاً.

منذ أن علم شيامورا بوجود يوكو في الدارة، لم يفارقه الشعور بشيء من الضيق دون أن يعرف سبباً لذلك. فقد كانت تُخالجه مشاعر غريبة تُثنيه عن استدعاء كوماكو إليه. إحساسه بشُعورٍ ما. لم يُصبح حضور كوماكو في حياته أقلّ جمالاً بل أصبح خاوياً ولا طائل فيه، وذلك برغم يقينه أنّها تكرّس له وحده كلّ حبّها. شعورٌ. والجهدُ الذي تبذله واندفاعها للحياة يؤلمانه، ينالان منه في الصميم. كان يُشفق عليها كما لو أنّه يُشفق على ذاته.

ومهما التمعت أمارات البراءة فيهما، فشيامورا يعلمُ حقّ العلم أنّ عيني يوكو قادرتان على كشفِ أعماقِ ما تُخفيه المظاهر. ودون أن يدركَ على وجهِ الدقّة كيف ولماذا، كان شيامورا يشعر هو أيضاً بميلٍ نحوها.

كانت كوماكو غالباً ما تأتي لزيارته من تلقائها ولذلك لم يكن مُرغماً على استدعائها.

وعندما ذهب شيامورا ذات يوم إلى الوادي للتمتّع بمشهد أوراق القيقب، عبرت به السيّارة من أمام دارها. ولمّا سمعت هدير المحرّك وأدركت أنّه لا بدّ أن يكون هو، هرعت لتراه. «أما أنت، قالت له فيما بعد مُعاتبة، فلم تلتفت إلى الوراء! يا لبرودتك! يا لقسوة قلبك حقّاً!».

أمّا هي فكانت، من جهتها، تغتنم كلّ سانحةٍ لزيارته، مهما ضاق بها الوقت، سواء حين تأتي إلى النزل أو حين تقصدُ الحمّام.

وعندما تلبّي دعوةً لمجالسةِ الزبائن كانت تتعمّد أن تصل قبل الموعد بساعةٍ على الأقلّ لكي يُتاح لها أن تمكث في غرفته إلى أن تصعد الخادمة لاستدعائها. حتّى أنّها كانت تجدُ أحياناً ذريعةً ما للتغيّبِ لبعض الوقت خلال الأمسيّة، فتصلح من زينتها أمام المرآة وتبتعد: «يجب أن أعود إليهم، كانت تقول، إنه العمل. العمل دائماً والعمل أيضاً».

وتكاد تكون عادة لديها أن تنسى شيئاً ما في غرفته: وشاحها، مثلاً، أو علبة أرياش الساميسن، أو أي شيء آخر.

«يا لها من حياة! حين عدتُ إلى المنزل ليلة أمس، لم أجد ماءً ساخناً لصنع الشاي. وبينما كنتُ أقلِّبُ الأواني والحوائج في المطبخ عثرت يدي على فضلات طعام الفطور. كانت باردة. وكلُّ شيء بارد! هذا الصباح لم يأت أحدٌ لاستدعائي فاستيقظت عند العاشرة والنصف في حين كنتُ مصمّمةً على المجيء لألقي عليك تحية الصباح عند السابعة صباحاً!»

كانت تحدّثه بمثل تلك الأمور أو إذا ابتغت التنويع، فعن النزل الذي التقت فيه الزبون الأول، ثمّ التالي ثمَّ الذي يليه، مُستغرقةً في سرد تفاصيل ارتباطاتها لليومِ، نهاراً وليلاً. وكلُّ ذلك في استعجالها الذي لا ينتهي.

«سأعود فيما بعد، كانت تقولُ له تكراراً بعد أن تشرب كوبَ ماء قبل أن تغادر. إلاّ إذا استحال علي أن آتي. هناك ثلاثون زبون، ولسنا سوى ثلاث. فقد يطرأ عملٌ إضافي».

وما أن تهمّ بالمغادرة حتّى تقولُ مجدّداً:

«يـا لهذه المهنـة! إنّهم ثلاثـون ونحنُ ثـلاث فتيـات. والأدهى أن إحداهما هي الأكبر سنّاً والثانية هي الأصغر سناً من بين فتيات الغيشا اللواتي يعملن في المنـطقة، ولـذلك أجـدني الأكـثر انهاكـاً. أيُّ شـحّ هذا! إنهم مجموعة سيّاح في رحلة منظّمة أو شيء من هذا القبيل... ثلاثون زائراً يحتاجون ست فتيات على الأقل. ولكنْ صبـراً! سأذهب الآن. أشرب كأساً ولن أعدم وسيلةً لتلقينهم فنون العيش!»

كانت الأمور تجري على ذلك النحو وتتكرّر يوماً بعد يوم. وكلّ ما تستطيع كوماكو أن تمنّي نفسها به، حين يلحّ عليهـا السؤال عن مصير كلّ هذا، هو أن تلوذ بالفرار، أن تهرب وتختبىء في مكانٍ ما. غير أنّ تلك الغشاوة الشفيفة من اليأس والحيرة، مـا كانت لتجعلهـا إلاّ أكثر إغواءً وإثارة.

«إنّ الأرضيّـة الخفية في الـرواق تطقـطقُ دائماً. ومهـما حـاولت أن أجعـل خطواتي خفيفـةً ومتأنّيـة فإنّ هنـاك دائـماً من يسمعني فتنـاديني إحدى الفتيات من المطبخ قائلة: «ما الأمر يا كـوماكـو، «غرفـة ورود الكاميلية» أيضاً»؟ لم أحسب أبداً من قبل أنّه سيتوجب علي ذات يـوم أن التفت إلى ما ينالُ من سُمعتي!

ـ إنها بلدة صغيرة!

ـ صغيرة جدّاً؛ إنّه موضع مثالي لثرثرتهم! كلّهم يعلمون بالأمر.

ـ لكنّهـا عـادة سيئـة، سيئـة جـدّاً! وينبغي ألاّ تـترك الأمـور عـلى غاربها.

ـ في مثـل هذه النـواحي البائسـة من العالم يكفي أن تلوك الألسن

سمعتك فتكون نهايتـك قد أوشكت! قـالت موضحـةً، لكنّها أرفقت كلامها بابتسامة مفعمة بالرقّة وهي ترفقه بنظراتها. وما الأهميّة في كلّ ذلك؟ في مهنتي لا يصعبُ أن أجد عملاً أينما حللت».

لم يكن في استطاعة شيماموراً المتبطّل، والرجـل الذي ورث ثـروته عن أبيه أن يُدرك معنى تلك النبرة الصريحة، وتلك التلقائية في التعبير عن المشاعر، عن أكثرها عفوية وبساطة.

«حيثما أذهب، لن يختلف الأمر عمّا هو عليه هنا؛ ما باليد حيلة».

ربّما كان ما تقولـه صحيحاً، إلاّ أنّ هـذا لا يبدّل شيئـاً من إصرار شيـماموراً عـلى اكتشـاف المـرأة الحقيقيـة التي تحتجب تحت مـظهـر اللامبالاة الذي تبديه.

«ولِمَ الشكـوى؟ أردفت كـومـاكـو قـائلةً. فبـأيـة حـال، النسـاء، وحدهنّ، يعرفن كيف يكون الحبّ».

اصطبغ وجهه بحمرة خفيفة، فأطرقت كوماكو مُغضية».

كانت ياقة الكيمونو المنشاة حاسرة بعض الشيء فبدا عُنُقها وبياض ظهرها المقوَّس العاري حتّى الكتفـين. جمال كئيبٌ بعضَ الشيء لتلك البشرة المخضّبة بالمسـاحيق، كأنها تحتـدمُ بالحيـاة تحت غلالـة الذرور البيضاء، فتذكّر قليلاً بنسيجٍ صوفيّ، أو ربّما، بفروة حيوان.

«في عـالمٍ مثل هـذا. . .» ولم يُكمل شيـماموراً عبـارته كـأنّ رعشةً سرت في كيانه للشعور الذي يكتنف الكلام.

حاولت كوماكو أن تخفّف عنه وقالت ببساطة:

«لطالما كان العالمُ على ما هو عليه». ثمَّ أردفت قائلةً بعد أن رفعت رأسها: «أما كنت تدري؟» سألت وهي ترمقه بنظرات ثابتة.

وإذ سترت بحركتها تلك ما بدا من ظهرها العاري، احتجب الأحمر الحريريّ للكيمونو الداخلي عن نظراته المُسترقة.

كان شيمامورا قد ترجم «ڤاليري» و«ألان»، بالإضافة إلى عددٍ من المباحث الفرنسية حول الرقص والتي نشرت خلال العهد الذهبي للباليه الروسي. وكان عازماً على إصدار ترجماته على نفقته الخاصّة في طبعة فاخرة ومحدودة: كتابٌ لن يُجدي الرقصَ الياباني في شيءٍ، على الأرجح، إلاّ أنّه، إذا قُيِّض له أن يُنشر، فسيجزي شيمامورا بعض الارتياح. فقد كان يتمتّع سلفاً باللذة الهازئة التي سيجبه بها نفسه حين يتمّ له ذلك. ومَنْ يدري؟ فربّما نُسِج عالم أحلامه الرقيق خِلواً من الوهم، عالمه الضيّق الكئيب حتّى العذوبة، سعياً وراء تلك اللذة الهازئة وحسب. لا شيء، في الحقيقةِ، لا شيء على الإطلاق يحثّه على القيام بشيء، ولا سبَبَ لديه، إذ يَنْعَمُ بملاذ رحلته، يدفعه لاستعجال أي شيء.

كان احتضار الحشرات وموتها، مثلاً، يستنفدان قسطاً من أوقاته الشاغرة. وكان كلُّ يومٍ جديد يحمل معه، في اشتداد برد الخريف، مزيداً من الحشرات الميتة التي تسقطُ على ظهورها في البداية ولا تستطيع أن تنقلب، فتهتاج وتتخبّط ثمّ تموت. وذات مرّة رأى نحلة، كانت عاجزة عن الطيران، تحوّم قليلاً ثمّ تهوي، وتحاول تكراراً ثمّ

تهوي وتموت. وكان شيمامورا يرى أنها ميتة هانئة تلك التي يسوقها تبدّل الفصول. إلاّ أنّه حين يراقبها عن كثب، كان يرى قوائمها وزبانياتها تهتزُّ في صراعها المؤثر، في صراعها الأخير من أجل الحياة. وكم كان مصرعُها رحباً، واسع الأرجاء، تلك الحشرات الميتة. الضئيلة الحجم: الحصائر الثماني التي تغطي أرضية غرفته!

كان يحدثُ أحياناً، إذ يلمّ بعضَ الحشرات الميتة لرميها خارج الغرفة، أن تراوده خاطرة عابرة بشأن أولاده الذين خلّفهم في طوكيو.

وعلى الشبكة المعدنية التي تغطي نافذته عَلِقت فراشاتُ ليلٍ، ساكنةً بلا حراك، ثمّ بعد وقت، سقطت مثل أوراق يابسة. وبعضها مكث جاثماً على الحائط ثمّ لا يلبث أن ينزلق ويسقط. وإذ يقف شيمامورا متأمّلاً حشرةً ميتة في راحة يده، تستغرقه الأفكار العميقة التي لا نهاية لها حول الثراء الباذخ لتلك الحيوات الهشّةِ وجمالها اللذين إلى زوال.

ثمّ حان الوقتُ الذي تنزعُ فيه الشبيكات من أُطُر النوافذ وتخفتُ جلبة الانشادِ يوماً بعد يوم، وتتباعد مواقيت الصرصرات الحادّة وأنواع الطنين المختلفة والحفيف الخافت لجنس المجنّحات الهشة.

كانت صُهبةُ الصدأ ودكنةُ المسوح المقطّبة، تكسوانِ رويداً سفوح الجبال، وما عادت القِممُ لتتألّق، في الغروب العاجل، بغير ألوان الحجر الرماديّة الباردة.

كان النزل لا يزال غاصّاً بالزائرين الذين توافدوا هرَعَاً لمشاهدة غابات شجر القيقب.

«أعتقد أنني لن أستطيع المجيء لاحقاً. هناك أمسية يُقيمها أهل البلدة».

كان ذلك ما قالته كوماكو قبل أن تغادره، وأصبح بإمكانه أن يسمع صخب المحتفلين في قاعة المآدب يتخلّله صياح النساء الحادّ. كان الاحتفال، على ما يبدو من صخبه، على أشدِّه، عندما فوجىء شيمامورا بصوتٍ، كأنّه انبعث من تحت مرفقه، ويسأله بنرة عذبة: «أتسمح لي بالدخول؟» فانتفض للمباغتة. كانت يوكو تقف هناك.

«لقد أوكلت إليّ كوماكو أن أسلّمك هذه».

ومدّت يوكو يدها بالرسالة كأنّها مجرّد ساعي بريد. ولكنّها استدركت في اللحظة الأخيرة أصول اللياقة، فسارعت إلى الركوعِ قبل أن تسلّمه الرسالة. وخلال انهماكه لثوانٍ في بسط الورقة المطوية مرتين كانت يوكو قد غادرت. ولم يتسنّ له حتّى أن ينبسَ بحرفٍ واحد.

«أمسية حافلة وصاخبة. الشرابُ سيل».

كان ذلك كلّ ما تضمّنته الرسالة التي اكتُتبت دون اعتناء على قصاصة ورقٍ وبيدٍ تغالبُ السُكْر.

ولم تنقض عشر دقائق حتّى جاءت كوماكو بنفسها:

«هل أحضرت لك شيئاً؟

ـ أجل.

ـ حقاً؟ قالت وفي عينها بريق مُكرٍ وابتهاج. آه، لو تدري كم أنا سعيدة! ذلك الساكي الرائع! لقد قلتُ لهم إنني ذاهبة لأطلب المزيد

من الساكي ثمّ تسلّلت إلى هنا. لكنّ البواب رآني. سيّان عندي وما عدتُ أبالي بطقطقة الأرضية الخشبية. فلينمّوا ما طابت لهم النميمة. تبّاً! ما أن أصل إلى هذه الغرفة حتى أشعر بأنني ثملة. تباً وتبّاً! سأعود إلى عملي.

- عقيقية وشَهيّة حتّى طرف الأظافر! قال شيماموراً.

- الواجب يناديني. الشُغل. العمل. هل قالت لك شيئاً؟ يا لفظاعة الغيرة! أتدركُ فظاعة الغيرة؟

- مَن تقصدين؟

- سيُقتل أحدٌ ما ذات يوم؟

- أهي تعمل هنا؟

- هي التي تتولّى إحضار الساكي. ثمّ تمكث هناك تحدّجنا بتلك النظرات المكهربة. عيناها، أحسبُ أنّك مُعجَبٌ بعينيها...

- لا بدّ أنها تحسبُ أنّ ما تفعلينه عارٌ عليك.

- ولهذا السبب أيضاً رجوتها أن تسلّمك تلك القصاصة. ماء، أرجوك أعطني كوباً من الماء. ولِمَن العارِ، أسألك؟ ولكن قبل أن تجيبني حاول أن تغويها قليلاً!»

ثمّ استدارت ودنت من المرآة حيث وقفت مُسندةً كفيها بقوّة إلى طاولة الزينة. «أتراني ثملة؟»

وبعد لحظات أبعدت طرف الكيمونو الطويل بحركةٍ من رِجلها وغادرت.

بعد انتهاء الاحتفال عاد الهدوء ليسودَ في أرجاء النزل. وكان

شيمامورا يُصغي بأذنٍ ساهية فلا يسمع إلاّ جلبة نقـل الأثاث والأواني ناحيةَ غـرفةِ الخـدمة. وخـطرَ له في آخـر الأمر أنّ كـوماكـو لا بدّ أن تكـون رافقت بعض المدعـوين إلى سهرةٍ أخـرى. وفي تلك اللحـظة وقفت يوكو بالباب حاملةً رسالة أخرى.

«قرّرتُ لا أذهب سامسوكان من هنا إلى «صالة البرقـوق» أمرّ بـك ربّما حين عودتي عم مساءً».

تكلّف شيمامورا ابتسامةً صفراء لشدّة ضيقه من حضور يوكو.

ـ شكراً لك، قـال لها. هكـذا إذاً، أتأتـين للمساعـدة في الخدمـةِ هنا؟»

رمقت شيمامورا بعينيها المتوقّدتين. نظرات حادّة وجميلة شعـر بأنها تَنْفَذه إلى الأعماق. فتعاظمَ إحساسُه بالضيق.

فلمجرّد أن يرى أمامَه تلك الفتاة التي كلّما التقاها أثارت في أعماقه مشاعر دفينة، كان شيمامورا يشعرُ بما يُشبـه الضيق، بقلقٍ غامضٍ لا يعرفُ سبباً له. فهي تبدو له، في سُحنةِ الوقار التي لا تفارق وجهها، وكأنّها تقفُ دائماً عند أشدّ العُقَدِ غموضاً وإشجاءً في مأساةٍ عظيمة.

«أحسبُ أنّهم يستغلّون وجودَك هنا على أفضلِ وجه.
ـ لستُ بذاتِ نفعٍ كبير.
ـ ألا تجدين أنّه من المستغربِ أن ألقاك مـراراً؟ المرّة الأولى كـانت أثنـاء سفرك في صحبـة ذلك الفتى، وعنـد توقّف القـطار تحدّثتِ إلى ناظر المحطّة عن شقيقك، أتذكرين؟
ـ أجل.

ـ وقيلَ لي إنَّك تحبين الغناء أثناء استحمامك قبل أن تأوي إلى فراشك.

ـ وكيف عرفت ذلك؟ أيكون القصدُ من ذلك أنني أُسيء التصرّف؟»

كان في روعةِ ذلك الصوت ما يُذهل.

يُخالجني شعورٌ بأنني أعرفك جيّداً.

ـ آه! حقاً؟ ألأنَّك سألت كوماكو؟

ـ كوماكو؟ كوماكو لا تتحدّث عنك. وأحسبُ أنّها تتجنب الخوض في أي محادثةٍ بشأنك.

ـ أدركُ ذلك، بلى»، قالت يوكو التي لم تلبث أن استدارت قائلةً: «إنها فتاة طيّبة، كوماكو، ولم تحظ بحياة سعيدة. عامِلْها بلطف».

كان كلامُها لا يخلو من بعض الانفعال والتأثُر وصوتُها يتهدّج قليلاً.

ـ ماذا أصنع لأجلها؟ ليس في طاقتي أن أصنعَ شيئاً، صدّقيني»، قال شيمامورا وقد بدت له موشكةً على الارتجاف لشدّة توتّرها وارتباكها. ثمّ أغضى قبل أن يفتنه البرقُ الذي سيومض من ذلك الوجه الصارم.

«الأجدر بي أن أعود في أسرع وقت إلى طوكيو، قالَ مبتسماً.

ـ أنا أيضاً أريد الذهاب إلى طوكيو.

ـ متى؟

ـ ذات يوم، لا أعرف متى بالضبط.

ـ وهل سأراكِ هناك، في طوكيو حين أعود إليها؟
ـ بل يسرّني أن أراك».

وإذا أربكه ما تضمّنته عبارتها تلك من وقارٍ شديد برغم نبرتها العاديّة التي لم تُخرج عن نطاق المألوف، سارع شيمامورا إلى القول:

«هذا طبعاً إذا كانت أُسرتك لا تمانع.

ـ ليس لديّ من الأسرة سوى شقيقي الذي يعمل في السكّة الحديد، أجابت. أنا أفعل ما يحلو لي.
ـ ألديكِ ارتباطات في طوكيو؟
ـ لا.
ـ أحسبُ أنّكِ أخبرتِ كوماكو بهذا الأمر!
ـ كوماكو؟ علاقتي بها ليست وديّة. ولم أكلّمها. بهذا الشأن».

كانت نظراتٌ دامعة تلك التي رمقته بها، ومَنْ يدري؟ ربّما كانت أمارة على استسلامها الوشيك؟ وكان شيمامورا، مفتوناً بها يرى أنّها ذات جمالٍ غامض ومُريب. ولكنْ في الوقت نفسه كانت تغمره مشاعر الحنان نحو كوماكو. أليس رحيله في رفقة تلك الفتاة الغريبة الأطوار إلى طوكيو، كما لو أنّه يخطفها، نوعاً من الكفّارة، من العقاب الذي يفرضه شيمامورا على نفسه لكي يعتذر إلى أقصى ما في الاعتذار، لكي يسأل، إلى أقصى ما في السؤال، غفران كوماكو؟

«ألا يُخيفك أن ترحلي بمفردك في رفقة رجل؟
ـ ولِمَ أخاف؟
ـ ألا ترين أنّ في الأمر بعض المخاطرة، كأن تصلي إلى طوكيو دون

أن يكـون لديـك مكانٌ تقيمـين فيـه أو حتّى مجـرّد أي فكـرة عـمّا قـد تفعلينه هناك؟

ـ بـإمكان المـرأة أن تتدبّـر أمورهـا في مطلق الأحـوال. أكّدت لـه بصـوتها الـذي تصدحُ فيـه رنّـةُ التلهُّف العـذبـة. وإذ رفعت عينيهـا وحـدّقت في عيني شيمـورا، سألتـه: «ألا تريـدني أن أعملَ لـديـك كخادمة؟».

ـ ماذا؟ هيّا! أتقولين: خادمة؟

ـ أجل. ولكن لا أريد القيام بالأعمال البيتيّة.

ـ وخلال إقامتك السابقة في طوكيو كيف كان عملك؟

ـ كنتُ ممرّضة.

ـ ممرّضة في مُستشفى أو كتلميذة في معهد التمريض؟

ـ كنت أظنّ ببساطة أن المهنة قد تستهويني».

ابتسم شيمورا، فقد وجدَ في كلامها ما يبرّر تلك العنـاية الفـائقة التي أحاطت بها ابن أستاذة الموسيقى أثناء رحلتهما في القطار.

«أما زلتِ تريدين أن تكوني ممرّضة؟ سألها في حيرة.

ـ لا، ليس بعد.

ـ ولكن ينبغي أن تُصمّمي على خيار مـا. إذا لا يُعقل أن يتـرجّح الأمرُ إلى الأبد. فالمرء لا يستطيع أن يحيا دائماً في حالة من التردّد.

ـ التردّد؟ لكنّني لست متردّدة على الاطلاق. المشكلة ليست هنا!»

وكانت تضحكُ حقّاً، كأنّها تستعين بالضحك لدفع اتهام شيمورا عنها.

ضحكـة واثقة وعـذبة، كصـوتها الـذي يبدو عـلى الدوامِ مُكتنفـاً

بأماكن بعيدة لامتناهية، كأنه منبثقٌ من العُزلة. ضحكة ليست مدويّة أو قويّة، بل كأنها بعد أن تنطلق وعبثاً تقرعُ باب قلب شيامـورا تعودُ إلى كنفِ الصمت.

«لا أرى في الأمــر مـا يُضحـك.

ـ بلى، بلى. فهناك رجلٌ واحد استطعت أن أبذل له كـلّ الرعـاية فعلاً، قالت موضحةً فيما مكث شيامورا مجدّداً في حالة ذهول. والآن أصبحت عـاجزة عن بـذل مـا بـذلتـه، أردفت يـوكـو قـائلةً بصـوتٍ خفيض.

ـ أفهم ذلـك، قالَ مُـرتبكاً لإحســاسه بـالمفاجـأة. يزعمـون أنّـك تزورين المقبرة باستمرار.

ـ هذا صحيح.

ـ ولن يكون في حياتك المتبقية من تبذلين له العناية؟ ومن تزورين قبره؟

ـ أبداً. على الاطلاق.

ـ إذاً كيف يسعـك أن تغادري المقـبرة وتهجري القـبرَ للذهاب إلى طوكيو؟

ـ أنا آسفة، ولكن أتوسّل إليك: دعني أرحل برفقتك.

ـ كوماكو تقول إن غَيرتُك فظيعة. ألم يكن الشاب خطيبها؟

ـ يوكيو؟ لا، غير صحيح. كَذِب. غير صحيح!

ـ ولكن بلى، أنت لا تحبّين كوماكو؟ لماذا؟

ـ كوماكو. . . ، همّت تقولُ وكأنها تخاطب شخصـاً آخر في الغـرفة فيما نظراتها المتوقّدة ترمقُ شيامورا بثبات. كوماكو، عاملها بلطف!

ـ لا أستطيع شيئاً لأجلها».

كانت عيناها مليئتين بـالدمـع، وفيما تكتمُ نحيبهـا مَعَست بقدمهـا فراشةً صغيرة فوق الحصيرة.

«تقول كوماكو أنني سأصبح مجنـونة!» قـالت بنبرة خـاطفة قبـل أن تغادر الحجرة.

مكثَ شيمامورا لبعض الوقت لا يتمالك رعشةً سرت في أوصـاله. ثمّ نهض وفتح النافذة ليرمي الفراشة الميتة. فوقعت عيناه على كوماكو مُترنّحةً من السُكْر تُبادلُ أحد الزبائن أحاديث الليـاقة المهنيـة. كانت مُنحنية إلى الأمام حتّى تكـاد تفقد تـوازنها، كأنها تبـذل ما في وسعهـا للتملّص من أمسية أخرى. كانت الغيوم تحجب السماء كلّها. فغـادر شيمامورا غرفته لكي يستحمّ.

كانت تُحدِّثهـا بصوتٍ خفيض مُفعمٍ بـالرقّـة وحنان الأمومة وتنزعُ عنها ملابسها لتغسلها. صوتُ أمٍّ شابّة شجيُّ النبراتِ رقيقها لا يبدّل الغناء من رقّته شيئاً:

أترى هناك، هناك، هناك
ثلاث شجرات أرز، ثلاث شجرات إجّاص،
مجموعها ستّ شجرات، أتراها؟
تحتها أعشاشُ غربان
وفوقها أعشاش الدواري.
أيكون لديها أغنية جديدة:
هاكامايري

إيتشو، إيتشو، إيتشويا(*)

لم تكن الأغنية سوى دوّارة كتلك التي تنشدها الفتيـات الصغيرات أثناء لعبهنّ بالكرة، إلاّ أن يوكـو أضفت على الـترنيمة العبثيّـة إيقاعـاً مُتسارعاً وحيّاً ما جعل شيمامورا يسأل نفسـه إذا كانت يـوكو الأخـرى التي رآها ليست سوى فتاةٍ في حلم.

واصلت ثغثغتها الحنون مع الطفلة وألبستهـا ثيابهـا ثمَّ، يدأً بيـد، غادرتا الحمام. مكث شيـمامورا لبعض الـوقت كأنَّ تمـوّج الصـوت لا يزال يصدح في الأرجاء كالصدى المتطاول الذي يخلّفه نغم المزمار.

على الأرضية المصقـولة للرواقِ العتيق رأى شيـامـورا عُلبـةً لآلـة ساميسن تركتها هناك إحـدى فتيات الغيشـا: بدت في عينيـه كتابـوتٍ صغـير يُجسِّد عِبـرةَ ذلك الخـريف المتريّث الغـارق في أعمق سكنَـاتِ الليل. وما أن دنا منه شيمامورا قليـلاً ليقرأ اسم صـاحبة العلبـة حتى خرجت كوماكو بغتةً من المكان الذي تصدر عنه جلبة غسل الأواني.

ـ ماذا تفعل؟

ـ أكانت ستقضي الليل هنا؟ سأل شيمامورا.

ـ من تقصـد بـ «كانت»؟ لا تكن غبيّـاً! أوتظنّ فعـلاً أننا نحمـل هذه الآلات معنا حيثما ذهبنا؟ إننا نتركهـا في النزل حيث تبقى أحيـاناً مركونةً فيه لأيام طويلة».

(*) إيقاع نغمي يُحاكي انشاد الطيور ويعني حرفيـاً: «مئة مـتر نحو المقـبرة، ومئة أخرى، ثمّ مئة وها قد وصلنا».

كـان جوابُهـا مصحوبـاً بضحكاتٍ لا تتـمالكها ولكنَّهـا سرعان مـا أغمضت عينيها وبدا وجهها مقطّباً مشدود القسمات.

«هلاّ رافقتني إلى النزل؟

ـ لستُ مرغمة على العودة، أليس كذلك؟

ـ بـلى، يجب أن أذهب. لقد غـادر الجميع إلى أمسيـاتٍ أخـرى. لذلك ليس عـلي أن أمكث لوقتٍ طـويلٍ هنـا حيث لديَّ من ألقـاه. غير أنَّهن سيعاودن القيل والقال إذا خـطر لهنّ مثلاً أن يصطحبنني إلى الحمّام في طريق عودتهن ولا يجدنني في المنزل».

وبرغم ترنّحها لشدّة السكر استطاعت أن تهبط الطريقَ نحو البلدة برشاقة وخفّة.

«ـ لقـد أفلحت جيّـداً في أن تـدفـع تلك الصغـيرة، يـوكـو، إلى البكاء! قالت له معاتبة.

ـ لقد لاحظت أنها مُختلّة العقل قليلاً؟

ـ وأنت، أيستهويك مثل هذا النوع من الملاحظات؟

ـ ولكن، أنسيتِ أنَّـكِ أنتِ من قال هـذا؟ والحقيقة أنها لم تـذرف دموعها إلاّ عندما تذكّرت قـولك، وهنـاك ما يجعلني أعتقـد أنّها بكت حقداً عليكِ وليس لما أحسّت به من الأسى.

ـ آه! هكذا إذاً، يروقني هذا التفسير.

ـ بأيّة حال، بعد أقل من عشر دقائق كانت في الحمّام تغنّي بصوتٍ ولا أعذب.

ـ لطالما استهواها الغناء في الحمّام.

ـ لقد أوصتني أيضاً وبوقار لا يوصف أن أعاملك بلطف.

ـ يا لغبائها؟ ولكن ما حاجتك لأن تخبرني كلّ هذا؟
ـ ولماذا تسألين؟ وأنتِ لماذا تغضبين ما أن يردُ ذكرها في أحاديثنا؟
ـ ألا تشتهي أن تنالها؟
ـ أرأيتِ، مثل هذا صنيعك! مع أنني لم أقل شيئاً يدفعك إلى مثل هذا الكلام.
ـ أنا جادّة فيما أقول، قالت كوماكو بإلحاح. عندما أراها أشعر كأنها عبءٌ يثقُلُ كاهلي ولا أستطيع التخلص منه. مهما قلت، على الأقلّ هذا ما أشعر به. وإذا كنت تكنّ لها شيئاً بالفعل فحاول أن تنظر إليها جيّداً ولو مرّة واحدة: وعندئذٍ ستدرك معنى كلامي».

وإذ فرغت من كلامها وضعت كوماكو يدها على كتفه وانحنت قليلاً ثمّ صرخت بغتةً:

«لا، لا! ليس هذا!... فلو أنّها وقعت على أحدٍ مثلك فربّما نَجَت من الجنون. هذا العبء، هلاّ أزحته عن كاهلي؟
ـ ألا تبالغين بعض الشيء؟
ـ أنت تحسبُ أنني ثملة وأتكلّم جزافاً، ولكنَّ هذا غير صحيح. لو أني أطمئنّ إلى أنها أصبحت بين أيدٍ أمينة، وأني، أخيراً، سأقدر أن أواصل عيشي الضئيل هنا مُتحرّرة من عبئها، لكان ذلك منتهى ما أرتضيه من العيش!
ـ كفى!
ـ أوه! دعني وشأني!»

كانت قد ابتعدت عنه راكضةً ثمّ ألقت بنفسها على باب منزلها المغلق.

«ربما حسبوا أنّك لن تعودي هذه الليلة.
ـ لابأس. أعرف كيف أفتحه».

طقطق الباب العتيق وأصدر أزيزاً عندما رفعته كوماكو قليلاً لتحرير المزلقة كيما تفتحه.

«ادخل لترافقني إلى الباب الداخلي.
ـ أنَسيتِ كم الساعة الآن.
ـ وما الفرق؟ كلُّهم نيام».

مكث شيمامورا متردّداً.

«وإلّا رافقتك أنا إلى النزل.
ـ سأعودُ بمفردي، لا داعي لذلك.
ـ ولكنّك لم ترَ غرفتي بعدُ!»

دخلا واجتازا عتبة الحجرة حيث ينام أفراد الأسرة كلّهم فوق مرتبات دقيقة فُرِشت على الأرضية في كلٍّ اتجاه: أخيلة مكوّمة فوق مَرتباتٍ عتيقة خيطت من القطن الريفي الخشن. كانوا هناك، تحت كُمّةِ المصباح الشائطة في مواضع منها، الأب والأم وخمسة أولادٍ أو ستّة، أكبرهم في السادسة عشرة على الأكثر. وبرغم ما قد يثيرُه ذلك المشهد من إحساسٍ بالفقر المدقعِ فإنَّ ثمة ما يوحي، وراء المظهر، بدفقٍ من العافية الزاخرة بالحياة، كامنةٍ في انتظار أن تُطلق.

وإذ لفحت وجهه أنفاسُ النائمين الحارّة، أراد شيمامورا أن يعود أدراجه نحو الباب فأغلقته كوماكو على مهل وسارت قُدُماً حتّى طرف الحجرة دون أن تُداري وقع خطواتها. فتبعها شيمامورا على رؤوس

أصابع قدميهِ مُسرعاً ينقّل خطواته في حذرٍ بين الوسادات التي استلقت عليها رؤوس الأولاود النيام. كان يشعر بضيقٍ غريب وقد أطبق على صدره.

«انتظر، سأصعدُ لأشعل النور.
ـ لا، شكراً. سأتدبّر أمري».

وراح يصعد درجات السلّم في العتمة المطبقة. وفيما كان يلتفت إلى الوراء وقعت عيناه على دكّة السكاكر مباشرةً بمحاذاة غرفة نوم العائلة.

في الحجرات الأربع المفرطة في بساطتها التي تتألف منها الطبقة العليا، كانت الحصائر أكثر من بالية.

«أعترف أن المكان أوسع من أن يُخصَّص لسكن شخصٍ واحد، «قالت كوماكو.

كانت الحواجز الفاصلة بين الحجرات قد نُزعت، وعند طرف الغرفة، بعيداً جداً عن الأبواب المتحرّكة ذات المربعات الورقية المصفرّة والمفضية إلى الرواق الخارجي، كان فراشُ كوماكو يبدو مستوحداً وضئيلاً. في الحجرة الداخلية أكوام من الأثاث المنهوك والحوائج العتيقة التي لا يمكن إلاّ أن تكون مُلكاً للعائلة المضيفة. وعلى الإطار البارز عُلّقت كيمونوات كوماكو المخصّصة للمناسبات. وكان المشهد في مجمله يذكّر شيمامورا بجحر غُريرٍ أو ثعلب.

بعد أن جلست كوماكو على طرفِ فراشها الصغير، ناولت شيمامورا أريكتها الوحيدة. ثمّ انحنت قليلاً قبالة المرآة وقالت:

«أرى لوني قرمزياً! ألهذا الحدِّ أفرطت في الشراب؟»

وراحت تنقر صفحة المرآة بإصبعها لبعض الوقت.

«خُذ! هذه يوميّاتي.

ـ أحسبُ أنها مجلّد ضخم». قال شيمامورا وهو يزن الرزمة بكفّه.

كانت قد فتحت علبة كرتون عبثت بالسكائر حتى الحافّة.

«بما أني أدسّها في كمّي أو تحت الأوبي عندما يقدمونها لي، فقد تجد بعضها مدعوكاً، لكنّها سليمة. وللعِوَض لديّ من كافّة الأنواع. تشكيلة كاملة.

وفيما كانت تتابعُ كلامها راحت ترجّ العلبة قليلاً لكي يتسنّى لشيمامورا اختيار التبغ الذي يعجبه.

«ولكن ليست لديّ أعواد ثقاب، فاعذرني. لقد أقلعت عن استعمالها بعد إقلاعي عن التدخين.

ـ لابأس، شكراً. وكيف تتدبّرين أمور الخياطة؟

ـ أحاول أن أزاول الخياطة من وقتٍ لآخر، ولكنّ توافد السيّاح في موسم القيقب بات يستنفد أوقاتي كلّها!»

وفيما كانت تتابع كلامها مالت قليلاً لتُبعد أدوات الخياطة والقماش من أمام الخزانة.

كانت قطعة الأثاث المصنوع من خشب صقيل وعلبة الخياطة المزركشة باللكّ الأحمر اللتان احتفظت بهما من عهد إقامتها في طوكيو، تبدوان هناك كما كانتا في العليّة التي تشبه صندوقاً من الورقِ

العتيق. إلاّ أنّهما إذا وضعتا في تلك الشقّة ذات الحجرات البائسة في الطبقة العليا من منزل ريفيّ جدّاً، لم تُضفيا على بؤسِ المكان إلاّ المزيدَ من مظهر التنافر.

كان يتأمل الشريط الذي يتدلّى من الحائط فوق وسادتها.

«هذا لكي أطفىء النور عندما أقرأ في الفراش» قالت له موضحةً وقد أمسكت بالشريط وجذبته نحوها لكي تشرح له كيف يعمل.

وبرغم كلّ ما أبدته من براعةٍ في دور سيّدة الدار اللطيفة والبارعة في مجاملة الضيوف، فإنّها لم تُفلح، مع ذلك، في التغلّب على بعض الضيق الذي أصابها.

«يبدو لي أنّك تقيمين في الجحر الذي لا يلائم طباعك تماماً كأنثى الثعلب في حكاياتنا الخرافية: فتَرفُكِ يُصبحُ خرافياً في كنفِ هذا الفقر.

ـ بلى، بالضبط.

ـ وتعتزمين قضاء أربع سنوات هنا؟

ـ لقد مضت سنة منها تقريباً، والسنوات الأخرى ستمضي بسرعة».

كان إحساس شيماورا بالحرج يتعاظم أكثر فأكثر. ماذا يقول بعدُ؟ وبدا له أنّه يسمع أنفاس أفراد الأسرةِ النائمين في الطبقة السفلى. فنهض لكي يُنهي زيارته.

راحت كوماكو التي لم تغلِق الباب وراءه، تحدّق في السماء.

«لقد بدأت تهبُّ نسائم الثلج، قالت. إنها نهاية أوراق القيقب».

ثمَّ اجتازت بدورها عتبة المنـزل مُردّدةً في كنفِ الليـل أبيات شعـرٍ حفظتها من مسرحية كابوكي(*):

لأنّنا هنا وسط الجبال

يتساقط الثلج ولم تتساقط بعدُ أوراق القيقب كلّها»

فتمنّى لها شيامورا ليلة طيبة.

«ـ انتظر لحظة. سأرافقك إلى النزل. حتّى الباب، وليس أبعد!.

مع ذلك، رافقته إلى غرفته.

«هيا استلقِ في فراشـك، قالت لـه ثمَّ غابت لبعض الـوقت وحين عادت كانت تحمل بيديها قدحين من الساكي مُترَعين.

ـ قدح صغير، قالت فور دخولها. سنشربُ قدحاً صغيراً.

ـ ألا ينامون في هذا النزل؟ أين وجدتِ هذا؟

ـ أعرف أين يضعون الساكي».

لا بدّ أن كوماكو شَرِبـت أثنـاء سكبها الشراب من الـبرميل. فقـد عاودتها حالة السكر، وبعينيها شبـه المغمضتين راحت تتـأمل السـائل المسكر يسيلُ على يدها.

«ومع ذلك، ليس مُمتعاً أن تشرب في العتمة!»

(*) يُعدُّ مسرح الكابوكي، إلى جانب النو والجوروري، من الأنواع الكلاسيكيـة في المسرح اليـاباني. ازدهـر في القرن التـاسع عشر، ومـا زال يُـلاقي إقبـالاً شعبياً كبيراً.

تناول شيهامورا طائعاً القدح الذي قدّمته له وشرب.

كانت مثلُ تلك الكميّـة القليلة من الساكي لا تُسكـره في العادة؛ ولكن ربّما كان ذلك بسبب البرد الـذي أحسَّ به في طـريق عودتهـما. لذلك مـا أن شرب قدحُـه حتى ساءت أحـواله. دُوار وغثيـان ورعدة سرت في أوصـالـه وشحـوب. أغمض عينيـه وتمـدّد عـلى الفــراش الوطيء. فهرعت كوماكو قَلِقةً واحتضنتـه بين ذراعيهـا فسرت حرارةُ جسمها في جسمه المريض ومنحت شيهامورا إحساساً طفوليـاً بالـراحة والأمان.

كانت تحتضنه بين ذراعيها بالحنوّ المتردّد والخجول الـذي قد تبـديه في احتضـان طفلها أمٌّ صغـيرة لم تُرزق ولـداً من قبـل. كـانت تسنـد رأسه بساعدها وتدني وجهها منهُ كأنّها تهدهدُ طفلاً نائماً.

«أنت لطيفة وطيّبة.

ـ أنا؟ لماذا؟ ماذا فعلت؟ وماذا أكون؟

ـ لطيفة وطيبة.

ـ لا يجـدر بك أن تسخـر منّي» قالت وقـد أبعدت وجههـا قليلاً، سـاهيةَ النـظرات. ثمَّ راحت تهـدهـده بـرفقٍ، وتصـاحبُ حـركتهـا عباراتٌ قصيرة متقطعة كانت تردّدهـا في شبه ابتسـامةٍ كـأنّها لا تبتسمُ إلّا لنفسها.

«لستُ لـطيفة ولا طيبـة ـ كما ليس من السهـولة في شيء أن أراك هنـا. ـ الأحرى أن تعـودي إلى منزلـك. ـ لطالما أردتُ أن أرتدي كيمـونو مختلفـاً كلّما أتيتُ لزيـارتك، وفي آخـر الأمر لم يبق لـديّ مـا أرتديه. أما هذا فقد استلفته لليلة. إذاً! أنت ترى جيّداً أنني لستُ،

أنني لستُ على الإطلاق كما تقول!»

مكث شيهامورا صامتاً.

«إذاً، ما اللطف الذي تراه فيَّ؟ أردفت قائلةً وقد هدّجت اللهفة صوتها عندما التقيتك لأول مرّة قلت في سرّي أنني لم ألتقِ من قبل رجلاً منفّراً مثلك. الآخرون لا يتكلّمون أبداً كما تكلّمت أنت. ولا يقولون الكلام الذي قلته. فكرهتُك، كرِهْتُك!

أشار شيهامورا موافقاً.

«والآن، قالت، ربّما تدرك سبب امتناعي عن التلميح بهذا الشأن؟ فعندما يصل الأمر بامرأة ما إلى البوح بمثل هذه الأشياء، فهذا يعني، صُدقاً، أنها وصلت إلى أقصى ما في وسعها.
- على هذا النحو تكون الأمور على أحسن ما يرام.
- حقاً؟»

اكتنفهما الصمتُ معاً: هي، التي بدت غارقةً في أنظارها، وشيهامورا الذي يتلذّذ بحرارة جسدها المتوقد فيجعل من وطأة حضورها الأنثوي بهجةً للحواس.

- امرأة ممتازة! قال.

- ماذا؟

- امرأة ممتازة.

- يا لغرابة أقوالك!»

كانت قد أدارت رأسها كأنّها تريد أن تتخلّص من دغدغةٍ يُسبِّبها ذقن شيهامورا المتكىء على كتفها.

ثمّ بغتةً، ودون أن يعرف لماذا، رفعت رأسها قليلاً وأسندت جذعها بمرفقها، وقالت مغيظةً مُرتعشة الصوت:

«امرأة ممتازة، إذاً؟ ما الذي تقصده بقولك؟ ما الذي تقصده؟»

حدّجها شيهامورا بنظراتٍ ثابتة دون أن يجيب.

«اعترف: لهذا السبب جئت! أنت تسخر مني! ولا تبالي!»

كانت ترمقه بعينين متوقّدتين وقد احتقن وجهها غضباً وسرت رعدة عنيفة في كتفيها. إلاّ أنّ ذلك السعير ما لبث أنَ خبا بغتةً وأعقبته دموعٌ غزيرة بلّلت وجهها الممتقع.

«أكرهك! أوه! كم أكرهك!»

«وإذ تقلّبت مبتعدةً عنه، غادرت كوماكو الفراش وجلست على الأرضيّة وقد أولته ظهرها.

عندما أدرك شيهامورا أيَّ خطأ اقترفه أحسّ بما يُشبه الطعنة في الصميم. فمكث مُستلقياً، صامتاً مغمضَ العينين عاجزاً عن الحراك.

«أوه! ما أكبر الضغينة في قلبي» أسرّت إلى نفسها بصوتٍ خفيض وقد ألقت برأسها على ركبتيها منتحيةً فبدا جِسْمُها مكوّماً مثل كرة.

وعندما ذرفت كلَّ ما في مقلتيها من دموع، مكثت هناك، تنقبُ الحصيرة، بعصبيّة ظاهرة، بواسطة دبّوس فضيّ كانت قد انتزعته من تسريحتها العالية. وبعد هنيهات غادرت الحجرة.

لم يكن شيهامورا قادراً على اللحاق بها. فقد كانت محقّة في

إحساسها العميق بالمهانة. . .

إلّا أنها ما لبثت أن عادت أدراجها، حافية القدمين متأنيةً في مِشيتها لكي لا تحدث أي جلبة.

«ألن تذهب إلى الحمّام؟ سألت من وراء الباب بصوتٍ خجول وثاقب.

ـ إذا شئتِ

ـ أعتذر، قالت أيضاً، لقد أخطأت».

وحين رأى شيامورا أنّها لا تريد أن تدخل، التقط منشفة وخرج إلى الرواق حيث مشت أمامه مطرقةً كأنّها جانحة تقتادها الشرطة.

وما أن دخلا إلى الحمّام حتّى سرى الدفءُ في كيانها فاستعادت بشاشتها، لا بل بهجتها، وبدت كعادتها مُقبلةً على الحياة زاخرةً بالنشاط والحيوية حتى أنّها حين عادا إلى الغرفةِ لم يشعرا أنهما في حاجة إلى النوم.

عند الصباح استيقظ شيامورا على صوتٍ يتلو نصّاً من نصوص النو، فلم ينهض بل مكث لبعضِ الوقتِ مُصغياً.

التفتت كوماكو التي كانت جالسةً قبالة المرآة، وابتسمت له.

««ضيوف صالة البرقوق» . لقد استدعوني بعدَ الاحتفال الأوّل، ألا تذكر؟

ـ أليسوا هواة الـ «نو» المسافرين؟

ـ بلى.
ـ هل تساقط الثلج؟
ـ أجل.

نهضت لتفتح النافذة.

«أنها نهاية موسم أوراق القيقب» قالت.

كانت النافذة تطلّ على سماء رماديّة تتساقطُ منها، نـديفاتٌ كبـيرة الحجم، كأنها أزاهير الفوانيا البيضاء، تهرع إليهـما في صمت متناغمٍ وعـذبٍ كأنّـه خرافـة. استسلم شيمامـورا لتلك الصورة، شـاغراً من الداخل كما يكون الشغور من داخل بعد ليلة بيضاء.

كان هواة الـ «نو» يصاحبون إنشادهم بقرعٍ على الطبول.

فاستغرقته ذكرى ذلك الصباح الثـالج، في أواخـر العامِ المنصرم، والتفت نحـو المرآة. كـان تساقط الفـوانيا البـاردة البيضـاء يـرسمُ في غزارته المتزايدة ما يشبه الهالة المتراقصة حول قامة كومـاكو التي تمسـح عنقها بفوطةٍ خلَل ياقة الكيمونو الحاسرة.

مـرّةً أخرى أحسّ شيمامورا بـروعةِ تلك البشرة النضرة المتعـافية، تلك البشرة البضّـة والنقيّة التي تـذكّـر بنقـاء الغسيـل الـذي يُنشرُ في الهواء الطلق. لا، لم يكن وهماً من أوهامه أن يرى فيهـا صورة المـرأة التي لا تستطيع إلاّ أن تشعر بالمهانة العميقة حيال بذاءته؛ فما استطاع إلاّ أن يرضخ للحقيقة التي أفعمته حزناً وأسىً.

كان الجبل الـذي بدا كـأنّه يـوغلُ مبتعـداً إذ بهتت ألوان الخـريف الصهباء، قد استعاد ألقه وشموخه تحت الثلج.

أمـا أشجار الأرز المتشحـة بغلالـة شفيفـة بيضـاء فكـانت تنبثق، شاهقةً، من الأرض المكسوة بالثلوج، لا ككتلةٍ معتمة ومتداخلة، بل منفردة، كلّ شجرةٍ وظلّها البارز بوضوح.

- ٩ -

في الثلج يغزلُ الخيطُ، وفي الثَلْج يُنسَجُ. والثلجُ هو الذي يغسِـلُ النسيجَ وينظّفـه. الصُنعةُ كلّهـا، بدايـةً وختامـاً، من الثلج. «نسيج شيجيمي لم يوجدإلاّ لأنَّ الثلج موجود: فبالإمكان القول إن الثلج هو أصلُ الشيجيمي»، كما كتب أحدُهم منذ زمنٍ سحيق.

لا تنهمك أيادي النساء طوال الأشهـر المثقلة بثلوج الشتاء، في بلد الثلوج، إلاّ بالغزل والنسيج، وتحويل محاصيـل الحقول المـترامية عـلى سفـح الجبلِ من القنّب إلى قمـاشٍ خفيف. وكان شيـامـورا الـذي يعرف جيّداً قيمة ذلك القماش، يبحث في حوانيت طوكيو القديمة عن قِطَعٍ منه لصُنعِ كيمونوات الصيف. وقد أتاحت له صـلاته العـديدة في عالم الرقص أن يكتشف دكاناً لبيع الملابس العتيقة الخاصـة بمسرح الـ «نو»، واتّفق مع صاحبه على أن يكون هـو، شيـامـورا، أوّل من يعلم بـوصول قـطعة من الشيجيمي الأصـلي حـالما تقـع بـين يـدي التاجر.

يُحكى أنَّ في الأزمنة الغابرة كانت أسواقُ الشيجيمي التي تُقام بعد ذوبان الثلوج، أي في فصل الـربيع عنـدما تُنْـزَع الشبكيّات الـواقيـة عن نـوافذ الشتـاء، تستقبل، أنـاساً يفـدون من مختلف المناطق بغيـة

شراء ذلك القماش النادر، ومن بين هؤلاء تجّار الحواضر الأثرياء الذين يقصدونه من إيدو وناغويا أو أوساكا، وكانت لهم مقصوراتهم الخاصة في النُزُلِ التي تستقبلهم حسب التقاليد. وكان شبّان المنطقة كلّها بالطبع يهبطون من السفوح البعيدة بنتاج أشهر العمل الستة الأخيرة. وعندئذ تسودُ أجواء احتفال حقيقي، فتُعرض في صفوفٍ متراصفة على دككِ البائعين بضائعُ من كلٍّ نوع، ويعلو صراخ البائعين الجوّالين، وتُقامُ العروض التمثيلية المختلفة التي يتحلّق الشبّانُ والشابات حولها مُحتشدين. كانت أثواب القماش المعروضة تحمل قصاصات ورق كُتب عليها اسم صانعها وعنوانه، ذلك أنّ نهاية الاحتفال تشهدُ مسابقةً لاختيار أفضل انتاج وأكثره اتقاناً. كما أنّ الاحتفال مناسبةٌ للبحث عن طالب زواج ملائم. فالفتيات اللواتي يتعلّمن أشغال النسيج منذ الطفولة، يُنجزن أفضل انتاجهنّ بين سن الرابعة عشرة والرابعة والعشرين. بعد ذلك يفقدن رشاقة الحركة، وفيها تكمن قيمة نسيج الشيجيمي، التي كانت لهنّ من قبل. لذلك تكونُ المنافسةُ على أشدّها بين الفتيات اللاتي يعملن بكدٍّ يوازي شغفهنّ طوال الأشهر التي يمكثن فيها حبيساتِ الثلج، أي من الشهر العاشر عندما تبدأ أشغال الغزل، إلى القمر الثاني عندما يتمّ التبييض في الحقول والمروجِ والجنائن التي يكسوها الثلج.

بعض كيمونوات شيمامورا صُنعت من القماش الذي نسجته تلك الايدي الأنثوية نحو أواسط القرن الماضي على الأرجح، وقد اعتاد هو أيضاً أن يرسلها «للتنظيف(*) بواسطة الثلج». وبرغم المشقّة التي

(*) للتنظيف والتبييض مفردة واحدة في النصّ، والمؤدى العربي هو إياه. فأكثرنا =

يتكبَّد غاسلُ تلك الأنسجة القديمة، بعد أن كَسَتْ أجساداً كثيرة، فَحَسْبُه أن تتراءى له فتيات الجبل المنهمكات بنسجها لكي يشعر بالحاجة الملحّة لأن تُبيَّضَ حسبَ التقاليد المتّبعة في بلدِ الثلوج حيث صنعَ القماش وحيث عاشت النساجات العذراوات. ولمجرّد أن يتخيّل ذلك القنّب الأبيض الممدود على الثلج والممتزج به لكي يتورّد تحت أشعة الشمس المشرقة، كان شيمامورا يشعُر بزخمِ ذلك الإحساس بالطهارة، ليس فقط بأنّ كيمونواته قد خلَّفت هناك وخمَ الصيف ودنسه، بل كأنّه هو أيضاً قد تطهَّر منها. قد لا يكونُ البتّة في إحساسه ذاك أكثر من إفراطٍ في ميوله العاطفية التي لا مسوّغ لها، لأنّ العمليّة كلّها تتمُّ بواسطة مَغسل متخصّص في طوكيو، ولا شيء يؤكد على الإطلاق أن الكيمونوات تُغسلُ فعلاً «بواسطة الثلج» على الطريقة القديمة.

كان الغَسْلُ «بواسطة الثلج» يتمّ منذ عصور وعصور على يدِ أناسٍ محترفين: فالنسّاجون أنفسهم ليسوا معنيين بذلك. كان غسلُ الشيجيمي الأبيض يتمّ عند الفراغ من نسجه أما القماشة الملوّنة فتُنجزُ فوراً على الإطار، وقطعةً تلو القطعة أثناء عملية النسج المتواصلة. وأكثر المواسم ملائمةً لمثل تلك الأعمال توافقُ أشهر القمرين الأوّل والثاني. وهكذا كانت المروج والجنائن تتحوّل في تلك الأوقات من السنة إلى مشاغل غسلٍ وتنظيف.

يعمد المنظّفون أوّلاً إلى نقع الخيط أو القماشة في مياه ممزوجة

= استخدام الأولى حيث مؤدى القول يفيدُ شأناً عملياً. والثانية حيث يفيدُ «الطهارة» التي تلائمُ مغزى التأمّل في كلام شيمامورا. (م.ع).

بالرماد طوال ليلة كاملة. وفي الصباح يتمُّ غسلها بالمياه النقيّة ثمَّ تُعصر جيّداً وتُنشَرُ عندئذٍ فوق الثلج طوال النهار، ثمَّ تعادُ الكرّة يوماً بعد يوم. وفي آخر الأمر، حسب ما كان قرأه شيماموراً مؤخراً، وحين يُصبح النسيج ناصع البياض ويتلقّى لمسات شمس الصباح الحمراء، يتجاوز المنظر حدودَ أي وصف. «وعندئذ، يُضيف المؤلِّف القديم، يتوافد كلّ سكّان الأرياف الشمالية لتأمّله». وعندما يُصبح بياضَه بياضاً لا شوب فيه، يحلّ الربيع: فقد كان ذلك أمارة حلول الربيع في بلد الثلوج.

والحال أنّ منتجع المياه الحارّة كان يُحاذي المنطقة التي يُنتج فيها نسيج الشيجيمي، نحو سافلةِ مجرى الشلّال حيث تتسع أطراف الوادي بعضَ الشيء. كانت، في الحقيقة، على مقربةٍ حتّى أن شيماموراً لو أراد لاستطاع أن يراها من النافذة. وعلى طول الطريق التي تخترق الوادي، أصبح لكلّ بلدةٍ من البلدات الصغيرة التي تقام فيها أسواق الشيجيمي محطة للسكّة الحديد. فلم تفقد المنطقة، في عصر الازدهار الصناعي، موقعها وأهميّتها في انتاج النسيج.

ولأنّ شيماموراً لا يزور بلدَ الثلوج لا في موسم الصيف عندما يرتدي عادةً كيمونواته المصنوعة من نسيج القنّب، ولا في فصل الشتاء، عندما تُنسج قماشة الشيجيمي التي تستهويه كثيراً، لذلك لم يسبق أن تطرّق في أحاديثه مع كوماكو إلى هذا الموضوع. وحتّى لو فعل، فماذا عساها تقول ممّا لا يعرفه؟ ثمَّ إنّه ليس من طراز أولئك الناس الذين يُبادرون إلى البحث والتنقيب عن بقايا حرفةٍ شعبيّة قديمة.

ولكن عندما سمع صوت يوكو تُنشد الأغنية الطفولية في الحمّام، خطر له فجأة أنّها لو عايشت تلك الحقبة، منذ عهودٍ سحيقة، لأنشدت آنذاك كما تنشد الآن، منكبّةً على عملها ترمي المكّوك بين حركتين مزدوجتين للمغزل. ولبدا له صوتها مصاحباً لإيقاع حركات النسّاجة كما تصورّها له مخيّلته.

إن ألياف قنّب الجبال الأدقُّ من خيط الحرير الطبيعي لا يُمكن تصنيعها على ما يبدو إلاّ في مناخ رطب لا يحلّ إلاّ مع تساقط الثلوج. ولذلك يُعتبر الشتاءُ بلياليه المتطاولة في بلد الثلوج الموسم الملائم لأشغال النسّاج المختلفة. ولا يغفل خبراءُ العصور القديمة عن تفسير ما يشيعه ذلك النسيج من إحساس بالطراوة، على أنه الأثر الذي يخلّفه التناغم التام بين مبدأي النور والظلمة المتواليين؛ فالنسيج الذي يُنسج في برد الشتاء يحفظ شيئاً من نداوته حتّى في أشدّ أوقات الصيف قيظاً. بلى، وكوماكو كوّنت، هي أيضاً، من لعبة المبدأين إياهما: كوماكو التي علِقَتْه بالوثاق الأشدّ، بطراوة تلك الروح وحرارة كيانها التي تفوقها أثراً.

ومع ذلك لا بدّ أن تخبو جذوة الحبّ الذي يعتمل في كيان امرأةِ بلد الثلوج إذا خَبَت جذوتها هي، فلا تخلّف في هذا العالم أثراً يدوم كنسيج الشيجيمي! فعلى الرغم من أن القماش هو الأكثر هشاشة من بين المنتوجات الحرفية الأخرى، إلا أن الشيجيمي الجيّد، إذا توفّرت له العناية الصحيحة يُحافظ على متانته ورونق ألوانه لنصف قرنٍ من الزمن على الأقل، ولا يبلى تماماً إلاّ بعد مضيّ عقود طويلة. كانت تلك الأفكار تراودُ شيمامورا مستغرقاً في تفكيره حول هشاشة الصلات

الحميمة بين البشر، وأمدها الزائل الذي لا يدوم في الوجود دوامَ قطعة نسيج، عندما طالعته بغتةً صورة كوماكو وقد أصبحت أمّاً: كوماكو التي رزقت أطفالاً من صلبِ رجلٍ آخر سواه! فمكث مذهولاً، لا يتمالك اضطرابه، وأجال نظراته الساهية في الأرجاءِ من حوله. لا شكّ، بلى، لا شكَّ في أنّ الإرهاق هو السبب. . .

منذ أن أصبح يمدّد فترة إقامته هناك، كان السؤال الذي يتردّد دائماً: هل نسي زوجته وأولاده. إلّا أنّ السبب الحقيقي في تريّثه ليس رغبته في أن يبقى إلى جانب كوماكو أو عجزه عن الابتعاد عنها: بل، ببساطة، لأنّه اعتاد على انتظار زياراتها المتتالية، كان يدرك ذلك جيّداً، كما يدرك أيضاً كلّما عرّض نفسه لإغراءات الاندفاعة المتواصلة، ألحّ عليه السؤال عن مصادر الاخفاق فيه، عن التقصير لديه والذي يُثنيه عن العيش، كما تحيا هي، بكلٍّ ما في العيش من كثافة وامتلاء. كان يمكث هناك، إذا صحّ القول، كيما يتأمّل برودته، في غمرةِ عجزه التامّ عن إدراك سرّ نجاحها في التنكّر لذاتها، في بذلِ كلِّ شيء دون أن تُعطى، في الحقيقة، أيّ شيء في المقابل. ولذلك بات يسمعها ومن أعماقِ قلبه، كوماكو، كجَلَبةٍ مكتومة، كثلج يتساقط بصمت على بساط الثلج، كصدى يُنهَكُ لفرط ما يتردّد بين جدران غرفة خاوية. وبات يدرك أنّه لن يستطيع أن يدلّل نفسه إلى الأبد وأن يستسلم، على هذا النحو، لهدهدةِ من يدلّله.

وإذ مكث شيامورا مُنحنياً فوق وقدة الجمر التي وضعت في غرفته مع الثَلْجة الأولى، خطر له أنّه، ما أن يُغادر هذا المكان فالأغلب أنّه لن يعود إليه ثانية. كانت المغلاة العتيقة التي استعارها من صاحب

النزل، وهي عبارة عن تُحفةٍ صنعت باليدِ في طوكيو، مُرصّعةٍ بالفضةِ ونقوشِ أزهارٍ وطيور، تُصدرِ حفيفاً خافتاً أشبه بهبوب النسيم بين الصنوبرات. حتّى إنّه يستطيع التمييز بين صوتين مختلفين: حفيفُ النسيم الجبليّ الذي يتلاعب بأغصان الشجر وهو الأقرب، وحفيفٌ يتناهى من بعيد. وآخر، يحمله الحفيفُ الأبعدُ، كأنّه أكثر بُعداً، هو رنينُ جرسٍ تكاد لا تسمعه الأذن. أيسمعه حقّاً؟ أو أنّه لا يسمعه؟ أصغى شيامورا. ومن البعيد البعيد، هناك، حيث يقرع الجرس، تراءت له بغتةً قدمان ترقصان: قدما كوماكو التي ترقصُ على إيقاع رنين الجرس البعيد. فكفّ شيامورا عن الاصغاء. يجب أن يرحل. لقد آن أوانه.

وفي تلك الأثناء خطر له أن يزور بلد الشيجيمي، ظنّاً منه أن رحلته تلك قد تسهّل له مغادرته المنتجع الجبليّ إلى الأبد.

كان شيامورا لا يعرفُ أيَّ بلدة من بين البلدات المنتشرةِ في الوادي ينبغي أن يختار. وبما أنّ وسائل النسج الحديثة ما كانت لتثير اهتمامه اختار أن يغادر القطار في محطّة بدت له منعزلة وشبه مهجورة. ثمّ سار بعض الوقت قبل أن يصل إلى ما بدا له الشارع الرئيس في بلدةٍ لا بدّ أنها كانت ذات يوم مركزاً لتوزيع البريد.

على جانبي الطريق كانت تتراصف سقائف متقدِّمة جدّاً، وتسندها ركائز مظلّلةً ممرّات مسقوفة مزدوجة حيث يسلك العابرون عندما تتراكم الثلوج ويصبح عبور الشارع مستحيلاً كانت تشبه بعض الشيء تلك السقائف المائلة المنصوبةِ في العراء والتي يستخدمها تجّار إيدو القدماء لعرض بضائعهم. أمّا الممرّات التي تمتدّ من عمقِ

السقائف متراصفةً ومتّصلةً من بيت إلى آخر فكانت تحاذي الشارع من جانبيه. ولكي تُزالَ الثلوج المتراكمة على السطوحِ المتلاصقة، يعمد الأهلون إلى رميها في الشارع، أو الأحرى إلى تكديس الثلج فوق جدار من الجليد الذي لا يني يزداد ارتفاعاً طوال أيام الشتاء وقد حُفرت فيه أخاديد أو شبه أنفاق تخترقُ الشارع بالعرضِ لكي يُتاح للناس العبور من جهةٍ إلى أخرى.

لم تكن البلدة حيث تقيم كوماكو، في منتجع الينابيع الحارة، لتشبه تلك البلدة وإن كانت هي أيضاً ذات طابع جبلي لا يختلف عن سائر أنحاءِ بلد الثلوج: فالبيوت في بلدة كوماكو متباعدة ومحاطة بمساحات خالية. لم يرَ شيمامورا من قبل مثل تلك الشبكة من الممرّات المسقوفة التي تمتدّ بمحاذاة الطريق وعبرها كأنّها درعٌ تقي المنازل جُرُف الثلوج، فاستثارت فضوله فسلكها. كانت الممرّات تحت السقائق معتمةً ولاحظ أن الركائز التي تسندها بدت مهترئة من أسافلها. وراح في غمرة الظلالِ الداجية، ناحية البيوت المعتمة، يتخيل ليالي مواسم الشتاء الطوال، حيث أقام جيلاً بعد جيل، أجدادُ أهلِ البلدةِ وساكنوها.

تراءت له الفتيات، جيلاً بعد جيل، يُزاولن الحرفة وينسجن إلى الأبد، سجيناتِ الثلوجُ المتراكمة. وأدرك أنّ الحياة التي عشقها لم تكن مُشرقةً وناصعة كنسيجِ الشيجيمي الذي يَنضَحُ نقاءً ونداوةً والذي نَسَجْنَه بأيديهنّ الحاذقة. فقد أوضح مؤلّف الكتاب القديم الذي قرأه شيمامورا، وبعد أن ألمحَ إلى نصّ قصيدة صينيّة. أنّ صناعة نسيج الشيجيمي، ونظراً لجور القوانين الاقتصادية وحجم

الجهـد المبذول في نسجِ كلٍّ قـطعـة منـه، لا يمكن أن تكـون عمـلاً مجزياً. فلا يمكن إلّا أن تكون مجرّد حرفة عائلية ولا يستطيع أي حرفيّ في هذا المضمار أن يستخدم عمّالاً من خارج أسرته.

هكـذا هلكت كلّ الأيـدي المغْفَلة بعدُ كـدّها المثـابـر، ولم يبق إلاّ صنيعهـا: ذلك الشيجيمي النـادر الذي يُشبـع نزوات بعض الخـبراء المـرهفين أمثـال شيماورا، لنداوتـه العذبـة التي تحفظ الجلدَ من قيظ الصيف. وبدت له تلك الخـاطرة، بـرغم بساطتهـا، أشبه بـاكتشافٍ جوهريّ مثير. فالعمل الذي يبـذلُ القلبُ فيه غـايةَ شغفـه أين يودع مغزاه ومتى؟ ولمن سيَهِبَ شجاعة الكدِّ إيّاه، واندفاعة الإلهام إيّاه؟

على رَسْمِ طريق الـبريد التي عـرفتها عصـورٌ أخرى، كـان شارع البلدة الرئيس، يترامى، وفق خطٍّ مستقيم، عبرَ البيوت المتباعدة أكثر فأكثر ليصلَ، بلا ريب، إلى بلدة كوماكو وينابيعها الحارّة. وهنـا أيضاً كانت السطوح المبنية من قدَدٍ تنوء بثقلِ الحجارة التي يعرفها جيّداً

وإذ لاحظ أنّ ركـائز السقـائف تُلقي ببعض ظـلالهـا عـلى الأرض أدرك شيماورا أنّ النهار شارف عصرَه. لم يبق هنـاك ما يـراه فاستقـلّ قـطاراً أوصله إلى محطة أخـرى حيث وجـد بلدةً مشـابهـة. فمشى في ممـرّاتها وتـوقف، حـين أحسّ بـالـبرد، ليلتهم طبقـاً من الاطـريّـة في حانوتٍ متواضع عند ضفةِ نهرٍ لا بدّ أن يكون امتداداً لمجرى الشلاّل الـذي يتـدفّق من المنتجـع. ثمَّ رأى عـلى الجسر، جمهـرةً تبتعـدُ من الرؤوس الحليقة في صفّين أو ثلاثة: راهبات بـوذيّات ينتعلن جميعهن صنادل من القشّ، وعلى ظهور بعضهن تدلّت قبّعـة مستديـرة مقرّنـة وقـد جُدلت من القشّ هي أيضـاً. لا بدّ أنّهن في طـريق عودتهن إلى

الدير بعد طوافٍ، كما يحلّق الغرابُ قبل أن يهبط إلى عشّه.

«إنه موكب طوافٍ حقيقي!» قال شيهامورا

فأجابت المرأة صاحبة الحانوت:

«الدير هناك، على السفح. أحسبُ أنّه طوافهن» الأخير. فما أن تتساقط الثلوج حتّى يصبحهن أسيرات الدير لا يبارحنه».

فوق الجسر تعلو قمّة الجبلِ يَدَجّيها المغيبُ وقد توجها أوَّلُ الثلج ببياضه.

ما أن تتساقط أوراق الشجر التي تعصف بها الرياح الباردة العتيّة، في بلد الثلوج، حتّى تصبح النهارات مروحةً لتلاوين الرماديّ غائمةً يكتنفها الصقيع. كأنّ الثلج في الهواء. وتبيضّ حلقة الجبال المحيطة إذ تكسوها الثلجة الأولى ويُسمّيها الأهلون آنذاك «قبّعة القمم». وعلى طول الساحل الشمالي يجأر بحر الخريف ويهدر، كذلك الجبالُ هنا، في وسط البلاد، مُطلقةً تأوّهاتها كأنها قصفُ رعدٍ بعيد. ويُسميها الأهلون «ضوضاء الأعماق». وقبّعة القمم وضوضاء الأعماق، حسب الكتاب القديم الذي قرأه شيهامورا، يُنذران بحلولِ موسم الثلوج الكثيفة ويسبقانه بوقتٍ قصير.

وإذ شهد تساقط النديفات الأولى، في ذلك الصباح عندما أيقظه غناء الـ «نو»، راح شيهامورا يسأل نفسه إذا كان الهدير المنذرُ بالثلوج قد سمع في أنحاء الساحلِ والجبل. ألأنّ حواسه قد تصفّت لذول إقامته في رفقة كوماكو الأنثوية وحدها؟ وأصبح مجرّد التفكير في تلك الأصداء كافياً لأن يَسمع ضوضاء قصفٍ هائلٍ في باطن أذنيه.

«أحسبُ أنّ الثلوج تسدّ منافذ الدير كلّها طوال أيام الشتاء. كم عددهنّ؟

ـ عددهنّ كبير، قالت المرأة.

ـ وبماذا ينشغلن لتمضية الوقت، كلّ الوقت الذي يقضينه حبيسات الدير والثلوج؟ ألا ترين أنّه من الأفضل أن ينهمكن بنسج الشيجيمي؟»

واكتفت المرأة بأن تردّ بابتسامة على سؤال الغريب.

في المحطة مكث شيمامورا ينتظر القطار نحو ساعتين. كانت شمس الشتاء الخجولة قد غربت وبدت السماء الداجية صافية الاتساعِ حتّى كأنّ نجومها لَمعت حديثاً فتألّقت ببريقٍ لم تعهده من قبل. أحسّ شيمامورا بالصقيع يُجمّد قدميه.

عند وصوله إلى منتجع الينابيع الحارّة كان شيمامورا قد نسي تماماً لماذا غادره وما الذي كان يبحث عنه في رحلته تلك. فاستقلّ سيارة أجرة أعادته، على الطريق نفسه، إلى البلدة. وفيما كانت السيّارة تعبُر شارعها الرئيس لمحَ أنواراً لامعة عند غيضة الأرز، فسرت في كيان شيمامورا دفقات من الإحساس بالدفء والطمأنينة. كيكومورا: مطعم كيكومورا، وأمام الباب وقفت ثلاث أو أربع فتيات غيشا يتبادلن أطراف الحديث. عبرت السيّارة مسرعةً إلّا أنّه وجد، في العبور الخاطفِ، متّسعاً لأن تتراءى له كوماكو في صحبتهنّ، ثمّ أصبح لا يرى سواها.

خفّف السائق من سرعته فلا بدّ أنّه يعرف، هو أيضاً، شيئاً عن حكايتها.

أدار شيمامور وجهه لينظر عبر الزجاج الخلفي. كانت آثار العجلات ظاهرةً على الثلج لامعةً تحت أنوار النجوم السائرةِ نحو البعيدِ، هناك، حيث تتلاشى وتغيب.

كانت السيّارة تسير على مهل بمحاذاة كوماكو. وفجأةً أغمضت عينيها وارتمت على السيّارة التي تابعت سيرها على مهل، فيما تشبّثت المرأة بمقبض الباب وقفزت واقفةً على المرقاة.

بدت كوماكو حين ألقت بنفسها على السيّارة في وثبة لبوة كأنّها تستجيب لاندفاعة لاشعورية أو صبيانيّة، إلّا أن اندفاعتها تلك لم تفاجىء شيمامورا بل أثارت لديه إحساساً بالارتياح العميق، كأنّ يداً داعبته بلمسةٍ دافئة وغامرة. ولم يُصدَم لا للمخاطرة ولا لشذوذ ذلك التصرّف المفاجىء. فعندما رفعت كوماكو ذراعها من فوق الباب لكي تقف جيّداً على المرقاة انحسر كم الكيمونو حتّى مرفقها فبدا الأحمر الفاقع للكيمونو الداخلي الذي التمع على الزجاج المغلق قبل أن يسكب دفأه الساطع في قلب شيمامورا المرتعدِ بَرْداً.

ثمّ التصق وجه كوماكو بالزجاج.

إلى أين ذهبت؟ قل لي! إلى أين ذهبت؟ صرخت من وراء الزجاج المغلق.

ـ احترسي! ستقعين!» صرخ شيمامورا مُجيباً.

إلّا أنّهما كان يعلمان تماماً أن الأمر ليس أكثر من لعبة. لعبة حنان.

وإذ فتحت كوماكو الباب ارتمت على المقعد في اللحظة التي توقفت فيها السيّارة عند أوّل الدرب الصاعد في اتجاه الجبل.

ـ إلى أين ذهبت؟ أخبرني!
ـ باه! . .
ـ إلى أين؟
ـ لم أقصد مكاناً محدّداً. . . كنتُ في نزهة».

ولاحظ ببعضِ الذهول أنّها جمعت أطراف الكيمونو الطويل كما تفعل فتيات الغيشا المحترفات.

مكث السائقُ منتظراً دون أن ينبس بكلمة، وكان على شيمامورا أن يُقرَّ بغرابة موقفهما، جَالسين في سيّارة أجرة لا تستطيع أن تقلّهما إلى أبعد من المكان الذي وصلا إليه.

«لنترجّل! قالت كوماكو ممسكةً بيده. بـرّررر! يا للبردِ الشديد! أصابعك مجمّدة! لماذا لم تصحبني في نزهتك؟
ـ أتعتقدين أنّه كان ينبغي أن أفعل؟
ـ يا لغرابة أطوارك!»

كانت تضحك جَذِلةً وتسرعُ في تسلّق الأدراج الحجريّة التي تفترشُ الدربَ المدرّجَ في سلالم هاوية.

«لقد شاهدتُ رحيلك. . . كانت الساعة قد تجاوزت الثانية. . . لا بل عند الثالثة تقريباً. . . أليس كذلك؟
ـ بالضبط.
ـ لقد هرعت إلى الخارج عندما سمعت محرّك السيّارة ركضتُ خلفها. ولكنْ حتّى إنّك لم تلتفت؟
ـ ألم ألتفت؟

ـ لا. لم تلقِ ولو نظرةً خاطفة إلى الوراء. لماذا؟»

كان إلحاحها يفاجىء شيمامورا.

«ألم يخطر لك أنني ربّما كنتُ أراقب رحيلك؟

ـ لا، أبداً.

ـ إذاً، أتدرك الآن قصدي!» ثمَّ، جذلةً من الأعماق، مبتسمةً وسعيدة، التصقت به. «لماذا لم تصحبني في نزهتك؟ تُبقيني هنا ثمّ تعود إلي مُجمّد الأوصال. لا يروقني هذا على الإطلاق!».

ثمّ فجأة تناهى إليهما رنينُ ناقوس الخطر الذي يُقرعُ بضربات مُتسارعة إيذاناً بالخطر.

فالتفتا ليستطلعا الأمر.

«إلى الحريق! إلى الحريق!»

«ثمة حريق!

ـ النيران تشتعل هناك!»

وبالفعل كانت باقةً من الشرور واللهيب تستعرُ ناحية البلدةِ عند طرفها السُفلي.

أطلقت كوماكو ثلاث أو أربع صرخات تعجُّب وشدّت على يدِ شيمامورا.

كانا يشاهدان لسانَ لهب ينبجسُ بغتةً من عمود الدخان الكثيف ثمَّ ينقضُّ ملامساً السطوح المجاورة.

«أين الحريق؟ سأل شيمامورا... يبدو أنّه قربَ منزل أستاذة

الموسيقى . . .

ـ لا .

ـ أين إذاً؟

ـ أعلى قليلاً، ناحية المحطّة.

انبثق عمود لهب مُفاجىء فأضاء السطوح.

ـ إنه مخزن الشرانق! إنّه المخزن، أترى؟ الذي يحترق هو مخزن الشرانق!».

وإذ أسندت وجهها إلى كتف شيماورا ردّدت مراراً: «المخزن! المخزن يشتعل! المخزن!»

كانت النيران المحرقة هناك تستعر. ولكنْ من على التلّةِ حيث كانا يقفان بدا الحريقُ المتوقّد تحت السماء المرصعة بالنجوم مجرّداً من أي طابع فجائعي وأشبه بنيران ابتهاج بريئة. ومع ذلك كانا يدركان ما تولده النيرانُ من مشاعر الهلع حتّى تراءى لهما أنّهما يسمعان طقطقة السعير المُلتهم. فطوّق شيماورا كتفي كوماكو بذراعيه.

«لا شيء يدعوك إلى الخوف! قال بارتباك، محاولاً أن يهدىء من روعها.

ـ أوه! لا، أوه! لا، أوه! لا»، ردّدت وهي تهزّ رأسها بعنفٍ قبل أن تنفجر باكية. وكان وجهها الذي داعبته يدُ شيماورا، ضامراً فيما غضّنتِ الرعشةُ جبينَها العنيد.

لا بدَّ أنّ مشهد الحريق هو سببُ انتحابها ولم يسع شيماورا لمعرفة سبب آخر لاضطرابها المفاجىء. إلاّ أنّها، على غرار انتحابها

المفاجىء، لم تلبث أن كفَّت عن البكاء بَغْتةً وأفلتت من طوقِ ذراعيه بحركةٍ من جسمها:

«يُقامُ عرضٌ سينمائي في المخزن هذا المساء. ولا بدّ أنّه يغصُّ بالحاضرين... سيكون هناك جرحى... وقتلى... ومحروقون!»

هرعا في اتجاه النزلِ حيث سمعا جلبةً وصياحاً: كان النزلاء يحتشدون على شرفات الطبقتين الأولى والثانية التي تنيرها الأضواء المتدفّقة من الأبواب المفتوحة خلفهم. وعند أطراف الحديقة بَدَت في بقعةِ الضوء الذي يُسلَّط من أعلى، أو ربّما، الذي تعكسه النجوم، أخيلةٌ داكنة للأقحوان المنهوكِ الذابلِ كأنها ظلالٌ مستوحدة. حتّى إنّ شيمامورا حسبَ لوهلةٍ أنّها انعكاسات لهب الحريق. ومن وراء المسكبة انبثقت ظلالُ ثلاثة أو أربعة أشخاص. ولمحا البواب في عداد الراكضين نحو السلالم.

«أهو مخزن الشرانق؟ سألت كوماكو حين دنوا منها.

ـ أجل، إنه المخزن! أجل، أجل!

ـ جرحى؟ أثمّة جرحى؟ سألت بصوتٍ يتهدّجُ قلقاً.

ـ يحاولون الآن إخلاء المكان. لقد اشتعل الفيلم وفي ثوانٍ معدودة اشتعل المكان. هذا ما بلغني في اتصال هاتفي. ولكن انظروا، قال وهو يُشير بذراعه متابعاً طريقه. يبدو أنهم يُلقون بالأولاد واحداً تلو الآخر من أعلى الرواق!».

«ما العمل؟» سألت كوماكو وقد وجدت نفسها هارعة في أثر الهارعين وشيامورا يتبعها. ثمّ راحت تهبط الأدراج راكضةً.

عندما وصلا إلى أسفل السلّم اشتدّ بها القلق. كان عمود النيران المرتفع يحجبُ الرؤية فوق السطوح، فيما ناقوس الخطر يُطلق رنينه الذي يزداد تسارعاً وإلحاحاً.

«احترس، الأرض زلقة هنا، مُجمّدة! قالت فجأة وقد توقّفت لثوانٍ ملتفتةً نحو شيامورا. لا تقلق، سأتدبّر أمري. بامكانك أنت أن تمكث هنا. أما أنا فينبغي أن أكون هناك تحسُّباً فقد يكون هناك جرحى من أهل البلدة...».

وبالفعل لم يكن لدى شيامورا ما يدفعه لمتابعة طريقه. فقد فارقته اندفاعته الأولى. وإذ خفض عينيه لاحظ أنّه يركضُ بمحاذاة خط السكّة الحديد.

آه! المجرّة... إنها رائعة!» صاحت كوماكو إعجاباً فيما تواصلُ ركضها أمامه وعيناها شاخصتان في السماء.

المجرّة... عندما نظر إليها شيامورا، هو أيضاً، تراءى له أنّه يسبَح في عبابها لفرط ما بدت له قريبة في تألقها المُومض وكأنّها جذبته إليها. أكان الشاعر باشو(*) مفتوناً بمثل هذا الاتساع المُشعّ، الباهر، الذي وصفه بأنّه فُلْكُ الدَعةِ فوق بحرٍ هائج؟ ذلك أنّها كانت تميلُ بعَقْد قبّتها، مباشرةً فوق رأسه، حاضنةً الأرضَ الداجية في

(*) Bâscho (١٦٤٤ ـ ١٦٩٤) أحد أبرز شعراء الهايكو اليابانيين، من مدرسة «دانرين» (Danrin).

كنفها النقي، المُطلسمِ الخلو من أي انفعال. صورة نقيّة وفي متناول الإدراك لبهجة حسيّة مُخيفة، أحسَّ شيامورا تحت وطأتها لهنيهات أنّ خياله ينفصمُ إلى ظلالٍ متعدّدة بعددِ النجوم المومضة، بعدَدِ ما يشتمل عليه ذلك النور الحليبي من شذراتٍ فضيّة وانعكاساتها البارقة خلفَ الغيوم، حتّى إنّ كلّ قطرة منها، مهما بدت متناهية الصِغر، تشرقُ بأنوارٍ تذوب في لاتناهيها، لشدّة ما كانت السماء صافيةً، صفاءً وشفافية لا يُدركهما تصوّر. كان شيامورا مفتوناً لا يسعه الإغضاء عن ذلك الوشاح اللامتناهي، تلك الغلالة التي لا حدودَ لشفافُيتها، والتي نُسِجَت بلطائفِ اللامنتهى.

«انتظريني! انتظري! صرخ شيامورا يُنادي كوماكو التي سبقته.

«تعالَ بسرعة!» صاحت متابعةً ركضها في اتجاه سفح الجبل الذي تنسدلُ وراءه غلالة المجرّة المضيئة. وتراءى له تحت ضياء النجوم المنعكسة فوق الثلج أنّه يرى البطانة الحمراء للكيمونو الداخلي وقد رفعت طرفه وألقته على ذراعها التي تترجّح عالياً أثناء ركضها السريع.

حاول شيامورا أن يلحق بها فانطلق مُسرعاً وراءها. إلاّ أن كوماكو أبطأت قليلاً وأمسكت بيده، فأفلت طرف الكيمونو وراح ينسَحِب على الأرض.

«أتريد أن تأتي أنت أيضاً؟

ـ أجل.

ـ بسبب الفضول، دائماً! قالت وأمسكت مجدّداً بطرف الكيمونو الذي ينسحب على الثلج. هيّا عُدْ إلى النزل، وإلاّ لاكتنا ألسنة الناس...

ـ بضعة أمتار أخرى.
ـ إنك تقترف خطأ جسيماً. فسيلومونني لأنني اصطحبتك إلى مكان الحريق!».

رضخ لرجائها بحركةٍ من رأسه وتوقّف عن الركض، إلاّ أنّها أبقت يدَها على ذراعه دون أن تمسكها متابعةً ركضها.

«انتظرني في مكان ما، لن أمكث طويلاً هناك، قالت لاسترضائه. سألحقُ بك. ولكن إلى أين؟
ـ حيثما شئتِ.
ـ إذاً!... دعنا نلتقي هناك، على مقربة..»

ثم هزّت رأسها بعنفٍ وقالت:

«لا! لا أريدك أن تمكث هنا! هذا يفوقُ احتمالي!»

وارتمت بقوة بين ذراعيه حتّى إنّه تراجع خطوة أو خطوتين لشدّة ما التصقت به. وعلى جانب الطريق، خَلْفَه استطاع أن يرى برغمِ الظلام صفّاً من نباتات الكرّات التي لم يطمرها الثلج.

وكان كلام كوماكو سيلاً من العبارات التي تلقاها شيمامورا صامتاً:

«لماذا أطلقت عليَّ مثل تلك النعوت؟ أوه! لماذا تعمّدت أن تُسمِعَني تلك العبارة المقيتة؟ امرأة ممتازة! بعد أن صمّمت على الرحيل... لماذا؟»

عاودت شيمامورا صورةُ كوماكو راكعةً على البوريّة تغرزُ دبّوس الشعر الفضيّ اللامع في الأرضيّة الخشبية بضرباتٍ حانقة يائسة.

«لقد أبكيتني. وعندما عدتُ إلى منزلي بكيتُ أيضاً. كم أخشى

الفـراق. ولكن، أتوسّـل إليـك، ارحـل! ولن أنسى مـا حييتُ أنَّـك أبكيتني».

وإذ أدرك أنّ الغلطة البسيـطة التي اقترفهـا، والتي لم تكن أكثر من سـوء فهم، قـد سبّبت لهـا الأذيّـة وبـرّحت كيـانها من الأعـماق، من أعماقِ ما في أنوثتها، لم يستطع شيماورا لوهلةٍ إلاّ أن يستفظع الفراق كما لم يشعر من قبل.

في تلك الأثناء تناهت إلى مسـامعهما صيحـة أطلقها المحتشـدون، هناك، قربَ الحريق، أعقبها على الفور أجيـجٌ مباغتٌ لألسنـة اللهب التي تطايرت منها باقاتُ شَرَرٍ وتناثرت في الفضاء.

«أرأيت! النيرانُ تستعر أكثر فأكثر!».

هـرعت كومـاكو راكضـةً تكادُ قـدماهـا لا تـطآن الأرض المكسـوة بالثلوج. فبرغم ضـآلة جسمهـا ورقّته كـانت من طينةِ أولئـك الذين يتحمّلون المشقّـات، فكّر شيـامـورا الـذي نـال منه الاعيـاءُ لمجـرّد رؤيتها، وما لبثَ أن توقف لشدّةٍ ما أنهك الركضُ جسمَـه المائـلِ إلى البـدانـة. ولكن لحسنِ الحظ سرعـان مـا تعبت كـومـاكـو هي أيضـاً وتوقفت لتنتظره وما أن دنا منها حتّى تهالكت بجسمها عليه.

«عينان تدمعان، قالت واللهاثُ يُقطّع كلامها: إنّه الصقيع».

كانت عينا شيماورا دامعتين أيضاً يحـرّقهما وخـزُ البردِ فيـما التهبت وجنتاه. كان يُطبق أجفانه تكراراً ليزيل تلك الغشاوة الرقراقة قبل أن تسيل دموعاً على خـدّيه. إلاّ أن أجفـانه المـطبقة في نصف إغـماضة لم تَحُل دون التماعِ المجرّة مجدّداً في عينيه.

أتسطع كلّ ليلة كما تسطع الآن؟

ـ المجـرّة؟ إنها رائعـة، أليس كـذلـك؟ لا، في العـادةِ لا تكـون ساطعةً كما هي الآن. فليست كلّ الليالي بمثل هذا الصفاء».

وبدا ذلك الفُلْك الموضُ الذي يوغل في اتجاهِ سيرهما وكأنّـه يغمر رأس كوماكو بالضياء.

كان أنفها الأقنى قليلاً يبدو أقـلّ بروزاً، أمّـا حمرة شفتيهـا الوافـرة فكأنّها فَشَتْ في وجهها كلّه. أيُعقل أن يكون ذلك النور المذهلُ الذي تعدّى السماءَ مُعتـماً كأحلكِ مـا تكونُ العتمـةُ؟ والحقُّ أن شيمامـورا ما كـان ليصدّق ذلـك. أيمكن لليل أن يكـون أحلَكَ مما يكـون في ضوءِ القمر، كما في تلك الليلة، عندما كان الدرب المنجّم يسطعُ بوضـوح كما لا تسطع الليالي المقمرة؟ ومع ذلك مـا كان يسعـه إلّا الاقرار بـأنّ اللمعـان الحافـل للمجرّة لا يُلقي بـأية ظـلال عـلى الأرض، وتضفي أنواره الطيفية على وجه كوماكو مظهراً غريباً كـأنّه قنـاع قديم يـتراءى من خلاله عنصرٌ أنثوي طاغٍ!

وإذ رفع عينيه مجـدّداً نحو قبّـة الضياء العمـلاقة، شعـر شيمامـورا مجدّداً بذلك العناق الذي تطبق به السماء الموضة على الأرض.

تماماً مثل شفقٍ لامتناهٍ كأن المجرّة تغدقُ عليه بالضياء قبل أن تتبدّد خلف حدود الكون. وسرت برودة ذلك الصفاء قشعريـرةً في كيانـه، كأنّها ذبذبـة انتشاء مكثَ من جـرّائها في غمـرة الذهـول والافتتان في وقتٍ معاً.

«عندما تغادر، قالت لـه كومـاكو مستـأنفة سـيرها، عنـدما تغـادر سأستعيد سلوكي اللائق».

كانت تحاولُ أثناء سيرها أن تُصلح تسريحتها التي شعّثهـا الركض.

وبعد قليل استدارت نحوه:

«ماذا تفعل؟ أرجو أن لا تكون مصمّماً على المكوث هنا؟»

كان شيامورا واقفاً يرمقها بنظرات ثاتبة.

ـ أوه! هلاّ انتظرتني؟ وبعد ذلك نعود إلى غرفتك...».

ثمّ أشارت إليه بيدها اليسرى واستأنفت ركضها، ثمّ ما لبث خيالها الضئيل أن تلاشى في العتمةِ كأنَّ الجبل ابتلعه. لثوانٍ فيما كان شيامورا يتبعها بنظراته، تراءت له القمم المسنّنة كأنّها تمزّق غلالة المجرّة الباذخة التي طالعه لمعانُها المومضُ من جديد عند أعلى القبّة، في عمقِ السماء، مُخلِّفةً الجبال غارقةً في عتماتها الراكدة.

اختفى طيفُ كوماكو خلف بيوت الشارع الرئيس، عندما انعطفت من هناك مُتابعةً ركضها، فاستأنف شيامورا سيره للحاق بها.

كان صياح أجشّ، هيه هوه! هيه أوه! يوقّع خُطى رجالٍ يجرّون مطفأة حريق في الشارع الرئيس، تتبعهم جمهرة من الراكضين لم يلبث شيامورا أن انضمّ إليهم عند المنعطف.

مطفأة أخرى تقترب من ورائه، فانتحى جانباً مفسحاً لها في الطريق، ثمّ سار خلفها.

مطفأة حريق قديمة، يدويّة الاستخدام، مضخّة مُضحكة تجرها جمهرةٌ من الرجال بواسطة حبلٍ تتبعها على الجانبين جمهرة أخرى من الناس للمساعدة. حتّى إنّ المطفأة على ضخامتها، كانت تبدو ضئيلة الحجم وسط ذلك الحشدِ الهائلِ من الناس.

كانت كوماكو قد انتحت جانباً، هي أيضاً، مفسحة في المجال لمرور المطفأة، وعندما رأت شيمامورا وسط الحشد هرعت لتنضمّ إليه. كان الناسُ ينتحون من طريق المضخّة في تقدّمها البطيء ثمّ ينضمّون إلى الجمهرة التي تتبعها كأنها تجذبهم إليها. وكان شيمامورا وكوماكو وسط ذلك الحشد المتراكض صوبَ الحريق مجرّد شخصين مُغْفَلين تقودهما الجمهرةُ حيثما تشاء.

«في آخر الأمر صمّمت على المجيء! بدافع الفضول، أليس كذلك؟

ـ بالطبع! وتلك المضخّة البائسة المضحكة! لا بدّ أنها صنعت منذ قرنٍ من الزمن، في الأقل.

ـ في الأقلّ، بلى. ولكن احترس لئلّا تقع.

ـ إنّها لمزلقة حقاً.

ـ ألم تشهد العاصفة الثلجيّة من قبل، عندما تكنُس رياح الصقيع الثلوج المُسفَّة طوالَ ليالٍ بأكملها! يجب أن تشهد مثل تلك العواصف! ولكنّك تؤْثِر ألاّ تخوضَ المخاطرة بالطبع! خلال العاصفة تهرع الأرانب وطيور التدرج إلى البيوت بحثاً عن ملاذ».

كانت تخاطبه بنبرة انفعال كمَنْ عيل صبره، وكأنّ صوتها يُصاحبُ إيقاع الصياح المتناهي من المقدّمة ووطء الأقدام الهارعة من الخلفِ، ومن الجانبين، وسط تلك الجمهرة التي كان شيمامورا مُنقاداً إلى إيقاعها ووجهة سيرها.

كان الجمعُ قد أصبح على مقربةٍ من مكانِ الحريق، فسُمع أزيز النيران المستعرة وشوهدت ألسنة اللهبِ تنبثقُ على بُعدِ أمتار. تشبّثت كوماكو بذراع شيمامورا. وبدت البيوتُ الوطيئة والمعتمة وكأنّها بين

شهيق وزفير إذ تنبثقُ أخيلتها تارةً في وهج النـيران، وتلوذَ تارةً أخـرى بحلكِ الليـلِ إلى جانب الـطريق. كانت مياه المـطافىء تتـدفّقُ عـلى قارعة الـطريق، فاحتشـدوا أمامهـا سدّاً بشـريّاً منيعـاً وصلباً. وكـان الدخانُ المتصاعدُ يُشيعُ رائحةَ الحرير المحروق.

كـانت الأفواه تتنـاقل الخـبرَ في صباحٍ يتـردّد بين الجمـوع: بـلى، انـدلع الحـريق في آلة العـرض؛ بلى، لقـد ألقـوا بـالأولاد من أعـلى الـرواق، بلى، بـلى. لا، ليس هناك جـرحى؛ لا، لقـد شـاء حسنُ الطالعِ أن يكون المخزن خالياً من الشرانق أو أكيـاس الرزّ. وبـرغم تلك الأصوات التي ترتفع أحياناً، كـان صمـتُ لوجومٍ سـائداً عـلى مشهد الحريق المأسوي الذي وقف الجميعُ حياله مذهولين كأنّ ضراوة النـيران تُسكت الأصـوات وتعصر القلوبَ وتُـزيـلُ معـايـير النِسَبِ والمقـارنـة. لم يكن للواقف هنـاك إلاّ أن يُصغي إلى غـطيط النـيران الرهيبة وجلبة المطافىء اليدوية.

ومن حـين إلى آخر، يصـلُ وافد جـديد من أهـلِ البلدة وينـادي أحدُ الأقرباء، فيعلو صوتٌ، من هنا وهناك، فتتنادى الأصوات لثوانٍ ويتبـادل الناجـون صياح الابتهـاج الذي أعقب القلق. وحـدها تلك الأصـوات كـانت تُضفي عـلى المشهـد بعض الحيـاة والحـركـة. حتّى ناقوس الخطر توقّف رنينه.

ابتعد شيمامورا عن كوماكو، خشيـة أن يُرى في صحبتهـا، واندسّ خلف تلّة من الصبيـان لم تلبث النـيران المستعـرة أن أرغمتهم عـلى التراجعِ قليلاً. كانوا يخوضون في الثلج الذائب مُخلّفين وراءهم مزيجاً موحلاً من الثلج والمياه الموطوءة بألفِ قدم.

تـراجـع الصبيـة إلى حـدود الحقـل الـذي يُحـاذي عـرضَ مخـزن

الشرانق، وكان معظم المحتشدين الوافدين من جهة الشارع يتجمهرون هناك.

لا بدّ أن النيران اندلعت عند مدخل المبنى حيث بدا السقف والجدران محترقةً تماماً وقد التهمها الحريقُ حتّى منتصف القاعة فيما كانت الركائز والعوارض الخشبية تواصل احتراقها البطيء، فالمخزنُ المشيَّد على غرار! إهراءٍ ضخم مبنيٌّ من الخشب: ركائزه وجدرانه وأرضيّته وسقائفه. لم يكن الداخلُ المتأجج عابقاً بالدخان. وبدا أن الحريق الذي كان يلتهم السقف قد أخمد برشقات مياه المطافىء ولكنَّ النيران ما زالت تستعرُ كامنة تنبجس ألسنة لهب هنا وهناك وتشتدّ إلى أن تُحاصرها رشقات المطافىء الثلاث. وأحياناً في غمرة انهماك العاملين على إخماد الحريق تخطىء الخراطيم أهدافها فتتجاوز رشقات المياه أعلى الحائط ويبدو قوس الماء مُعلّقاً لثوانٍ في الفراغ، مُترجّحاً قبل أن يتبخّر ويتساقط، في الناحية المقابلة، قطراتٍ صغيرة لا تراها العين. وإذ تضربُ زخةُ المياه بؤرة السعير يتصاعدُ عمودٌ مدوّمٌ من الدخان الأسود مصحوباً بباقاتِ شررٍ متوقّدة.

كانت باقات الشرر وألسنة اللهب المتطاولة ارتفاعاً تُعيدَ أنظار شيامورا إلى قبّة المجرّة التي حجبها الدخان المتصاعدُ لهنيهات، ثمّ انقشعت فبدت رقراقةً صافية تتألق أنوارها المعقودة في الجهة المقابلة حيث تتناثر القطرات المتلألئة لزخات المطافىء، حين تُخطىء هدفها وتتطاير في الفضاء، وتمتزجُ بوميضها البعيد.

كانت كوماكو قد انضمّت إليه ولا يعرف منذ متى. كانت يدها تبحث عن يده متلمّسةً فالتفت نحوها دون أن يُخاطبها: كانت تتأمل النيران التي يُضفي وهجُها المتماوجُ مزيداً من الإنفعال على وجهها

المتـورِّدِ قليلاً والمشـدود القسـمات. سرت في كيـان شيـمامـورا رعشـة انفعـال عميق. كـانت تسريحتهـا قـد تشعّثت قليـلاً وتنتفضُ رقبتهـا الحاسرة على وتائر لهاثها المتلاحقِ. كانت أصابع شيمامورا ترتعشُ لهفةً للمسها، حتّى أحسّ بالعرقِ يُرطِّب راحتيه. إلاّ أن يد كوماكـو كانتْ أشدّ سخونـة. ودون أن يُدرك لمـاذا، أحس شيمامـورا بفراقٍ وشيـكٍ بينهما، وبأنّ شيئاً ما يحتمّ عليهما ذلك الفراق.

فجـأةً استعرت النـيران بضراوةٍ عـلى طـول الـدعـائم والعـوارض الخشبيّة عند المدخل، فلم تلبث المـطافىء أن صوّبت نحـوها زخّـات خراطيمها فتصاعدَ منها البخارُ مصحوباً بأزيز وطقطقة فانهار قسمٌ من هيكل البناء وتهدّم.

عَلَت صيحةٌ من بين صفوف المحتشدين إذ رأت عيونهم الشاخصة جسمَ امرأةٍ يهوي في المحرقة.

كان الرواق الداخلي الذي شيِّد خصّيصاً لتسهيل استخدام المخزن كصـالة للعـروض السينمائيـة أيضاً، لا يـوازي في ارتفاعـه علوّ طبقة عاديّة، ولم يستغـرق الجسمَ الذي سقط منـه سوى بضعـة أعشار من الثـانيـة قبـل أن يـرتـطم بـالأرض. إلاّ أنّ جميـع المحتشـدين رأوه. وسجّلت كلّ العيون الشـاخصةِ سقـطتها القـاتلة في أدقّ تفاصيلهـا. وكأنّ الوقت عُلِّقَ بغتةً وامتزج بالحركـة الغريبـة لذلـك الجسم المجرّد من الحياة، أشبه بدمية، وقد هوى محوّماً في الفضاء. من الواضح أنّ الفتـاة المسكينة كـانت فاقـدة الوعي. وقـد أفضت بهـا سقـطتهـا إلى الارتـطام بالأرض في مكـانٍ بين الحـريق المستعر مجـدّداً عند المـدخل وبؤرة النـيران المضطرمـة عند طـرف المبنى الخلفي. وكانت الميـاه قـد بلّلت كلّ شيء في الداخل، لذلك لم يُحدثُ الجسمُ المـرتطم بـالأرض أي تناثر للغبار أو الرماد.

صـوّبت إحدى المطافى زخّة مياه مقوّسـة نحو الجمـر والانقـاض فأغرقتها حتّى بدا فجأةً جسمُ امرأة كأنّها انبثقت من دفق المياه. هكذا جرت المأساة. ظلّ الجسمُ أفقياً في سقطته في الفراغ فتراجع شيـامورا خـطوة إلى الوراء بحـركةٍ عفـوية دون أن يُثـير فيه المشهـد أي شعور بالهلع: فقد كـان يرى إلى كـلٍّ ذلك وكـأنّه مجـرّد خرافـة ووهم. ولم يلبث الجسمُ المسجّى أن فقـد ما بـدا عليه من تصلّب أثنـاء السقـطة وأصبح مفرطاً في ليونته ورقّته حتّى أن زوال مقاومته الحيّة التي جعلت منـه أشبـه بـدميـة قـد مَحَت الفـارق الـذي كـان يُبقيـه بـين الحيـاة والموت. . . وإذ سـرت في بقاياه رعشةٌ ما فلأنّه يَخشى تشوّهـاً قاتـلاً: الخشية من أن تُفقده الأضرار المحتملة: رأساً أو ركبة أو وركاً، أناقـة قوامه المثاليّة. . .

إلّا أن الجسم الممدّد على الأرض حـافظ على وضعيّتـه الأفقيّة كـما كان أثناء السقطة.

أطلقت كوماكـو صرخةً مـدوّية وقـد غطّت وجههـا براحتيهـا. أمّا شيامورا فمكث شاخصاً في الجسد الراقد.

متى أدرك أنّها يـوكو؟ بـدا له أن صراخ الجمعِ تزامن مـع صيحة كـومامـو وفي الأثناء لمـح اختلاج ربلة السـاقِ لدى يـوكو الممـدة على الأرض.

لقـد اخـترقتـه صيحـة كـومـاكــو من الصميم إلى الصميم، أمّـا الاختلاج الذي هزَّ ساقَ يـوكو قـد أحلّ الـرعشة في كيـانه وسرت في أوصـاله حتّى أصـابع قـدميه. كـانت مشاعـر الأسى الغامضـة تعتصر قلبه.

كانت الساق تَرْتعدُ باختلاجات ضعيفة فلا يراها الناظـر من بُعد.

وما أن هَمدت حتّى رفع شيماورا عينيه يتأمّل الجسَد المُغطّى بالكيمونو الأحمر حتّى الوجه.

كان الكيمونو حاسراً إلى ما فوق الركبة، فقد سقطت يوكو على ظهرها وظلّت ممدّدة فاقدة الوعي بلا حراك باستثناء تشنّجات ربلة ساقها اللاإراديّة. إلاّ أن ذلك السكون في جسم يوكو، لم يوقظ في روع شيماورا أيّ صورة للموت. وهو نفسه لا يعرف لماذا. كان يتأمّلها كأنها في حالة تحوّل، أو في مرحلة انتقال، من شكلٍ مألوف لحياة الجسم إلى شكل آخر.

كانت بعض الألواح الخشبية لا تزال تحترق فوق رأس يوكو. وكانت نظرتها العذبة، تلك النظرة التي تخترق كيانك، أسيرة أجفانها المطبقة. ذقنها المُدبّب إلى أعلى كأنّه استكمالٌ لسمتِ العنق، أمّا انعكاساتُ اللهب الحمراء فتوشي وجهها الشاحب بألوانٍ مُتراقصة.

لم يستطع شيماورا أن يتمالك تأثّره العميق عندما أعادته الذكرى إلى الأنوار المُدهشة المُبعثرة هناك في أعلى الجبل وقد انعكس بريقها على ملامح يوكو المثيرة، في مرآة النافذة الغسقية أثناء رحلة عودته للقاء كوماكو. حتّى السنوات التي شهدت علاقته بها والأشهر التي قضاها إلى جانبها بدت له ساطعة هي أيضاً وكأنّها نُوِّرت ببريق ذلك المصباح البعيد. فانتابته مشاعر الأسى التي لا تُسمّى وأثقل الحزنُ صدرَه.

كانت كوماكو قد ابتعدت عنه راكضةً صوبَ الحريق فيما عَلَت صيحتها المدوّية وغطّت عينيها براحتيها وامتزج صراخها بصراخ المحتشدين في المكان. كان كيمونو الغيشا الطويل يَسحبُ على الأرض خلفها وهي تركضُ مُتعثّرةً بين نُقع الماء وركام الدعائم شبه

المترمّدة التي تعترض طريقها.

وفي آخر الأمر استدارت نحوهم حاملةً يوكو بين ذراعيها؛ كان الجهدُ الذي تبذله يمدّد وجهها ويشدُّ قسماته فيما بدا وجه يوكو الذي يترجّح على ساعدها خُلواً من أي تعبير، هادئاً، وأبيض وساكناً كما الوجوه التي تفارقها الروح.

كانت كوماكو تتقدّم، كأنها تحملُ أضحيةً أو ربّما حِمْل عقابها، ولا تبالي بالأنقاض التي تعترضُ سبيلها.

هرع الحشدُ إليها وتحلق الجميع حولها بصراخهم المستعاد:

«تراجعوا! ابتعدوا!»

كان ذلك صوت كوماكو الذي تناهى إلى سمع شيمامورا.

«ستصبح مجنونة! مجنونة! مجنونة!» وسمع أيضاً تلك العبارة تتردّد بعد صراخ كوماكو.

ولكن عندما همّ بالتقدّم نحو الصوت الذي تناهى إليه كأنّه الهذيان، تحلّق الرجالُ حولها مُحاولين انتزاع يوكو من ذراعيها، فصدّوه في تدافعهم حتّى كاد أن يفقد توازنه وترنّخ. خطا خطوةً إلى الوراء لكي يستدرك سقطته، وإذ مالَ بجذعه إلى الخلفِ رافعاً رأسه انسكبت المجرّة في أعماقه يَصْحَبُها دويٌّ مُذهل.

ياسوناري كواباتا.

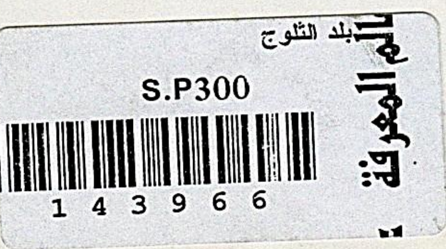
هو أكبر روائيي اليابان وأعظمهم شهرةً. ولد في «اوزاكا» عام ١٨٩٩ وتخرّج من جامعة طوكيو عام ١٩٢٤. ولم يلبث أن استرعى انتباه الأوساط الأدبية والنقدية منذ صدور مجموعته القصصيّة الأولى «راقصة إيزو» التي صدرت لأوّل مرة عام ١٩٢٥، ثمّ توالت أعماله الروائية الأخرى التي ترجمت إلى عدد كبير من لغات العالم. نال جائزة نوبل للأداب عام ١٩٦٨. وفي ١٦ نيسان (إبريل) عام ١٩٧٢ انتحر كواباتا في الثالثة والسبعين، وهو في ذروة مجده الأدبي.

له مؤلفات روائية عديدة نُقل بعضها إلى العربية:

«بلد الثلوج» (١٩٤٨)، «غمامة لقالق بيضاء» (١٩٥٢)، «ضجيج الجبل» (١٩٥٤)، «البحيرة» (١٩٥٩)، «الجميلات النائمات» (١٩٦٠)، و«كيوتو» و«حزن وجمال» وأستاذ لعبة الغو» (١٩٧٢)، وراقصة إيزو حزيران ١٩٩٠.

كان كواباتا يقول: «يكفي غصن شجرة، إذا كان مرسوماً باتقان، لكي يسمع صوت الرياح». ولعل هذه النزعة الحسيّة الحادة هي التي تجعل من أعمال كواباتا أقرب إلى رسوم مصوريّ الشرق الأقصى. هناك دائماً تلك الصور الشاعريّة التي تتلاشى ولا يبقى منها سوى الخط الحادّ، بالغ القسوة أحياناً.

صمّم الغلاف: نجاح طاهر



علي مولا